الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

٥



المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي

للقديس يوحنا الدمشقي

عرّبه عن النصّ اليوناني
الأرشمندريت أدريانوس شكّور ق ب


المئة مقالة
في الإيمان الأرثوذكسي

إيضاح موجز في الإيمان الأرثوذكسي

المعروف

بالمئة مقالة

للأب البارّ يوحنا القسّ (الشيخ) الدمشقيّ

*

عرّبه الأرشمندريت أدريانوس شكور ق ب

عن النسخة اليونانيّة المنشورة في مجموعة الآباء اليونانيّين

Migne, P.G., t 94, Col. 789-1228

وقابله على أحدث طبعة علميّة (١٩٧٣) للأب ب. قوتّر البندكتي

P.B. KOTTER, O.S.B.,

Institut Byzantin de l'Abbaye de Scheyern

*

طبعة أولى ١٩٨٤

سلسلة

الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

٥

المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي

للقدّيس يوحنّا الدّمشقي

عرّبه عن النصّ اليونانيّ

الأرشمندريت أدريانوس شكّور ق ب



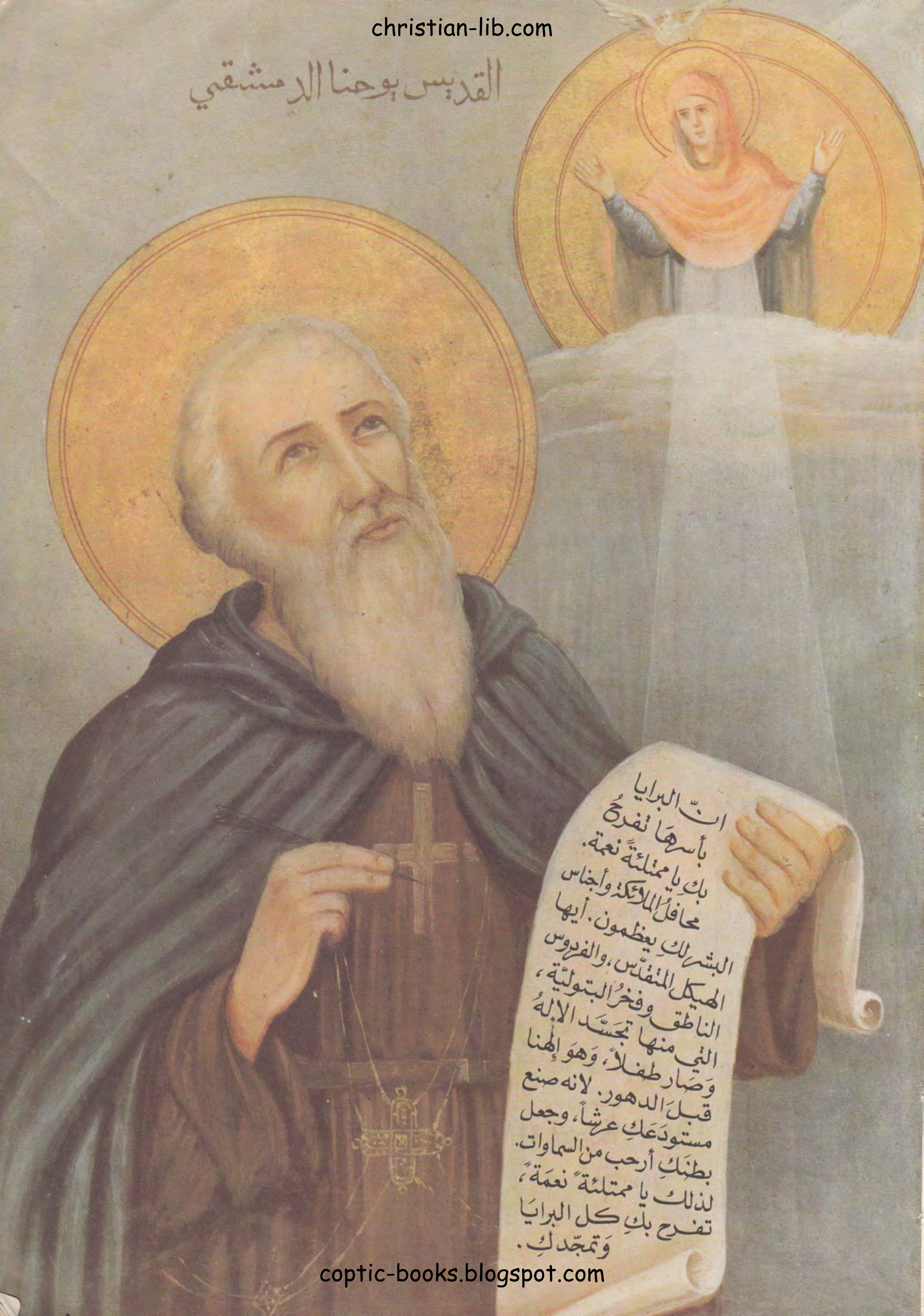
منشورات المكتبة البولسيّة

شارع لبنان - بيروت - ص.ب: ٤٤٥٩-١١ لبنان

هاتف: ٢٢٤٨٠٦ - ٢٣١٩٧٣ - ٢٤٩٨٠١

شارع القديس بولس - جونيه - ص.ب: ١٢٥ لبنان

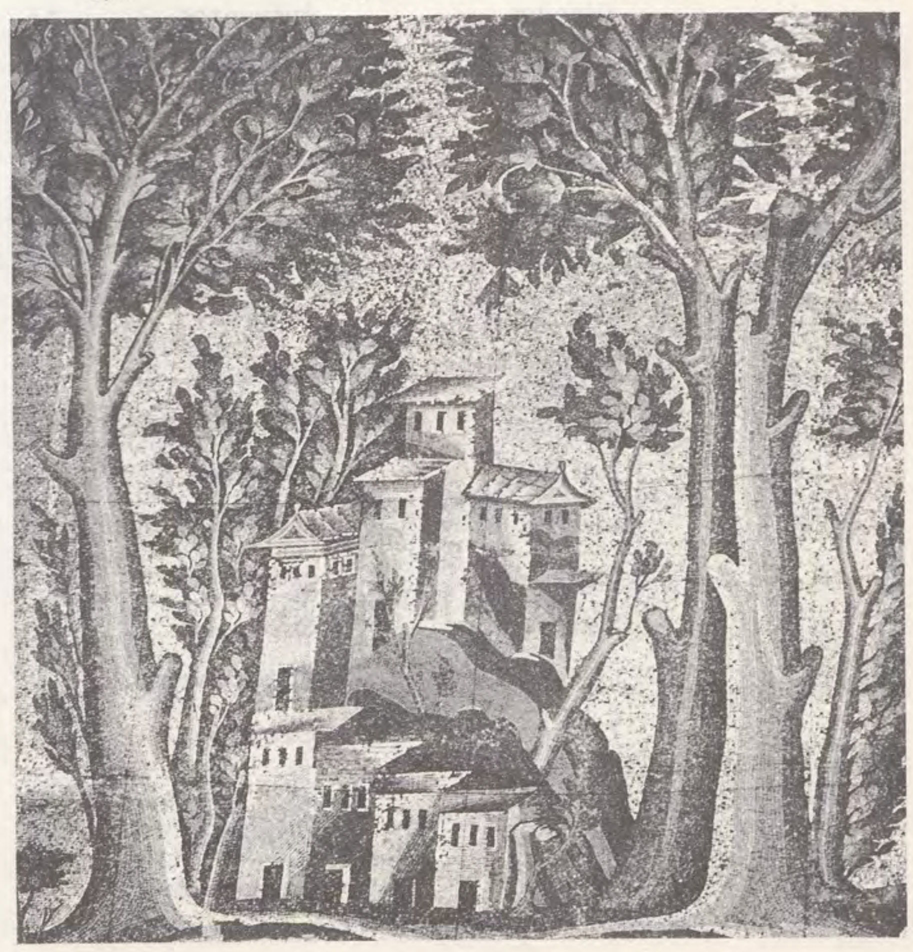
هاتف: ٩١١٥٦١-٩٣٣٠٥٢


القديس يوحنا الدمشقي
ان البرايا
بأسرها تفرح
بكِ يا ممتلئة نعمة.
محافل الملائكة وأجناس
البشر لكِ يعظمون. أيها
الهيكل المتقدس، والفردوس
الناطق وفخر البتولية،
التي منها تجسد الإله
وصار طفلاً، وهو إلهنا
قبل الدهور. لانه صنع
مستودعكِ عرشاً، وجعل
بطنكِ أرحب من السماوات.
لذلك يا ممتلئة نعمة،
تفرح بكِ كل البرايا
وتمجدكِ.

لفظ العبارات اليونانيّة بالفرنسيّة والعربيّة

صفحة	اليونانيّة	الفرنسيّة	العربيّة
٦٨	ἀγένητος	aïénitos	أَيينِتُس
٦٨	ἀγέννητος	aïénnitos	أَيينّتُس
٧٤	ὁ θεός	o Théos	او ثيووس
٧٤	θέειν	théïn	ثيِين
٧٤	αἴθειν	aithin	إيثِن
٧٤	θεᾶσθαι	théasthé	ثياسثي
١٢٢	μῆνις	minis	مينِس
١٢٢	τό μένειν	to ménin	تو مينِن
١٢٢	κότος	kotos	كوتُس
١٢٢	τό κεῖσθαι	to kisthai	تو كيسثي
١٧٠	Μία φύσις	mia physis	ميّا فيسِس
	τοῦ Θεοῦ Λόγου	tou Théou Loghou	تو ثيو لوغو
	σεσαρκωμένη	sésarkoméni	سيسركوميني
١٧٣	Θεοτόκος	Théotokos	ثيوتوكس
١٧٣	Χριστοτόκος	Christotokos	خريستوتوكس
١٧٣	Θεοφόρος	Théophoros	ثيوفورس
١٨١	γνώμη	ghnomi	غْنومي
١٨٢	ἐνεργεία	éneriia	إينيرييا
١٨٢	ἐνεργητικόν	éneriitikon	إينيرييتكون

صفحة	اليونانيّة	الفرنسيّة	العربيّة
١٨٢	ἐνέργημα	éneriima	إينيريما
١٨٢	ὁ ἐνεργῶν	o énérghon	أو إينرغون
٢٢٢	τό ἀγένιτον	tɵ aïeniton	تو أيينتون
٢٢٢	γενητόν	iéniton	يينتون
٢٢٢	τό ἀγέννητον	to aïénniton	تو أيينّتون
٢٢٢	γεννητόν	iénniton	يينّتون
٢٣٧	ἐπίούσιος	épiiousios	إيبيوسيوس
٢٣٧	ἀντίτυπον	antitypon	أنتيتيبون



فسيفساء من الجامع الأموي (دمشق، القرن ٨)

جدول أسفار الكتاب المقدس مع حروفها الاولى

أسفار العهد القديم

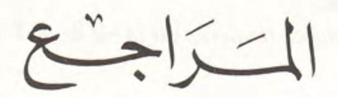
اح	سفر الأحبار	**طو**	سفر طوبيّا
١ اخ ، ٢ اخ	سفرا الأخبار	**عا**	نبوءة عاموص
ار	نبوءة إرميا	**عد**	سفر العدد
اس	سفر أستير	**عز**	سفر عزرا
اش	نبوءة أشعيا	**عو**	نبوءة عوبديا
ام	سفر الأمثال	**قض**	سفر القضاة
أي	سفر أيوب	**مرا**	مراثي إرميا
با	نبوءة باروك	**مز**	سفر المزامير
تث	سفر تثنية الاشتراع	**١ مك ، ٢ مك**	سفرا المكابيّين
جا	سفر الجامعة	**١ ملو ، ٢ ملو**	سفرا الملوك (أو ٣ ، ٤)
حب	نبوءة حبقوق	**ملا**	نبوءة ملاخي
حج	نبوءة حجّاي	**مي**	نبوءة ميخا
حز	نبوءة حزقيال	**نح**	نبوءة نحميا
حك	سفر الحكمة	**نحو**	نبوءة نحوم
خر	سفر الخروج	**نش**	سفر نشيد الأناشيد
دا	نبوءة دانيال	**هو**	نبوءة هوشع
را	سفر راعوت	**يش**	سفر يشوع بن نون
زك	نبوءة زكريا	**يؤ**	نبوءة يوئيل
سير	سفر يشوع بن سيراخ	**يون**	نبوءة يونان
صف	نبوءة صَفَنيا	**يه**	سفر يهوديت
١ صم ، ٢ صم	سفرا صموئيل (أو ١ و ٢ ملوك)		

أسفار العهد الجديد

الاختصار	السفر
أع	أعمال الرسل
اف	رسالة بولس إلى الأفسسيّين
١ بط ، ٢ بط	رسالتا بطرس
١ تسا ، ٢ تسا	رسالتا بولس إلى التسالونيكيّين
تيط	رسالة بولس إلى تيطس
١ تيم ، ٢ تيم	رسالتا بولس إلى تيموثاوس
روم	رسالة بولس إلى الرومانيّين
رؤ	رؤيا يوحنا
عب	الرسالة إلى العبرانيّين
غلا	رسالة بولس إلى الغلاطيّين
ف	رسالة بولس إلى فيليمون
فيل	رسالة بولس الى الفيليبيّين
١ كور ، ٢ كور	رسالتا بولس إلى الكورنثيّين
كول	رسالة بولس إلى الكولسيّين
لو	إنجيل لوقا
متى	إنجيل متى
مر	إنجيل مرقس
يع	رسالة يعقوب
يهو	رسالة يهوذا
يو	إنجيل يوحنا
١ يو ، ٢ يو ، ٣ يو	رسائل يوحنا



كاتدرائية القديس سرجيوس



المراجع

(بحسب تاريخ النشر)

العربيّة : ١) لويس هوكه، **ترجمة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ**، بيروت ١٨٩٨

٢) قسطنطين باشا، **سيرة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ الأصليّة**، في «المسرّة» (١٩١٢)، ص ٢٨١ – ٢٨٨، ٣٣٤ – ٣٤٣، ٣٧٥ – ٣٨٥

٣) **الذكرى المئويّة الثانية عشرة لوفاة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ**، حريصا، ١٩٥٠

الأجنبيّة :

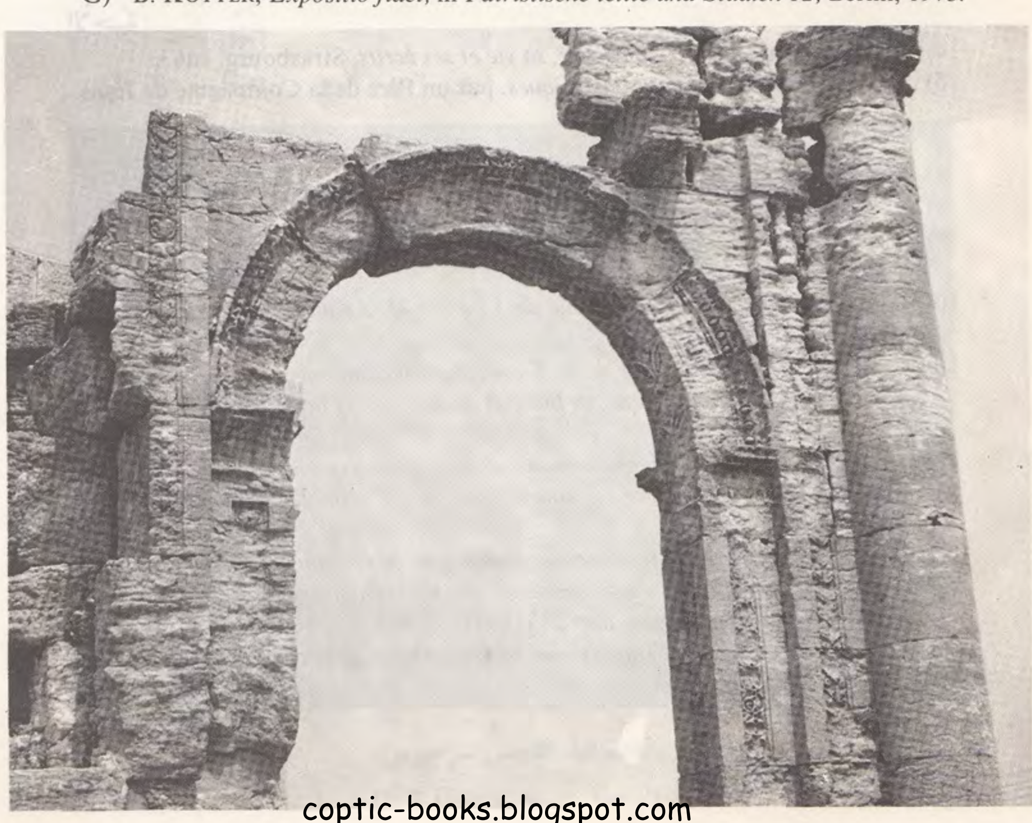
4) F. A. Perrier. *Jean Damascène, sa vie et ses écrits*, Strasbourg, 1863.
5) *St Jean Damascène, notes historiques*, par un Père de la Compagnie de Jésus, Beyrouth, 1898.
6) C. Bertani, *Vita di S. Giovanni Damasceno*, Monza 1899.
7) V. Ermoni, *St Jean Damascène*, Paris 1904.
8) D. Ainslee, *John of Damascus*, London 1906.
9) P.S. Vailhe, *La date de la mort de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* (1906) 28-30.
10) G. Graf, *Das arabische Original de Vita des hl. Johannes von Damaskus*, in *Der Katholik* 93 (1913) 165.
11) E. Hocedez, *La diffusion de la Translatio Lincolniensis du «De Orthodoxa fide» de St. Jean Damascène*, in *Bulletin d'anc. Litt. et arch. chrétiennes* (1913) 189-198.
12) M. Jugie, *La vie de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* 23 (1924) 136-161.
13) Idem, *Une nouvelle vie et un nouvel écrit de St Jean Damascène*, in *Echos d'Orient* 28 (1929) 35-41.
14) J. Nasrallah, *St Jean Damascène, son époque, sa vie, son oeuvre*, Liban, 1950.
15) B. Hemmerdinger, *La vita arabe de St Jean Damascène et BHG 884*, in *Orientalia Christiana Periodica* 28 (1962) 422-423.
16) J.M. Sauget, *Giovanni Damasceno*, in *Bibliotheca Sanctorum*, vol. VII (1965) 732-739.

17) R. Miminošvili, *Expositio accurata fidei Orthodoxae* Joane Damaselis, Tbilisi, 1966.
18) B. Stüder, art. «*Jean Damascène*», in *Dict. de Spiritualité*, vol. 8, col. 452 (1974).
19) H. Leclercq, art. «*Jean Damascène*», in *Dict. d'Archéologie et Lit. Chrét.*, vol. 7, col. 2186-2190.
20) K. Rosemond, *Quelques lumières sur la vie de St Jean Damascène*, (à paraître).

EDITIONS

(pour les éditions avant le XVIIIe s., cf. J. Nasrallah, *St Jean...*, p.161).

A) M.Le Quien, 2 vol. Œuvres de St Jean Damascène (en latin) (trad. grecque 1712).
B) J. P. Migne, P.G. vol. 94/96 (trad. grecque et latine 1864).
C) D. Stiefenhofer, *De fide Orthodoxa*, in *Biliothek der kichenvöter* n⁰ 44, 1923 (trad. allemande) Munich.
D) R.I. Szigeti, *Translatio latina saec. XII in Hungaria confecta*, Budapest 1940 (trad. latine).
E) E.M. Buytaert, *De Fide Orthodoxa* ad opera di Cerbanus e Burgundio, Louvain/Paris 1955 (trad. latine)
F) E. Pensoye, *La foi orthodoxe suivie de la défense des icônes*, Paris 1966.
G) B. Kotter, *Expositio fidei*, in *Patristische texte und Studiën 12*, Berlin, 1973.



فهرس الكتاب

مقدّمة

كنتُ أتحدّث مع شخص عن هذا الكتاب قبل طبعه، فأبدى لي دهشته وسألني بعفويّة: «ولو! لشو بدّكم تطبعوا كتاب لاهوت قديم، عمره فوق الألف سنة؟ ومترجَم كمان!...»

بالفعل، إنّه لسؤال يطرحه، في عصرنا هذا، مَن لا يدرك أهميّة تراثه الأدبيّ والثقافيّ والحضاريّ، مَن لا يرى فيه إلاّ «بعض إشراق وكثيرَ ظلام»، أو مَن يعتقد أنّ كلّ ما ينتجه الغرب هو دائماً الأصحّ والأفضل. مع العلم أننا، اليوم، أكثر حاجة من أيّ وقت مضى إلى العودة إلى الينابيع، إلى إحياء تراثنا العربيّ المسيحيّ وتجديده.

رحتُ أشرح لسائلي عن هدف طبع هذا الكتاب: تقديسُ العلم، والحرص عليه، فإنّ هذا النصّ المهمّ لا يزال طيّ المخطوطات، ولم ينشر كاملاً باللغة العربيّة حتى يومنا هذا. ثانياً: تكريمُ قدّيس «استلهم الروح القدس، وكتب لنا ما استطاع عن الله وحقائقه»؛ وأيضاً تعريفٌ لأحد تآليف آبائنا القدّيسين وأخيراً الكشفُ عن حلقة من سلسلة: فالآباء المدرَسيّون (Scholastiques)، في العصور الوسطى، استوحوا من هذا المؤلّف وتوسّعوا في شرحهم للحقائق التي أتى على ذكرها، واتّبعوا طريقة تفصيلها.

ولا عجب أن يختار لنا الأب أدريانوس شكّور هذا الكتاب بالذات دون غيره – والأصحّ هذا الجزء الأهمّ من «كتاب ينبوع المعرفة» – بعد أن ترجم لنا: «مقالٌ عن الروح القدس» للقدّيس باسيليوس الكبير. ذلك لأنّه أوّلاً يحبّ هذا القديس بالذات، ثم لأنه كان قد ابتدأ بترجمة هذا المؤلّف سنة ١٩٥٠ في الذكرى المئويّة الثانية عشرة لوفاة القديس يوحنا الدمشقي، وأخيراً لأنّ من يراجع فهارس المخطوطات العربية واليونانية المحفوظة في أهمّ مكتبات العالم العامة وفي أديرة الرهبان والراهبات يجد أنه قلّما تخلو هذه المكتبات من مخطوطة أو أكثر لكتاب «ينبوع المعرفة» – أو لجزء منه – مما يدلّ على أهميته وكثرة استعماله في الماضي ككتاب لدرس اللاهوت، علماً بأنه لم يُطبَع بلغة الضاد حتى اليوم.

حياة المؤلّف

لا يزال الجدل قائماً حتى الآن بسبب سيرة القديس يوحنا الدمشقي : مَن كتبها؟ ومتى؟ إنما الشيء الأكيد لدينا هو أنّ النصّ الأصليّ لهذه السيرة قد كُتب في أوائل القرن التاسع باللغة العربية . ثم نقل إلى اللغة اليونانية والكرجية (Géorgienne) ، ضاع بعدها النصّ الأصلي العربي هذا ، وقد تركت لنا بعض المخطوطات [١] نصًّا عربيًّا يُنسب إلى الراهب ميخائيل السمعاني الأنطاكي (+ ١٠٨٥) نشره الخوري قسطنطين باشا المخلّصي في مجلة «المسرّة» . إنما بعض الدراسات [٢] تشكُّ في صحّة هذه النسبة إلى ميخائيل الراهب .

وُلد منصور بن سرجون – وهو اسم القديس يوحنا – حوالي سنة ٦٧٥م في دمشق ، عاصمة الأمويّين آنذاك ، من عائلة عريقة وغنيّة ، عُرفت بفضيلتها ومحبّتها للعلم وبمكانتها السياسية والاجتماعية ، إذ إنّ سرجون ، والد يوحنا ، ومنصور جدّه ، كانا يعملان على إدارة أموال الخلفاء الأمويّين وعلى جمع الخراج من المسيحيين [٣] . وعلى ما يبدو إنّ منصوراً ، في مطلع شبابه ، قد شغل هذه الوظيفة لمدة من الزمن [٤] .

حصل منصور منذ نعومة أظافره على ثقافة أدبية وفلسفية ودينية مهمّة : فقد ذكرت لنا سيرته أنّ معلمه كان راهباً من جزيرة صقلّية ، من أسرى الحرب ، اشتراه والده ثم حرّره

---

(١) أهمّ المخطوطات العربيّة التي تسرد لنا سيرة هذا القدّيس هي :

- مخطوطان من حمص وكفربهم (راجع المصادر : رقم ٢)
- مخطوطا حلب . ذكرهما الأب سباط وهما عند عائلة ربّاط وعائلة شحّود
- فاتيكان عربي ٧٩ (سنة ١٢٢٣)
- سينا عربي ٣١٧ (سنة ١٢٢٣)
- حلب ، مطرانيّة الموارنة ، ١٤٠٥ (سنة ١٥٠٢)
- حلب ، سباط ، ١١١٢ (القرن السادس عشر)
- غوطا Gotta عربي ٢٨٨٢ (القرن السادس عشر)
- مخطوط المنسنيور نصرالله (سنة ١٦٩٧)
- بيروت ، المكتبة الشرقيّة ٦١٧ (سنة ١٦٩٧)

(٢) Cf. B. HEMMERDINGER, *La Vita arabe de St Jean Damascène et BHG 884* in *Orientalia Christiana Periodica* (1966) pp. 422-423.

(٣) كانت الدواوين كلّها باللغة اليونانيّة في ذلك العصر . وقد نقلت إلى العربيّة في عهد عبد الملك بن مروان (+ ٧٠٥) . راجع في هذا الموضوع كتاب م . كرد علي ، **الإسلام والحضارة العربيّة** ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩٣٦

(٤) المقريزي ، **المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار** ، الجزء الثاني ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٥٩

(أعتقه) وعهد إليه بتعليم ابنَيه : أوّلها منصور والثاني قزما ، ابنه بالتبنّي . وقد أتقن اليونانية ، لغة الطبقة الراقية من كبار المتعلّمين ، واللغة السريانية ، لغة الشعب المستعملة في الليتورجية ، ورغم أنّ كل كتاباته التي وصلت إلينا كانت باليونانية ، فمن المؤكد أنه كان يعرف العربية أيضاً ، لغة عائلته الأصلية . وقد كان هو بعد أبيه وجدّه يستعملونها حتماً مع أسيادهم الفاتحين العرب .

وما أن توفيَ سرجون ، والد منصور ، حتى أخذ هذا الأخير مكان أبيه في إدارة أموال الدولة ، بينما انتحل قزما معلمُه وقزما أخوه بالتبنّي الحياة الرهبانية في سيق مار سابا . ثم ما لبث منصور – وكان قد بلغ حوالي الثلاثين من عمره – ولأسباب نجهلها وقد تكون سياسيّة – أن ترك مركزه والتحق بمعلّمه قزما وبأخيه بالتبنّي إلى سيق مار سابا أيضاً . فأحبّ هناك الحياة النسكيّة وراح يتعمّق في اللاهوت على يد البطريرك الأورشليمي يوحنا الرابع (٧٠٦ – ٧٣٤) الذي كان يطلبه غالباً لإلقاء المواعظ والخطب في أورشليم . وهناك اتخذ اسم يوحنا – ربما تيمُّناً باستاذه البطريرك .

في ذلك الوقت (حوالي سنة ٧٢٥) ، قامت بِدعة تحارب تكريم الايقونات المقدسة ، مدّعية أنّ هذا التكريم إنما هو عبادة وثنيّة [٥] . فهبَّ يوحنا بكلّ ما لديه من قوى وثقافة يدافع عن التمسّك بالسجود للايقونات المقدّسة موضحاً أنّ هذا السجود إنما هو مجرّد تكريم للأشخاص الممثّلة في الايقونات ، وليس هو على الإطلاق عبادة الصوَر . وقد فعل كل ذلك ، «رغم أنه لم يكن بعد من ذوي مراتب البيعة المقدّسة» .

وفي هذا المجال ، تسرد لنا سيرتُه أنّ لاون الملك ، ماقت الايقونات المقدسة ، لحقده على يوحنا ، اتّهمه زوراً بالخيانة ، مما سبّب له قطع يده . فما كان من يوحنا إلاّ أن دخل غرفته «وطرح على الأرض كليّة جسده قدّام إيقونة السيّدة المجيدة ، ذات الشفاعات غير المردودة ، وألصق كفّه المقطوع إلى زنده وتوسّل إليها من قعر قلبه ، وفاضت عيناه دموعاً محرقة منحدرة على صدره ، قائلاً : أيتها السيّدة القديسة الطاهرة والدة إلهنا ، الكلمة الأزليّة ، بتجسّده من دمائك النقيّة لمحبته الجزيلة لجنس البشرية ، أسألك أن تتوسّلي إليه من أجلي . . . لكي تردّي يدي إلى ما كانت عليه أولاً ، كاملة ، صحيحة من كل ألم وقطع ، معافاة ، وتظهري عبدك جزيل تحنّنك (كذا) لكي ما يبطل لساني ما عشت من مديحك ،

(٥) هذه البدعة متأثرة بالطبع من الدين الإسلاميّ الذي كان ينتشر بسرعة في الشرق المسيحيّ .

لأنك قادرةٌ على ما سألتك . . . » . «وللحين غفت عيناه فرأى المتحنّنة بشكلها وهيئتها ناظرة إليه بطرْفها وقائلة له : قد عوفيَتْ يدُك ، فأنجز لإلهك نذرك ، ولا تؤخر عهدك . فاستيقظ بفرح مسروراً ، ونهض واقفاً على رجليه ، مصلّياً شاكراً . وترنّم للوقت بما يلائم سرعة إجابته في توسّله ، وكمال عافيته لساعته» (٦) .

ولقد خلّد لنا الفنّ البيزنطي ايقونة العذراء ذات الأيدي الثلاث ، رمزاً للاعجوبة المذكورة .

وعلى أساس تلك الحملة التي شنّها يوحنا ضدّ ماقتي الايقونات المقدسة ، واضعاً أُسساً ثابتة ونهائيّة لهذا التكريم ، عقد الامبراطور قسطنطين (كبرونيم) مجمعاً سنة ٧٥٤ ، تغيّب عنه أهمّ المدعوّين - بطاركة الاسكندريّة وأنطاكية وأورشليم - حيث رفض الحاضرون رفضاً قاطعاً تكريم الايقونات المقدّسة وقرّروا أن كل من يخالف ذلك يعتبر متمرّداً على وصايا الله وعدوًّا مخالفاً للعقائد المحدّدة في مجمع «هييرا» هذا المؤلّف من ٣٣٨ أسقفاً ، ثم حرموا أشهر الذين دافعوا عن هذا التكريم أي جاورجيوس القبرصيّ وجرمانوس القسطنطينيّ ومنصور - «ذا الاسم المشؤوم الذي يعلّم الآراء المحمّدية» (٧) .

إلاّ أن المجمع النيقاوي الثاني (٧٨٧) ، بعد أن ثبّت تكريم الايقونات المقدسة ، أعاد لهؤلاء ، المحرومين في مجمع هييرا اللصوصيّ سنة ٧٥٤ ، كرامتهم «رحمة أبديّة لجرمانوس ويوحنا وجاورجيوس ، أبطال الحقيقة . . . إنّ الثالوث قد مجّد ثلاثتهم» (٨) .

وكان يوحنا ينزوي في صومعته ، في سيق مار سابا ، يؤلّف مع أخيه بالتبنّي قزما الترانيم والقوانين الدينية التي لا تزال الكنيسة تترنّم بها إلى يومنا هذا . وكانت قريحته فيّاضة لدرجة أنه استحقّ أن يدعى في ما بعد بـ «مجرى الذهب» . ثم شاءت العناية الإلهيّة أن ينتخب قزما أسقفاً على مايوما ، المعروفة اليوم بميلمس (قرب غزة) ، وطلب مراراً إلى يوحنّا أن يرتسم كاهناً . وكان في كل مرّة يرفض ، إلى أن «استحضره بطريرك البيت المقدّس وسامه قسيساً بغير مراده ، بل بكثرة إلزامه إيّاه غلبه على رأيه . ولما عاد من عنده إلى السيق زاد في نسكه

---

(٦) «المسرّة» ٣ (١٩١٢) ص ٣٣٩ - ٣٤٢ . هذا ويعتقد البعض أنّ هذه المعجزة هي من فيض الكاتب وليس لها أساس تاريخيّ صريح .

(٧) .Mansi, t. XIII, col. 327 عن مجمع هييرا Hiéra اللصوصيّ

(٨) .Mansi, t. XIV, col. 398-400 عن المجمع المسكوني السابع

وأتعابه. وانعطف إلى تصنيف أقواله التي سرت إلى أقصى المسكونة»[٩].

ويعتبر المؤرّخون أن رسامته قد تمّت بوضع يدي البطريرك الأورشليمي يوحنا الخامس (+ ٧٣٥)[١٠].

توفي القديس يوحنا الدمشقي، على الأرجح، سنة ٧٤٩[١١] في ديره المذكور، بعد أن قضى حياة طويلة في النسك والتأليف. فدفن هناك وبقي قبره معروفاً ومكرّماً حتى القرن الثاني عشر. ومن ثمّ نقلت عظامه، على ما يبدو، إلى القسطنطينية[١٢]. وما كاد يموت حتى ذاع صيت قداسة يوحنا الدمشقي، فأخذ الشعب في تكريمه وإنشاد تآليفه الليتورجيّة والرجوع إلى كتبه اللاهوتية... وهذا ما حمل البابا لاون الثالث عشر على إعلانه سنة ١٨٩٠ «معلماً للمسكونة»، في مصفّ سائر آباء الكنيسة الجامعة.

تآليفه

كانت قريحة القديس يوحنا، كما ذكرنا، فيّاضة فترك لنا العديد من المؤلفات القيّمة، كلها باليونانية. إلاّ أنها ما لبثت أن تُرجمت إلى لغة الضاد على يد الأنبا أنطوني، رئيس دير مار سمعان (القرن العاشر)[١٣]، والشماس الملكيّ عبدالله بن الفضل الأنطاكي (+ ١٠٥٤)[١٤] وغيرهما. وقد نَشرَ الجزء القليل منها وما زال الجزء الأكبر طيّ المخطوطات المنتشرة في كل مكاتب العالم بانتظار أقلام الباحثين. وممّا يسرّ أن في ألمانيا اليوم ديراً للآباء البندكتان قد أخذ على عاتقه نشر كل كتابات هذا القديس باللغة اليونانية[١٥] وقد ظهر

(٩) «المسرّة» ٣ (١٩١٢)، ص ٣٧٩ – ٣٨٠

(١٠) K. Rosemond, *Quelques lumières sur la vie de St Jean Damascène,* (d'une copie de l'article qui devait être publié dans «Aufstieg und Niedergang der romischen Welt», Berlin - New York.

(١١) راجع، في ما يخصّ موت هذا القدّيس – ما عدا الحاشية السابقة، المراجع التالية:

- J.M. Hoek, *Johannes von Damaskus,* in Lexikon fur theologie und Kirche, 5 Bond Friburg 1956, s 1023.
- Vailhe, *Date de la mort de St Jean Damascène,* in *Echos d'Orient* 9 (1906) 28-30.
- يوسف نصرالله، سنة وفاة القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، في **الذكرى المئويّة**... ص ١٣٥ – ١٣٨

(١٢) **الذكرى المئويّة**... ص ٣

(١٣) G. Graf, Geschichte der Chrislischen Arabischen Literatur, II, Vatican, 1947 pp. 41-45.

(١٤) «المشرق» ٩ (١٩٠٦) ٨٨٦ – ٨٩٠ و ٩٥٣ حيث نجد مقالة مهمّة عن حياة الشمّاس الملكيّ عبدالله بن الفضل وتآليفه

(١٥) Byzantinischen Institut Scheyern OBB. والأب المسؤول هو P. Boniface Kotter OSB

منها حتى الآن عدّة أجزاء. ولكم نودّ أن تقوم إحدى المؤسسات في الشرق بالمثل، بالنسبة إلى النصوص العربية.

١) أول ما نبدأ به سرد تآليفه في اللاهوت، وفي مقدّمتها الموسوعة اللاهوتية التي هي من أشهر مؤلفات يوحنا (١٦) وقد أسماها «**ينبوع المعرفة**». ألّف يوحنا هذا الكتاب في أواخر حياته، وتحديداً بعد سنة **٧٤٢** وذلك تلبيةً منه لطلب أخيه بالتبنّي قزما، أسقف مايوما المذكور آنفاً، كما يظهر من الرسالة التي تتقدّم الكتاب. ويَقسم يوحنا مؤلّفه هذا إلى ثلاثة أجزاء:

آ - الجزء الأول هو «**علم الفلسفة والمنطق**»، يعطي فيه المؤلّف القديس أهم التحديدات الفلسفيّة حسب أرسطو وآباء الكنيسة، ويشرح دور الفلسفة بالنسبة إلى اللاهوت. ويعتبر هذا الجزء، المؤلّف من **٥٢** فصلاً، كمقدّمة لفهم ما سيلي (١٧).

ب - ويتضمّن الجزء الثاني تاريخ أغلب الهرطقات وما قضيتها وهو مستوحى من إبيفانوس وغيره من الآباء.

ج - أمّا الجزء الثالث فيدعى كتاب «**الأمانة الارثوذكسية**» أو كتاب «**الإيمان الأرثوذكسي**» أو كتاب «**المئة مقالة**». وقد طبع، ككتاب مستقلّ وترجم إلى عدّة لغات (١٨). ومن المؤسف أنه لم يطبع كاملاً بلغة الضاد إلاّ اليوم. وهو يتضمّن عرضاً لأهم عقائد الإيمان المسيحي: الله الواحد، الأقانيم الثلاثة، الخلق، الملائكة، العالم، الإنسان، سرّ الخلاص أو التجسّد الإلهي، الإيمان، قيامة الأموات، تكريم القدّيسين والايقونات...

وقد استعمل المسيحيون هذا الكتاب، على مدى العصور، - وخاصة في الشرق

---

(١٦) راجع هذه المؤلّفات كاملة باللغة اليونانيّة في مجموعة الآباء: MIGNE, PG 94/96

(١٧) لهذه الفصول الفلسفيّة نسختان، واحدة مطوّلة، وفيها الكثير من التكرار، وأخرى مختصرة. وتعطينا المخطوطات العربيّة النسخة المختصرة فقط. ونأمل نشر هذا الجزء من «ينبوع المعرفة» قريباً بإذن الله.

(١٨) راجع هذه المنشورات حسب اللغات في أول المقدّمة.

المسيحي – لدراسة اللاهوت. لذا نجد العديد من مخطوطاته في أغلب الأديرة والمكاتب [١٩].

٢) «**مختصر الأمانة الأرثوذكسيّة**»، كتبه يوحنا لإيليا، مطران يبرود، ليقدّمه هذا الأخير كشهادة اعترافه بالإيمان القويم إلى بطرس مطران دمشق.

٣) **مقالة عن الثالوث الأقدس**، وهي على طريقة السؤال والجواب.

٤) **مقالة عن «قدّوس قدّوس قدّوس»** وهي موجّهة إلى الارشمندريت جوردانوس حيث يبيّن يوحنا أنّ هذه الصلاة موجّهة إلى الأقانيم الثلاثة وليس إلى الابن وحده.

٥) **مقدّمة عامّة عن العقائد**، كتبها القديس يوحنا، أو بالأحرى جمعها عنه تلاميذه في أول حياته في دير مار سابا. نستطيع أن نعتبرها كمختصر لكتاب «ينبوع المعرفة». وقد أرسلها يوحنا إلى مطران اللاذقية يوحنا.

وللقدّيس الدمشقي مؤلّفات دافع فيها عن الإيمان الأرثوذكسي وحارب بها الهرطقات المعروفة في عصره هي:

٦ – ٨) **ثلاث مقالات للدفاع عن الإيقونات المقدّسة**، كتبها القدّيس بين سنتَي ٧٢٦ و ٧٣٠، بعد أن أصدر لاون الإيصوري مرسوماً ضدّ تكريم الإيقونات المقدّسة. وقد وضع فيها يوحنا، كما ذكرنا، الأسس اللاهوتية والمبادئ العامة للدفاع عن تكريم الايقونات. وأغلب ما كتب في هذا الموضوع إنما هو مستوحى من هذه المقالات. ولقد نشرت هذه الأخيرة مراراً وبلغات عديدة [٢٠].

٩) **مقالة ضدّ أسقف يعقوبيّ**، يرفض فيها يوحنا آراء اليعاقبة ومبادئهم، خاصة قولهم إنّ في المسيح طبيعة واحدة.

---

(١٩) راجع مخطوطات «الأمانة الأرثوذكسية» عند الأب نصرالله... ص ١٨٢ – ١٨٣)
أضف إليها: ١) أورشليم، القبر المقدّس عربيّ ١٢ (القرن الثاني عشر أو الثالث عشر)
٢) Glasgow Hunt. 614 (1213) (14) ff. 148-340.
٣) القاهرة، البطريركيّة الأرثوذكسيّة ١٢٤ (القرن التاسع عشر)

(٢٠) نذكر منها الترجمة الفرنسية لِ «Pensoye»
والترجمة الألمانية: B. KOTTER, Die Schriften des J. VON DAMASKOS III Contra imagionum calumniatores Orationes tres. Berlin, New-York 1975.

١٠) **مقالة ضدّ المانويّة**، وهي بشكل حوار بين أرثوذكسي ومانويّ[٢١] لإظهار أخطاء الثنائية.

١١) **جدال بين مسلم ومسيحي**، يدافع فيه الدمشقيّ عن عقيدة التجسّد ويرفض نظرية القضاء والقَدَر.

١٢) **مقالة ضدّ الساحرات**، بقي لدينا من هذه المقالة بعض المقاطع، وهي كافية لتعطينا فكرة عن انتشار السحر والساحرات في عصر يوحنا.

(١٣) **مقالة في الطبيعة المركّبة**، هي رفض لآراء القائلين بالطبيعة الواحدة.

(١٤) **مقالة في أنّ للمسيح إرادتين**، وهي بالطبع ردّ على القائلين بأنّ للمسيح إرادة واحدة.

(١٥) **مقالة ضدّ النساطرة** القائلين بأنّ للمسيح شخصين كما أنّ له طبيعتين.

(١٦) **مجادلة يوحنا الأرثوذكسيّ** مع مانويّ حيث يرفض القديس أفكار ماني.

(١٧) وترك لنا يوحنا مؤلّفاً واحداً **يشرح فيه رسائل القدّيس بولس**. وهو يستوحي فيه من كتابات يوحنا الذهبي الفم وكيرلّس الإسكندراني.

أما في موضوع النسك والتقشّف فقد كتب يوحنا:

(١٨) **مقالة قصيرة عن الصوم** وجّهها إلى أخيه الروحي «كوميت».

(١٩) **مقالة عن الأرواح السيّئة الثمانية**، يعالج فيها الخطايا الرئيسيّة التي يرتكبها الراهب ضدّ الحياة الرهبانية.

(٢٠) **مقالة في الفضائل والرذائل**.

(٢١) **المواعظ**، – كنّا قد ذكرنا أنّ يوحنّا كان يذهب أحياناً إلى أورشليم، عن طلب من البطريرك، لإلقاء المواعظ في المناسبات. وقد حفظت لنا المخطوطات بعض هذه المواعظ، نذكر منها: ثلاثاً عن **رقاد مريم العذراء**، ألقاها القديس في يوم واحد، كما يقول في الوعظة الثالثة[٢٢]. وله أيضاً **ميمر عن ولادة العذراء** وغيره **عن التجلّي**، وعن **التينة التي**

---

(٢١) المانوي، من يتبع آراء ماني، زعيم المانويّين. وُلد ماني في ماردين سنة ٢١٥ وكان يعلّم المذهب الثنائيّ القائل بوجود مبدإ للخير ومبدإ للشر، كما النور والظلام وهما في صراع مستمرّ على هذه الأرض.

لعنَها يسوع، وآخر ألقاه يوم **السبت العظيم**... الخ. هذا ولم يتأكّد بعد لدى الباحثين صحّة نسبة كل هذه المواعظ إلى القديس الدمشقي.

أما كتاب «**برلعام ويواصاف**» المنسوب خطأً إلى الدمشقيّ، فقد تبيّن علميًّا أنه ليس له، بل لأفتيموس (+ ١٠٢٨) الساكن في الجبل المقدّس[٢٣].

(٢٢) كما اشتهر يوحنا الدمشقي خاصة **بتآليفه الطقسيّة والأناشيد الدينيّة**، وأخصّها للعذراء. وتخبرنا سيرته أنه ألّف «قوانين القيامة المقدّسة مع استشيرات وطروباريات»[٢٤]، كما أن طروباريّة «بالحقيقة أنّ الأشياء كلّها باطلة دائرة...»[٢٥] التي تقال في الجنّاز تنسب إليه. وله أيضاً العديد من القوانين الخاصة بالأعياد، نذكر منها: الميلاد والظهور والعنصرة والبشارة ورقاد العذراء والصعود...[٢٦] والأناشيد الثلاثة التي تتلى قبل التناول وترنيمة «إنّ البرايا بأسرها...» التي ترتّل في ليتورجيّة القديس باسيليوس... الخ، وغيرها من التراتيل الكنسيّة.

وعليه فإنّنا نجد في شخصيّة يوحنا القوية صفات ومواهب قلّما نجدها مجتمعة عند غيره. فهو الفيلسوف الإنتقائيّ واللاهوتيّ الجامع والراهب القدّيس والرسول الغيور والواعظ الجذّاب والمدافع الشجاع عن الإيمان الأرثوذكسي والشاعر الملهم والمرنّم العذب، فخر مدينة دمشق ونجم كنيسته اللامع.

الأب ميخائيل أبرص ق ب
في ٤/١٢/١٩٨٢

---

(٢٢) ان منبر القدّيس يوحنّا الدمشقيّ، على ما يبدو، قد نقل إلى حلب. راجع، أنطوان ربّاط،
Doc. Inéd. pour servir à l'Histoire du Christianisme en Orient, 1909.

(٢٣) لمزيد من المعلومات، راجع كتاب الأب نصرالله، المذكور في المصادر، ص ١٥٧ – ١٦٠، هذا وينسب إلى القدّيس يوحنّا أيضاً «**كتاب الفردوس العقلي**»
Cf. Le Baron von Rosen *in* Collections Scientifiques de l'Institut de Langues Orientales de Petersbourg VI, 1891.

(٢٤) سيرة القدّيس، في «المسرّة» ص ٣٧٩

(٢٥) الأفخولوجيون الكبير، أورشليم ١٨٦٥، ص ١٢٩

(٢٦) راجع مقالة الأب ارمندس ليلي في **الذكرى المئوية**... ص ٨٢ – ٨٣

كلمة المعرّب

كان أولَ من حملنا على البدء بترجمة كتاب القدّيس يوحنا الدمشقي «في الإيمان الأرثوذكسي»، المعروف بكتاب «المئة مقالة»، المثلّثُ الرحمة البطريرك مكسيموس الرابع، وذلك سنة ١٩٥٠، لمناسبة الاحتفال باليوبيل المئويّ الثاني عشر لوفاة هذا القدّيس العظيم، دكتور الكنيسة الجامعة. وقد كان ذلك بتكليف خاصّ من القائم آنذاك بتنسيق حفلات اليوبيل، المنسنيور نصرالله.

وقد تخصّص حينئذٍ في آخر نيسان – أول أيار من تلك السنة في دمشق أسبوع كامل لحفلات دينيّة ودراسات ومحاضرات شتّى وغيرها... وقد تمّ ذلك باشتراك حكومة الرئيس شكري القوتلي وسائر الفعاليات في العاصمة مع وفود من شتّى الأنحاء. وقد توزّع على الحاضرين كتاب «ذكرى اليوبيل» المحتوي على جميع الخطب الرسمية والقصائد وشتّى الدراسات الموضوعية التي ألقت الأضواء على حياة القديس الدمشقي الكبير ومؤلّفاته المتنوّعة، مما زاد في تقديره ومحبته لدى الجميع. واغتنمها المنسنيور نصرالله فرصة سانحة لإعطائنا المعلومات الغزيرة الكاملة عن هذا القدّيس في كتابه المنشور بالافرنسية: «القديس يوحنا الدمشقي، عصره، حياته، عمله».

وقد أخذ البطريرك الكبير الراحل منذ ذلك الوقت في السعي لتشييد كنيسة للطائفة في دمشق على اسم هذا القديس. وقد نجح تماماً في مسعاه بفضل سخاء الدمشقيين، وفي مقدّمتهم المرحوم السيّد موسى غنّاجه وتكاتف نخبة من كبار المهندسين الدمشقيين وغيرهم. فقامت في مدخل دمشق الرئيسي وعلى مقربة من «قصر الضيافة» كنيسة فخمة وتوابعها على اسم مواطن دمشق القديس الخالد الذكر.

وقد حالت ظروف قاهرة – ومن أهمّها التحاقنا بالدائرة البطريركيّة في السنة نفسها ١٩٥٠ ولمدّة ١٨ سنة كاملة – دون متابعة ترجمة الكتاب المذكور.

ثم كان المجمع الفاتيكاني الثاني (١٩٦٢ – ١٩٦٥) وما حصل فيه من انفتاح عامّ على الكنائس – وعلى الكنائس الشرقية بنوع خاص – وما تبع ذلك من حوار بنّاء معها، وهو لا يزال، والحمد لله، في تصعيد مستمرّ...

ولما كنّا، في أواخر سنة ١٩٧٩، قد قمنا بنقل مقال القديس باسيليوس في الروح القدس من اليونانية إلى العربية، لمناسبة أسبوع اليوبيل المئوي السادس عشر لوفاة هذا القديس، وكانت المحاضرات في هذه المناسبة تلقى في جامعة الروح القدس في الكسليك، ألحَّ علينا بعض الآباء الأجلاّء القائمين هناك بإلقاء الدروس اللاهوتية أن ننقل إلى العربية المزيد من تراثنا المسيحي هذا. وكان من البديهي أن نلبّي طلبهم بمتابعة وإنجاز ما بدأنا به منذ ثلاثين سنة ونيِّف، لا سيّمَا في الظروف الحاضرة مع العلم أن كتاب «الايمان الأرثوذكسي» هذا هو الدستور العقائدي العام الذي تتقيّد بمبادئه الأرثوذكسية في كل مكان. وهو الكتاب المدرسيّ لطلاّب علم اللاهوت الأرثوذكسيين، فضلاً عن أن الكنيسة الرومانية تتقبّله بارتياح، بعد أن سار على هديه في الأجيال الوسطى كبار اللاهوتيين الغربيين، وعلى الأخصّ القديس توما الأكويني. وهو يكوّن في ذلك وبهذه الصفة قطاعاً ضخماً من العقائد المشتركة بين الكنيستين الكبيرتين تذوب أمامه كل الخلافات الجانبيّة التقليديّة بينهما والتي عمّقتها الأحقاد العنصرية في العصور الغابرة.

ومن هنا تبدو أهمية وضع هذا الكتاب الجليل في متناول جميع أبناء جيلنا الطالع. وهو خلاصة معتقدات آبائنا القديسين جميعاً، مسكوبةٌ في الأصل باللغة نفسها التي كانت في بلادنا مع السريانية لغة الكنيسة الشرقية الأساسية حتى القرنين السابع والثامن على الأقل. وقد نشأ، انطلاقاً من هذا الكتاب على الأخصّ، «تراثنا العربيّ المسيحي» مع ثاودورس أبي قرّة وسليمان الغزّي ويَحْيى بن عديّ وغيرهم الكثير ممن يقوم اليوم المعهد البابوي الشرقي برومة، بإدارة المطران ناوفيطوس إدلبي، بنشر كتبهم على أرفع مستوى علمي لتعميم معرفتها في العالم العربي.

هذا وإنني أُقدّم عملي هذا إلى روح أبي ووليّ نعمتي البطريرك مكسيموس الرابع إقراراً بفضله وتكميلاً لرغبته في نشر هذه الترجمة بين المواطنين الشرقيين الذين وُضعت في الأساس لهم، وهم حُرموا من معرفتها أجيالاً طويلة لنسيانهم لغة آبائهم وأجدادهم الأقدمين.

ولا يسعني إلاّ أن أشكر في الوقت نفسه للسيد الجليل متري عبدالله نعمان أتعابه الجمّة في التدقيق في مطالعة المخطوط كله، كلمة كلمة، وإبداء ملاحظاته واقتراحاته، عند

الاقتضاء، في ما يختصّ باللغة العربية. وكذلك الأب العزيز نقولا أنتيبا الذي بذل الجهد نفسه والتدقيق نفسه من شتّى النواحي. وفي الختام أشكر للأب العزيز ميشيل أبرص مقدّمته القيّمة التي تعطي وزناً يتناسب مع قيمة هذا الكتاب الجليل.

* * *

هذا وقد لاحظ بعضهم أنّنا قد استعملنا في ترجمتنا بعض الاصطلاحات التي لا يسهل فهمها، كالكلمات التالية: مقولات ونفوذ وقنّم وتأقنم وغيرها مع مشتقّاتها. فنجيب أننا قد أردنا بالمقولات الكلمات نفسها التي قالها الرب يسوع نفسه في الإنجيل عن نفسه. والنفوذ أردنا به تواجد الأقانيم الثلاثة بعضها في بعض تواجداً كاملاً في الطبيعة الإلهيّة الواحدة التي لا يحدّها مكان ولا زمان. وقنّم الجسد، أعطاه أقنوماً. وتأقنم الجسد، اتّخذ أقنوماً. وما شاكل ذلك... وإنما قد فعلنا ذلك عن اضطرار.

ونشير إلى أننا قد التزمنا في ترجمتنا لهذا الكتاب النص اليوناني الوارد في مجموعة ميني:

MIGNE, P.G., t. 94, Col. 789-1228.

وأحلنا إليه القارئ في مطلع كل رأس من رؤوس الكتاب. ثم لمّا تيسّر لنا الحصول على النصّ العلمي المطبوع سنة ١٩٧٣ على يد الأب قوتر البندكتي الألماني

P.B. KOTTER, O.S.B., Institut Byzantin de l'Abbaye de Scheyern.

راجعنا الترجمة كلّها بتأنٍّ على النصّ المذكور، وخصوصاً، على ضوء الملاحظات الدقيقة والكثيرة التي وافانا بها حضرة الأب نقولا أنتيبا وأجرينا فيها ما رأيناه مفيداً من التعديلات.

ثم لمّا كانت نصوص الكتاب المقدّس الواردة على لسان القديس الدمشقي في كتابه «الإيمان الأرثوذكسيّ» كلها بموجب الترجمة السبعينية، ولمّا كانت هذه الترجمة غير منقولة إلى العربية، فقد اضطررنا إلى إحالة القارئ عادة إلى هذه النصوص المستعملة في «الكتاب المقدّس»، طبعة الآباء اليسوعيين، بيروت. ولكن في الحالات القليلة جداً التي يختلف فيها نصّ الترجمة السبعينيّة عن نصّ الآباء اليسوعيين، قد أجرينا نحن هذا التعريب.

وها نحن نوافي قرّاءنا الكرام بنصّ الرسالة التي وجّهها القدّيس الدمشقيّ إلى أخيه بالتبنّي المطران قزما وهي بمثابة **مقدّمة**(١) من القدّيس لكتابه الكامل : «**ينبوع المعرفة**».

مقدّمة المؤلّف

«أيها الأجلاّء ، إنّني ، وقد بدأت أتأمّل في ضيق تفكيري وبطء لساني ، كنت أحجم عن المبادرة إلى ما يفوق قوّتي والإقدام على ما لا يُستطاع . وكان شأني في ذلك شأنَ أيّ مغامر جسور يبصر الخطر المحدق بمن يأتون بمثل هذه الأعمال . لأنّه ، إذا كان موسى العظيم ، ذاك المشترع الإلهيّ ، الذي هجر كلّ مشهد بشريّ ، واعتزل عن اضطرابات المعيشة ، وأزال كل مظهر ماديّ ، ونقّى ناظر نفسه فأضحى بذلك كفوءاً للرؤيا الإلهيّة ، وقد استحقّ أن يشاهد انحدار الله الكلمة لأجلنا حبًّا بالبشر وتجسّده في علّيقة ونار لا ماديّة ، تُلهب العوسجةَ وتضرمها وتحيلها إلى بهائها ، فلا تحترق ولا تبيد ولا تفقد طبيعتها الخاصّة . وقد كان هو أوّل من تلقّن اسم الكائن – الكائن حقًّا فوق الجوهر – وتسلّم من لدن الله التسلّط على أشياعه وبني قومه . فإذا كان هذا الرجل العظيم قد سمّى نفسه «بطيء النطق وثقيل اللسان» ، حتى إنّه لا يستطيع أن يلبّي إرادة الله ، لعجزه عن إظهارها وعن قيامه وسيطاً بين الله والإنسان ، فما تكون إذاً حالتي ، أنا المتدنّس والموسوم بكلّ خطيئة ، والحامل في ذاتي عاصفة هوجاء من الأفكار ؟ ولست بصافي العقل ولا الذهن ، حتى أصبح مرآة لله وللإشراقات الإلهيّة ، وليس لديّ قول أُبديه يكون على مستوى المعاني الإلهيّة المعجزة البيان والتي تفوق إدراك كلّ خليقة ناطقة؟!!

وعليه ، لمّا كنت تحت وطأة هذه الأفكار ، كنت أحجم عن الكلام وأتخوّف مما أمرتموني به ، لئلا – والحق يقال – استجلب الضحك مضاعفاً ، لسبب ما فيَّ من النقص في علمي وفي تفكيري . فكان من ثمّ الأمر صعباً جداً ، لأن الانتساب إلى الجهل جدير

(١) في الأصل كان عنوان هذه «المقدّمة» على الصورة التالية :

«رسالة من يوحنّا الراهب المتوحّد إلى حبيب الله البارّ قزما وأسقف مايوما الجزيل القداسة»

بالمسامحة ، إذا لم يكن ناتجاً عن كسل . أمّا امتلاك التوهّم بالمعرفة ، فذاك أمر بغيض وجدير بالملامة ولا يستحق المسامحة ، كليّة أكانت أم جزئيّة ، حتى لا أقول بأنّ ذلك دليل على أقصى الجهل .

ولكن لمّا كانت ثمرة المعصية موتاً ، وكان المتواضع والمطيع على مثال المسيح ينقاد صعوداً متواصلاً إلى العلى ويحظى من لدن الله على نعمة الاستنارة ، وإذا فتح فاه يمتلئ روحاً ، فيتنقّى قلبه ويستنير ذهنه ويضيئ كلامه في فتح فمه ، دون أن يهتمّ لقوله ، وقد أصبح آلة الروح المتكلّم فيه ، ومأخوذاً بالمسيح الذي يرئس الكهنوت بكم وفيكم . لذلك تراني أُلبّي الأمر وافتح فمي واثقاً بصلواتكم أنه يمتلئ روحاً ، فأبدي أقوالاً ليست ثمرة ذهني ، بل هي ثمرة الروح مرشد العميان ، لأني أتقبّل ما يعطينيه وأنطق به .

فأقدّم أولاً أحسن ما جاء في أقوال الحكماء اليونان ، لأني أعلم أنه اذا كان هناك شيء صالح فهو معطى من العلاء من لدن الله ، فإن «كل عطية صالحة وكل موهبة كاملة هي من العلاء منحدرة من لدن أبي الأنوار »[٢] . وحسب قول غريغوريوس الخبير في علم اللاهوت : «إذا كان هناك شيء مضادّ للحقيقة ، إنما هو استنباط قاتم من حِيَل الشيطان واختراع العقل من شرّ إبليس » . لذلك ، فإنني ، على مثال ما تعمل النحلة ، أجمع ما يتلاءم مع الحقيقة وأقتطف من الأعداء خلاصاً ، فأفرز كلّ ما هو كاذب وكان اسمه مطابقاً للمعرفة الغاشّة ، ثم أُرتّب حصيلة ما يتجمّع لديّ من هرطقات رجسة لديه تعالى ، حتى إذا ما عرفنا الكذب نزداد تمسّكاً بالحقيقة . ثم بعد إزالة خراب الضلال وغشّ الكذب ، أبسط الحقيقة مع الله ونعمته تجمّلها وتزيّنها ، كما بأهداب ذهبية ، أقوالُ الأنبياء الملهمين والصيّادين الرشيدين والرعاة والمعلمين اللابسي الله . ولما كان مجد الحقيقة يتفجّر من داخلها نوراً ، فهو يضيء بأشعّته على الذين يحظَون به ، بعد التماسهم التطهير ونبذهم الأفكار المقلقة .

وبالنتيجة ، فأنا أقول ما سبق وقلته أنْ لا شيء لي البتّة (مما سأقوله) . إنما – وقد جمعت ووحّدت قدر المستطاع ما تيسّر لي من منتخبات المعلمين – فسأجعل كلامي مقتضباً ، ملبّياً في كل شيء أمركم . لكني ألتمس منكم ، يا أحبّاء الله ، أن تتعطّفوا على الذي عمل بوصاياكم . واذ تتقبّلون طاعته ، تبادرونه بغزير صلواتكم ... »

---

(٢) يعقوب ١ : ١٧

الكِتَابُ الأول :

الله تعالى



في أن الإله لا يُدرك ، وفي أنه ينبغي ألاّ نبحث ولا ندقّق في ما لم نتسلّمه من الأنبياء والإنجيليّين القدّيسين

«الله لم يره أحد قط . الابن الوحيد الذي في حضن الآب هو أخبر»[١] . فالإله اذاً يَعجز بيانه ولا يُدرك ، لأنه «ليس يعرف الآب إلاّ الابن ، ولا أحد يعرف الإبن إلاّ الآب»[٢] . ويعرف الروحُ القدس ما في الله كما يعرف روحُ الانسان ما في الانسان[٣] . أمّا ما عدا الطبيعة الأولى السعيدة ، فلم يعرف أحد قط الله ، لا من البشر فحسب ، حتى ولا من القوات الفائقة العالم ، أي الكيروبيم والسيرافيم أنفسُهم إلاّ الذي اعتلن هو تعالى نفسُه له .

بيد أن الله لم يدَعنا في جهل تامّ . فإنه قد زرع هو نفسُه في طبيعتنا جميعاً المعرفة بأنه تعالى موجود ، والطبيعةُ نفسها - بائتلافها وانقيادها - تذيع هي أيضاً عظمةَ الطبيعة الالهية . وقد أَوْضح لنا معرفتَه بالشريعة والأنبياء أوّلاً ، ثم بابنه ربنا وإلهنا ومخلصنا يسوع المسيح ، ذلك على قدر استطاعتنا . لذلك ، كل ما تسلّمناه من الشريعة والأنبياء والرسل والانجيليّين نتقبّله ونعرفه ونوقّره ، غير فاحصين عمّا سوى ذلك البتة . فلمّا كان الله صالحاً ، فهو فيّاض بكلّ صلاح ، دون أن يخضع البتة لبخل أو انفعال ما . فما أبعد البخل عن الطبيعة الإلهيّة الصالحة وحدها والمنزّهة عن الانفعال ! وعليه ، لمّا كان تعالى يعرف كل شيء ، وسبق فهيّأ لكلٍّ ما يوافقه ، فقد أعلن لنا كل ما يفيدنا أن نعرفه ، وصمت عمّا لا نستطيع احتماله . فاذاً علينا نحن أن نؤثر ذلك ، ونقنع به ، «ولا نزيح الحدود القديمة»[٤] ، فنتجاوز التقليد الإلهي .

---

(١) يوحنا ١ : ١٨ (٢) متّى ١١ : ٢٧ (٣) ١ كور ٢ : ١١ (٤) أمثال ٢٢ : ٢٨

في ما يُعبّر وما لا يُعبّر عنه وفي ما يُعرَف وما لا يُعرَف

في ما نستطيع فهمه في الله ، دون التعبير عنه : – على من أراد اذاً أن يتكلّم أو يسمع عن الله أن يعلم حقّ العلم أن ما يختصّ بمعرفة الله وبتدبيره ، ليس كلّه لا يُعبّر عنه ولا كلّه يُعبّر عنه ، وأن الذي يُعرف غير الذي يُقال ، كما أن الكلام غيرُ المعرفة . وعليه إن الكثير ممّا يُفهم عن الله فهماً غامضاً لا يمكن التعبير عنه تعبيراً صائباً ، بل نضطرّ في الكلام عمّا يفوقنا إلى استعمال ما هو على شكلنا . مثلاً ، في الكلام عن الله ننسب إليه تعالى النوم والغضب والإهمال واليدين والرجلين وما شابه ذلك .

ما يمكننا فهمَه والتعبير عنه : – غير أننا نعرف ونقرّ أن الله لا بدء له ولا نهاية ، أبديٌّ وأزليٌّ ، غيرُ مخلوق ، لا يتحوّل ولا يتغيّر ، بسيط وغير مركّب ، لا جسم له ، لا يُرى ولا يُلمس ولا يُحدّ ، ولا يقع تحت الحواسّ ، لا يستوعبه العقلُ ، لا يُحصر ، لا يُدرك ، صالحٌ وعادلٌ ومبدعُ الخلائق بأسرها . قديرٌ وقابضُ الكلّ . يرى الكلّ ويعتني بالكلّ ومسلّط وقاضٍ . ثم نعرف ونقرّ أن الله واحد – أي ذاتٌ واحدة ، معروفٌ في ثلاثة أقانيم ، آب وابن وروح قدس ، وأنّه كذلك . وأنّ الآب والابن والروح القدس واحد في كل شيء ، ما عدا اللاّولادة والولادة والانبثاق . وأن الوحيد الجنس ابن الله وكلمته والإله – لأجل أحشاء رحمته ، ولأجل خلاصنا – برضى الآب ومؤازرة الروح القدس – حُبل به بلا زرع ووُلد بلا فساد من مريم البتول القدّيسة والدة الإله بواسطة الروح القدس ، وصار منها إنساناً كاملاً . وبما أنه هو نفسه إله كامل وإنسان كامل معاً – من طبيعتين لاهوت وناسوت ، وفي طبيعتين عاقلتين ومُريدتين وحرّتين – ، وبوجيز العبارة ، حاصلتين بالكمال على ما يليق بكلّ منهما حدًّا وتعبيراً ، وأَعني بذلك اللاهوتَ والناسوتَ ، مع أقنوم واحد مركّب ، لأنه جاع وعطش وتعب ، وصُلب واختبر الموت والدّفن ثلاثة أيام ، وصعد إلى السماوات من حيث أتى إلينا . وسيأتي أيضاً في الانقضاء . يشهد بذلك الكتاب الإلهي وجماعة القديسين .

ما لا يُستطاع فهمه ولا النطق به : – امّا أي شيء هي الذات الإلهيّة ، أو كيف هي في الثلاثة ، وكيف الله الابن الوحيد الجنس أخلى ذاته فصار إنساناً من الدّماء البتوليّة ، مجبولاً بطريقة مخالفة للطبيعة ، وكيف مشى على المياه ولم تُبلَّ قدماه ، فهذا كلّه نجهلُه ونعجزُ عن الكلام فيه . اذاً لا يمكن النطق ولا التفكير عن الله خارجاً عمّا صوّره الله نفسه لنا أو قاله وأوضحه في المقولات الإلهية ، في العهدين القديم والجديد .

البرهان على أن الله موجود

معظم الأمم تعترف بوجود الله : – ومن ثمّ لم يكن موضوع شكّ أن يكون الله موجوداً ، لا لدى الذين تسلّموا الكتب المقدسة – أفي العهد القديم كان ذلك أم في الجديد – ولا لدى معظم اليونانيين. فقد سبق وقلنا إن معرفة وجود الله قد زُرعت فينا طبيعيًّا . ولكن لمّا تقوّى شرّ إبليس على طبيعة البشر ، حتى زُجّ البعض في لجّة الهلاك البهيميّة ، شرِّ الشرور كلّها ، ذلك بأن أنكروا وجود الله – وقد أوضح النبيّ القدّيس داود غباوتهم بقوله : «قال الجاهل في قلبه : ليس إله»(٥) ، حينئذٍ قام تلاميذ الرب ورسلُه ، ممتلئين بحكمة الروح القدوس ، يعملون الآيات الإلهيّة بقوّته ونعمته ، فأخرجوا هؤلاء بشباك المعجزات ، وأنقذوهم من عمق الجهل إلى نور المعرفة الإلهية . كذلك فعل أيضاً خلفاءُ هؤلاء في النعمة والاستحقاق ، الرعاة والمعلمون الذين نالوا نعمة الروح المنيرة . فقد أناروا بقوة المعجزات وكلمة النعمة أولئك الحاصلين في الظلام ، وردّوا الضالّين. أمّا نحن الذين لم نتسلّم موهبة المعجزات ولا التعليم – لأننا باستسلامنا إلى اللذات جعلنا أنفسنا غير مستحقّين – فهاتِ نعرض القليل ممّا وصل إلينا من مذيعي النعمة ، مستدعين الآب والابن والروح القدس .

البرهان العقلي على وجود الله : – كل الكائنات مخلوقة أو غير مخلوقة . فاذا كانت مخلوقة فهي حتماً متحوِّلة ، – لأنّ وجودها ابتدأ من تحويل . وهي خاضعة للتحويل ، فهي في كلّ شيء عرضة إمّا للفساد وإمّا للتغيير في اختيارها . أمّا إذا كانت غير مخلوقة ، فهي ، – بحسب الاستنتاج المنطقي – غير متحوّلة البتة لأن كيانها نفسه مختلف وكيفيّة التعبير عنها مختلفة أيضاً وأعني بذلك اختصاصاتها . فمن لا يُسلّم إذاً بأنّ جميع الكائنات التي تقع تحت حواسّنا ، بل حتى الملائكة ، تتحوّل وتتغيّر وتتحرّك بحركات شتى : فالعاقلة منها – وهي الملائكة والأرواح والشياطين – فبحسب اختيارها ، تتقدّم في الخير أو تبتعد عنه ، تميل إليه أو ترتدّ عنه . أمّا الباقية ، فذلك بحسب تكوينها وفسادها ، إزديادها ونقصانها ، تطوّراتها في خلقها وحركتها المكانيّة . وعليه فبما أنها متحوّلة ، فهي حتماً مخلوقة ، وبما أنها مخلوقة فهي

---

(٥) مزمور ١٣ : ١

حتماً صنع أَحد. ويجب أن يكون صانعُها غيرَ مخلوق. أمّا اذا كان هذا مخلوقاً، فهو حتماً صنع أحد، ذلك إلى أن نبلغ إلى واحد غيرَ مخلوق. اذاً لمّا كان الصانع غيرَ مخلوق فهو حتماً غير متحوّل. ومن يكون هذا يا ترى سوى الله؟

البرهان الثاني من حفظ الكائنات وسياستها: – وإن التئام الخليقة نفسَه مع حفظها وسياستها يُعلّمنا هو أيضاً أن الله موجودٌ، وأنه هو المرتِّب والمنسِّق والحافظ هذا الكون كلّه والمعتني به على الدوام. فكيف تقترن العناصر المتنافرة بعضُها ببعض – وهي النار والماء والهواء والتراب –، كيف تقترن اذاً لتكميل عالم واحد، وتستمرّ غيرَ منحلّة، لو لم تكن هناك قوة قديرة تجمعها وتحفظها غير منحلّة؟

البرهان الثالث من ترتيب الكون: – العالم لم يَنتظِم ويتركَّز صدفة، ضد الإبيكوريين.
ما الذي نظّم ما هو في السماء وما هو على الأرض، كلَّ ما هو في الهواء وكلَّ ما هو في الماء؟ ما الذي خلطها ووزّعها؟ من دفع بها إلى الحركة وقاد انطلاقتها بلا هوادة ولا حاجز؟ هل هو إلاّ الذي أتقنها ووضع أمره فيها كلِّها؟ فيسير الكون بموجبه ويتدبّر؟ – ومن هو متقنُها؟ أليس الذي صنعها وأخرجها إلى الوجود؟ فإننا لا ننسُب قوةً مثل هذه إلى الصدفة، لأننا إذا افترضنا بأنها وُجدت صدفة، فما هو الذي نظّمها؟ وإذا سلّمنا بهذا أيضاً – إذا أردتَ ذلك – لكن لمن ننسب الاعتناء بها وحفظها طبقاً للقواعد التي تأسست عليها في البدء؟ – إن ذلك هو حتماً غيرُ الصدفة. – وماذا يكون سوى الله؟

ما هو الله؟ – إنه غير مدرك

ست صفات في الله تدلّ على أنه لا جسمَ له : – إذاً إنه لواضحٌ أن الله موجود. – ولكن ما هو الله في جوهره وطبيعته؟ – إن هذا لا يمكنُ إدراكُه ولا معرفتُه البتة. وإنه لواضح أيضاً أن لا جسمَ له. – فكيف من لا يُختَبَر يكونُ جسماً؟ وهو لا يُحَدُّ ولا يُصوَّرُ ولا يُلمَس ولا يُرى وبسيطٌ وغيرُ مركّب؟ – وكيف يكونُ غير متحوِّل، إذا كان محصوراً ومنفعلاً؟ – وكيف يكون منزّهاً عن الانفعال مَن هو مركّبٌ من عناصر، وسينحلّ يوماً إليها؟ – فالتركيب بدءُ النفور. والنفورُ بدءُ التفكّك. والتفكّك بدءُ الانحلال. والانحلال غريبٌ تماماً عن الله.

وكيف يصحّ هذا أيضاً أنّ الله يَنفذُ عبر الكلّ ويملأُ الكلّ؟ – على حسب ما قال الكتاب: «ألستُ مالئُ السماواتِ والأرض؟ يقول الربّ» (٦). – فالجسم لا يستطيع النفوذَ عبرَ الأجسام دون أن يقطعها وتقطعه، أو يشتبك بها وتعارضه، مثلُها مثل جميع الرطوبات التي تختلط وتمتزج بالأشياء.

يزعم الرواقيّون أن الله جسمٌ غير ماديّ، وهو الجوهرُ الخامس : – وإذا قال بعضُهم أيضاً إن الله جسمٌ غير ماديٍّ اسمه العنصر الخامس، كما يزعم بعض حكماء اليونان، نقول: إن هذا لا يمكن وجوده، لأنه يكون حتماً متحرّكاً، شأنه شأن السماء. وإذا قالوا إنَّ هذا جسمٌ خامس، فالذي يحرّكه مَن يكون؟ – لأنَّ كلَّ متحرِّكٍ يحرّكه آخر – وذاك مَن هو؟ – ذلك إلى أقصى حدود التصوّر، إلى أنْ ننتهيَ إلى من هو لا يتحرّك. فإن الأول الذي يحرِّكُ ولا يتحرَّك هو هو الإله. وكيف المتحرِّكُ لا يكون في مكان محدود؟ – إن الإله إذاً وحده لا يتحرَّك، ويحرِّك الكلَّ بعدم تحرُّكه. ومن ثمّ ينبغي أن نُدرك بأن الإله لا جسم له.

إن الصفة «لا جسمي» لا تُفيد شيئاً عن الله : – ولكنّ هذا: «إن الإله لا جسم له» لا يدلّ على جوهر الله، كما هي الحالة في كونه غير مولودٍ ولا بدءَ له ولا يتغيَّر ولا يَفسُد. وفي

---

(٦) ارميا ٢٣ : ٢٤

كل ما يُقال عن الله وعن وجوده ، لأنَّ هذه الصفات تدلُّ لا على ما هو الله ، بل على ما ليس هو . وينبغي على مَن يشاء التكلُّمَ عن جوهر شيءٍ ما أن يقول ما هو هذا الشيء ، لا ما ليس هو . ومن ثمّ أُجيب على السؤال ، ما هو الله ، باستحالة الكلام عن جوهره . وهذا المنطق أقرب إلينا جداً من تخيُّلِ جميع الصفات . ذلك لأن الله ليس واحداً من الكائنات ، لا لأنه ليس كائناً ، بل لأنه فوق جميع الكائنات ، وهو فوق الوجود نفسه . ولما كانت معارِفنا على مستوى الكائنات ، فما هو فوق المعرفة هو حتماً فوق الجوهر أيضاً . وبالعكس ما هو فوق الجوهر يكونُ أيضاً فوق المعرفة .

في التكلّم عن الله ، الإقرار بعدم المعرفة هو الأفضل : – الإله إذاً لا يُحدّ ولا يُدْرَك . والشيءُ الوحيد الذي نُدركه عنه أنه لا يُحدّ ولا يُدرَك . وكل ما نقوله في الله للتوضيح يدلّ ، لا على طبيعته ، بل على ما هو حول طبيعته . فإذا قلتَ بأنه صالحٌ وعادل وحكيم ومهما قلت ، فلستَ تقول شيئاً عن طبيعته ، بل عمّا هو حول طبيعته . وهناك أيضاً بعض المقولات التوضيحية عن الله ، لها قوة توضيح تدريجي . مثلاً إذا نسبنا الظلام إلى الله ، فلسنا نفكِّر بالظلام بل بأنه ليس نوراً ، بل بأنه فوق النور .

البرهان على أن الله واحدٌ لا كثرة

لقد اتضح اتضاحاً وافياً أنَّ الله موجود وأن جوهرَه لا يُدْرَك. أمّا أنه واحد لا كثرة، فليس هذا موضوع شكّ لدى الذين يؤمنون بالكتاب الإلهيّ. فقد قال الربّ في بدء تشريعه: «أنا الربّ إلهك الذي أخرجك من أرض مصر. لا يكن لك آلهة أخرى سوايَ»[٧]. وأيضاً: «اسمع يا إسرائيل، إن الربّ إلهَنا ربٌّ واحد»[٨]. وجاء في أشعيا النبيّ: «أنا الأول وأنا الآخِر. ولا إله غيري»[٩]، و«إني أنا هو، لم يكن إلهٌ قبلي ولا يكونُ إله بعدي»[١٠]. ويقول الربّ في أناجيله المقدّسة مخاطباً الآب هكذا: «وهذه هي الحياة الأبديّة أن يعرفوك أنت الإله الحقيقيّ وحدك»[١١]. أمّا الذين لا يؤمنون بالكتاب الإلهيّ فنُجادلهم هكذا:

إيضاح منطقي بأنّ الله واحد: – إن الإله كاملٌ وهو ليس ناقصاً البتة في صلاحه وفي حكمته وفي قوّته. وهو لا بدء له ولا نهاية، أزليّ، غيرُ محدود. وبالاختصار، هو كامل في كل صفاته. وعليه إذا قلنا بآلهة كثيرين، فوجب أن نرى تبايناً في كثرتهم. لأننا إذا لم نرَ تبايناً فيهم، فهم بالأحرى واحد لا كثرة. فمَن كان ناقصَ الكمال في صلاحه أو في قوّته أو في حكمته أو في الزمان أو في المكان، فلا يكون إلهاً. ووحدة الهويّة في كلّ الصفات إنما تشير بالأحرى إلى واحد، لا إلى كثرة.

وكيف لَعمري تَسْلَمُ اللامحدوديّة في مَن هم كثرة؟ لأنه حيثما يكون الواحد لا يمكن أن يكون الآخر.

وكيف يسوس كثيرون العالم ولا ينحلُّ ويفسدُ، في حال قيام حرب بين السّاسة؟ لأنَّ التباين يؤدّي إلى الخلاف. وإذا قيل بأن كلّ واحد يرئس قطاعه، فمن هو المنظِّم الذي يقوم بتوزيع الحصص بينهم؟ لأن ذاك بالأحرى يكون الله. ومن ثمّ إن الله واحدٌ وكاملٌ ولا يُحصر وصانعُ الكلّ وسائسُه. وهو فوق الكمال وقبل الكمال، لأن الطبيعة تقضي بأن تكون الوحدة بدءَ الازدواجيّة.

---

(٧) خروج ٢٠:٢ (٨) تثنية الاشتراع ٦:٤ (٩) أشعيا ٤٤:٦
(١٠) أشعيا ٤٣:١٠ (١١) يوحنا ١٧:٣

إيضاح منطقي في الكلمة ابن الله

مقابلةٌ بين كلمة الله والكلمة البشريّة : - ومن ثمّ إن الله الواحد الأَحد ليس بخالٍ من كلمة. وبما أن الله له كلمته فهي ليست بخاليةٍ من أقنوم. أمّا وجودُ الكلمة فهو لا بدءَ له ولا نهاية. فلم يكن زمنٌ اذاً حيث لم يكنِ اللهُ الكلمة. وإنّ الله له كلمته مولودةٌ منه دائماً، فهي ليست لاأقنوميّة على مثال كلمتنا التي تتبدّد في الهواء. بل هي أقنومٌ حيّ كامل لا يبتعد خارجاً عنه، بل هو كائن فيه دائماً. فأين يا ترى يكون موجوداً خارجاً عنه؟ ولمّا كانت طبيعتنا زائلةً وسريعةَ الانحلال، لذلك تكون كلمتُنا أيضاً لاأقنوميّة. أمّا الله - وهو الكائن دوماً والكائن كاملاً - فإن له أيضاً كلمته كاملة وأقنوميّة وكائنة دوماً وحيّة، لها كل ما لوالدها. فكما أن كلمتنا - لأنها صادرةٌ من عقلنا - ليست هي وعقلُنا شيئاً واحداً في كل شيء، وليست هي غيرَه في كل شيء، - فبما أنها من العقل، فهي غيرُ ما هو، وبما أنها تؤدّي بالعقل إلى تبيان ذاته، فليست هي غيرَ العقل في كلّ شيء -. لكن بما أنهما واحد في الطبيعة، فهي غير ما هو في الخضوع. كذلك قل أيضاً عن كلمة الله، فبما أنه قائم في ذاته فهو يتميّز عن الله الذي له منه أقنومه، وهو - فيمَا يُظهر في ذاته ما يراه في الله - له الطبيعة نفسها التي هي لله. فكما يُشاهَدُ الكمالُ في الآب في كل شيء، كذلك يُشاهَد في الكلمة المولودِ منه.

إيضاح منطقي في الروح القدس

مقابلةٌ بين الروح الإلهي والروح البشريّ: – ويجب أيضاً أن يكون للكلمة روحٌ، فإن كلمتنا أيضاً لا تخلو من الروح. لكنّ الروح عندنا غريب عن جوهرنا. فهو جَذْبُ الهواء وردُّه، استنشاقه وتبديده، لأجل قيام الجسد. وهو نفسه يصير صوتاً في أثناء التكلّم، فيُظهر في ذاته قوّةَ الكلمة. وينبغي الاعتراف اعترافاً تقيًّا بوجودِ روح الله أيضاً في طبيعته الإلهية البسيطة وغير المركّبة، لئلا يبدو الكلمةُ أنقصَ من كلمتنا. وليس من التقوى أن نقول بأن الروح شيء غريب عن الله ومستورَد إليه من خارج، شأنه شأن روحنا نحن المركَّبين. لكن كما نفهم – لدى ذكر كلمة الله – أنه ليس بلا أقنوم، ولا حاصلاً من تعليم، ولا محمولاً بصوت خارجيّ ولا مبدَّداً في الهواء، ولا منحلاً، بل نفهمه قائماً في جوهره، حرًّا وفاعلاً وقديراً، كذلك – وقد تعلّمنا أن روح الله هو الملازم للكلمة والمُظهر فِعلَه –، فإننا نرفض الاعتقاد أن يكون نسمةً عابرة، لأننا بذلك نحطّ من شأن الطبيعة الإلهية حتى الحقارة، إذا انحدرنا بالتفكير إلى أن الروح الذي فيها هو على مثال روحنا. لكنّنا نعتقد أنه قوة جوهريّة، مرئية هي نفسها في أقنومها الخاص بها، منبثقة من الآب، مستريحة في الكلمة. ولأنها تُظهره فهي لا تبتعد عن الله الذي هي فيه، ولا عن الكلمة لأنها تُلازمه. وهي مقتدرة، فلا تؤول إلى الزوال. أمّا الروح – على مثال الكلمة – فهو كائنٌ في أقنوم، حيّ، حرٌّ، متحرّكٌ بذاته، فاعلٌ بذاته، مُريدٌ دوماً الصلاح، قوّته طوع إرادته، فهو لا بداية له ولا نهاية. فالكلمة لا يغرُبُ قط عن الآب، ولا الروح عن الكلمة.

وعلى هذا النحو، فبالوحدة في الطبيعة الإلهيّة يزول ضلالُ كثرة الآلهة، وبالاعتقاد بالكلمة والروح يزول رأيُ اليهود. ويبقى ما هو مفيدٌ من كِلا المعتقدَيْن: فمن الفكرة اليهودية وحدة الطبيعة، ومن الفكرة الإغريقية التمييزُ في الأقانيم وحده.

أدلّة من كتاب العهد العتيق على وجود الكلمة والروح

وإذا قام اليهوديّ يعترضِ ضد تعليمنا في الكلمة والروح، فلتُخاصمه أقوال الكتاب الإلهي وتُسكته! فإن داود الإلهي قد قال في الكلمة: «كلمتُك يا ربّ ثابتة في السماء إلى

الأبد» [١٢] . وأيضاً : «أرسَلَ كلمته فشفاهم» [١٣] . والكلمة الملفوظة لا تُرسل ولا تبقى إلى الأبد . ويقول داودُ نفسه في الروح : «ترسِل روحَك فيُخلَقون» [١٤] ، وأيضاً : «بكلمة الرب صُنعتِ السماوات وبروح فيه كلُّ جنودِها» [١٥] . ويقول أيّوب : «روح الله هو الذي صنعني ونسمةُ القدير أَحيَتني» [١٦] . فالروح الذي يُرسَل ويَصنع ويُثبِّت ويُحيي ليس تلك النفخة الزائلة ، كما أن فم الله ليس عضواً جسمياً ، لأنه ينبغي أن نفهمهما كليهما فهْماً يليق بالله .

---

(١٢) مز ١١٨ : ٨٩ (١٣) مز ١٠٦ : ٢٠ (١٤) مز ١٠٣ : ٣٠ (١٥) مز ٣٢ : ٦
(١٦) أيوب ٣٣ : ٤

في الثالوث الأقدس

إيماننا بالإله الواحد

إذاً نؤمن بإله واحد ، بَدءٍ واحد لا بَدءَ له ، غير مخلوق ولا مولـود ، لا يزول ولا يموت ، أبديّ ، لا يُحصَر ولا يُحدّ ، ولا يُحاط به ، لا تُحصر قوّته ، بسيط وغير مركّب ، لا جسم له ، لا يَسيل ولا يَنفعل ولا يتحوّل ولا يتغيَّر ، لا يُرى ، ينبوع الصلاح والصدق ، نور عقلاني ، لا يُدنى منه ، قوّة لا يُعرف لها أيّ قياس وقياسها مشيئته الخاصة وحدها ، لأنه «كل ما شاء صنعه»[(١٧)] . صانع كلّ المخلوقات ما يُرى وما لا يُرى . قابض الكلّ وحافظه ، يعتني بالكلّ ، يضبط الكلّ ويرئسه ويملِك عليه مُلكاً لا ينتهي خالداً . ليس له مقاومٌ ، يملأ الكلّ . لا يُحيط به شيء وهو يُحيط بكلّ شيء ويستولي عليه ويهيِّئه . ينفذ عبر كل الجواهر ولا يمسُّها . وهو أسمى من الكلّ . مترفّع عن كل جوهر لِجَلال جوهره وكائنٌ فوق الكائنات . فائقُ اللاهوت وفائقُ الصلاح وفيّاض . محدِّد السلطات والرتب بأسرها ومستقِرٌّ فوق السلطات والرتب كلها . فائق الجوهر والحياة والنطق والتفكير . هو النور بالذات والصلاح بالذات والحياة بالذات والجوهر بالذات ، لأنّ وجوده ليس من غيره ولا من كلّ الموجودات ، لأنه هو ينبوع الوجود لها كلّها ، وينبوع الحياة للأحياء والنطق للمتمتّعين بالنطق وعلّة جميع الخيرات للجميع . هو عالمٌ بكلّ الأشياء قبل كيانها ، وهو جوهر واحد ولاهوت واحد وقوّة واحدة ومشيئة واحدة وفعل واحد ورئاسة واحدة وسلطة واحدة وتؤمن به كل خليقة ناطقة وتعبُده . فالأقانيم متّحدون دون اختلاط ، ومتميِّزون دون انقسام – وهذا غريب – . هم آب وابن وروح قدّوس ، بهم اعتمدْنا . فإن الربّ قد أوصى تلاميذه أن يعمّدوا على النحو التالي قائلاً : «معمِّدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس»[(١٨)]

إيماننا بالآب والابن : – نؤمن بآب واحد ، مبدإِ الجميع وعلّتهم . لم يلدْه أحدٌ وهو وحده أيضاً غير معلول ولا مولود . صانع الكلّ وأب بالطبيعة للوحيد الجنس وحده ، ابنه ربّنا يسوع المسيح إلهنا ومخلّصنا . وهو مصدر الروح القدس . ونؤمن بابن الله الواحد والوحيد

---

(١٧) مز ١٣٤ : ٦ (١٨) متى ٢٨ : ١٩

الجنس ربنا يسوع المسيح المولود من الآب قبل كل الدهور. نور من نور، إله حق من إله حق، مولودٍ غير مخلوق، مساوٍ للآب في الجوهر، الذي به كان كلُّ شيء. فبقولنا أنه قبل الدهور، نبيِّن أنّ ولادته لم تكن في الزمن ولم تبتدئ، لأنّ ابن الله لم ينتقل من العدم إلى الوجود. فهو بهاء المجد وميزة أقنوم الآب والحكمة الحيّة والقوّة والكلمة الأقنومي وصورة الله الذي لا يُرى الجوهرية والكاملة والحيّة، بل كان دائماً مع الآب وفي الآب مولوداً منه ولادة أزليّة لا بدءَ لها. فإنه ما كان قط زمنٌ لم يكن الابن فيه، بل حيثما الآب فهناك الابن المولود منه، لأنه بدون الابن لا يُسمّى آباً. وإذا لم يكن له الابن، فليس هو آباً. واذا صار له الابن بعد ذلك، فبعد ذلك فقط يصير آباً ويتحوّل من أنه لم يكن آبا إلى أنه صار آباً. وهذا أفظع من كل كفر! وعليه لا يمكن القول بأن الله خالٍ من الخصب الطبيعي. والخصب هو أن يلد المِثل من ذاته – أي من جوهره الخاص – مثيلاً له في الطبيعة.

مقابلة بين الولادة الإلهية والخَلق: – إنه إذاً لكفرٌ القول في ولادة الابن أن قد تخلّلها زمن وأن وجود الابن كان بعد الآب. وإن ما نقوله إن ولادة الابن كانت من الآب أي من طبيعته. وإذا لم نسلِّم بأن – منذ البدء – كان الابن مع الآب مولوداً منه، فإننا نُدخل تحويلاً في أقنوم الآب، ذلك أنه لم يكن آباً ثم صار آباً. أمّا الخليقة، ولو أنها صارت في ما بعد، فهي ليست من جوهر الله، وقد صارت من العدم إلى الوجود بإرادته تعالى وقوّته، ولم يلتحق تحويلٌ في طبيعة الله. إن الولادة صدور المولود من جوهر الوالد مساوياً له في الجوهر. امّا الخَلق والصنع، فيصيران من خارج، فلا يكون المخلوق والمصنوع من جوهر الخالق والصّانع، ولا مساويان لهما البتة.

لذلك، لمّا كان الله منزَّهاً وحده عن الانفعال والتحويل والتغيير، وكان هو هو دائماً، كان كذلك أيضاً في الولادة وفي الخلق بلا انفعال. فلأنّه بطبيعته لا ينفعل ولا يسيل – لأنه بسيط وغير مركّب – لم يكن ليعاني الانفعال أو السيلان، لا في الولادة ولا في الخلق، ولم يكن بحاجة لمساعدة أحد. لكنّ الولادة لا بدءَ لها وأزليّة – لأنها فعل الطبيعة ولأنها صادرة من جوهر الله –، ذلك كي لا يخضع الوالد لتحويل، وكي لا يكون إله أوّل وإله آخر مما يُحدث إضافة. أمّا الخلق، بالنسبة إلى الله الذي هو فعل إرادته، فليس مساوياً لله في الأزلية. فالمنتقِل من العدم إلى الوجود لا يكون مساوياً في أزليّة الوجود لمن لا بدءَ له وهو كائن دائماً. وعلى هذا النحو إذاً لا يتساوى فعل الإنسان وفعل الله. لأن الإنسان لا يُخرِج شيئاً من العدم إلى الوجود، لكنّ كل ما يصنعه إنما يصنعه انطلاقاً من مادة سابقة

الوضع ، وليس ذلك بمجرّد أن يُريد ، بل هو يسبق فيفكّر أيضاً ويصمّم المشروع في عقله ثم يعمل بيديه أيضاً ويواصل الكدّ والتعب . وكثيراً ما يعجز عن البلوغ إلى مرامه كما يريد . أمّا الله فيكفي أن يُريد فقط ويخرج كل شيء من العدم إلى الوجود . وعلى هذا النحو لا يلد الله مثلما يلد الإنسان . فبمَا أنَّ الله منزَّه عن الزمن ولا بدء له ولا ينفعل ولا يسيل ولا جسم له وفريد ولا نهاية له ، تكون ولادته بلا زمن وبلا بدء ولا انفعال ولا سيلان وبدون علاقة . وولادته التي لا تُدرَك ليس لها بدايةٌ ولا نهاية . وهي بلا بدء لأنها لا تتحوَّل ، وبلا سيلان لأنها لا تنفعِل ولا جِسميّة . وهي بلا علاقة لأنها أيضاً لاجِسميّة ولأن الله واحد أحد وليس بحاجة إلى آخر . وهي بلا نهاية ولا انقطاع ، لأنها منزَّهة عن البدء والزمن والنهاية ، وإنما هي هي دائماً . فالذي هو بلا ابتداء يكون بلا انتهاء . أمّا الذي هو بلا انتهاء بالنعمة ، كالملائكة ، فليس هو حتماً بلا ابتداء .

الفرق بين الولادة الإلهيّة والولادة البشريّة

وعليه يلد الله الكائن دوماً كلمتَه – وهي كاملة – بلا بداية ولا نهاية ، ذلك كيلا يَلدَ الله في زمن ، وهو الذي طبيعته وكيانه يجلاّن كثيراً فوق الزمن . امّا الإنسان فهو ، من الواضح ، على خلاف ذلك : إنه يتمّ ولادتَه بالوضع والفساد والسيلان وكثرة النسل وبوشاح الجسد والتواجد في طبيعته للذكر والأنثى ، لأنّ الذكر بحاجة إلى مساعدة الأنثى . ولكن ليرحمنا من هو فوق الجميع الذي يسمو فوق كل عقل وإدراك .

في الآب والابن : – إذاً تُعلِّمنا الكنيسة الجامعة الرسولية أنّ مع وجود الآب كان الابن الوحيد الجنس موجوداً منه بلا زمن ولا سيلان ولا انفعال ممّا يفوق الإدراك ، الأمر الذي يعلمه إله الجميع وحده . فكما أنه مع وجود النار يكون النور الصادر منها ، ولا تكون النار أولاً وبعد ذلك النور ، بل يكونان معاً . وكما أن النور الصادر من النار مولود منها دائماً ولا يفارقها البتة ، كذلك يولد الابن أيضاً من الآب دون أن يفارقه البتة ، بل يكون فيه دائماً . لكنّ النور المولود من النار بلا افتراق والباقي فيها دائماً ، ليس له أقنوم خاص به من قِبَل النار ، لأنه صفةٌ للنار طبيعيّة . أما ابن الله الوحيد الجنس المولود من الآب بلا انفصال ولا افتراق ، والثابت فيه دائماً ، فله أقنومه الخاص من قِبَل الله .

لماذا الابنُ يُسمّى كلمةً وبهاءً وصورةً ، ولماذا يُسمّى الوحيد؟ – وعليه يُسمى الابن كلمة وبهاء ، لولادته من الآب بلا علاقة ولا انفعال ولا زمن ولا سيلان ولا افتراق . وهو

أيضاً صورةُ الأقنوم الأبوي ، لأنه كامل وذو أقنوم ومساو للآب في كل شيء ، عدا اللاولادة. وهو الوحيد الجنس ، لأنه وُلد وحده من الآب ولادةً وحيدة ؛ فليس من ولادة أخرى تُساوي ولادة الابن من الله ، وليس من ابن الله سواه . أمّا الروح القدس ، فينبثق من الآب لا بالولادة بل بالانبثاق . وطريقة الوجود الأخرى هذه لا تُدرَك ولا تُعرَف ، شأنها شأن ولادة الابن . لذلك كل ما للآب هو أيضاً للروح عدا اللاولادة التي لا تشير إلى جوهرٍ أو رتبة مختلفين ، بل إلى طريقة الوجود . فإن آدم مثلاً هو غير مولود لأنه جبْلة الله ، وشيتاً مولود لأنه ابن آدم ، وحواء منبثقة من ضلع آدم وهي غير مولودة . ولا يختلف واحدهم بالطبيعة عن الآخر – لأنهم بَشَر – بل يختلفون في طريقة وجودهم .

الاختلاف بين كلمة ἀγένητος وكلمة ἀγέννητος : – واعلمْ أنّ كلمة ἀγένητος المكتوبة بنونٍ واحدة (ν) ، معناها «غير مخلوق» أو «غير كائن» ، وكلمة ἀγέννητος المكتوبة بنونٍ مزدوجة (νν) ، معناها «غير مولود» . فبالمعنى الأوّل إذاً يختلف جوهر عن جوهر ، لأنّ الجوهر غيرَ المخلوق أو غيرَ الكائن ليس كالجوهر المخلوق أو الكائن . أما بالمعنى الثاني ، فلا يختلف جوهر عن جوهر ، لأنّ الفرد الأوّل من كل الحيوانات غير مولود ، ἀγέννητος ، لا غير مخلوق ἀγένητος ، لأنَّ الباري قد خلقها كلّها وأَوجدها بكلمته ، لكنها لم تولد ، لأنّ واحدها لا يولَد إلاّ من آخر من الجنس نفسه سبقه في الوجود .

فبحسب المعنى الأول إذاً يَتساوى الأقانيم الثلاثة الإلهيّون في اللاهوت الأقدس . وهم متساوون وغير مخلوقين. أمّا بحسب المعنى الثاني ، فلا ، لأنَّ الآب وحده غير مولود . ووجوده ليس من أقنوم آخر غيره . والابن وحده مولود ، لأنه وُلد من جوهر الآب المنزّه عن البدء والزمن . والروح القدس وحده منبثق من جوهر الآب – غير مولود بل منبثق [١٩] . فهكذا يعلّمنا الكتاب الإلهي . أمّا الكيفيّة في الولادة والانبثاق فتظلّ غير مدركة .

واعلم هذا أيضاً أنّ اسم الأبوّة والبنوّة والانبثاق لم ينتقل من عندنا إلى اللاهوت السعيد بل بالعكس ، فهو قد انتقل إلينا من هناك ، على ما يقول الرسول الإلهي : – «لهذا السبب أجثو على ركبتيَّ لأبي ربّنا يسوع المسيح الذي منه تُسمّى كل أُبوَّة في السماوات وعلى الأرض» [٢٠]

(١٩) يوحنّا ١٥ : ٢٦ (٢٠) أفسس ٣ : ١٤ – ١٥

كيف الآب أعظم من الابن وكيف الكلمة ليس آلة للآب : – وإذا قلنا بأنّ الآب مبدأُ الابن وأعظم منه ، فلسنا نعني أنه يفوقُ الابنَ زمناً أو طبيعةً ، لأنه «به أنشأ الدهور»[٢١] ، ولا أنه يفوقُه بشيء آخر سوى العلّة ، أي أنّ الابن وُلد من الآب ، لا الآب من الابن ، وأنّ الآب علّةُ الابن بحسب الطبيعة ، كما نحن نقول بأنّ النار ليست صادرة من النور ، بل بالأحرى النور من النار . إذاً عندما نسمع أنّ الآب مبدأُ الابن وأنه أعظمُ منه ، نفكّر بالعلّة . وعلى نحو ما نقول بأن ليس جوهر النار سوى جوهر النور ، على نحو ذلك نقول – كما يبدو واضحاً – أن ليس جوهرُ الآب سوى جوهر الابن ، بل هما واحد وهما الشيء نفسه . وكما نقول إنّ النار تظهر بالنور الصادر منها ، ولسنا نحسَب أنّ النور – الذي هو من النار – آلةٌ خادمةٌ لها ، بل أنه قوتُها الطبيعية ، كذلك إنه مهما يعمل الآب يعمله بابنه – ليس كما بعضوٍ للخدمة – ، بل بقوّته الطبيعيّة الأقنوميّة . وكما نقول إنّ النار تضيءُ ونقول أيضاً إنّ النور يضيءُ ، كذلك نقول : «مهما يعمله الآب فهذا يعمله الابن»[٢٢] . لكنّ الفرق أنّ النور لا أقنومَ له خاصًّا متميّزاً عن النار ، وأن الابن أقنومٌ كاملٌ غيرُ منفصلٍ عن الأقنوم الأبويّ ، كما أثبتنا ذلك في ما تقدّم . فإنه – في الخليقة – لا يمكن إيجاد صورة توضح في ذاتها حالة الثالوث الأقدس إيضاحاً كاملاً دون اختلاف . فكيف المخلوق والمركَّب والسائل والمتحوّل والمحدود وذو الشكل والفاسد ، كيف هذا يبيِّن بصفاء الجوهر الإلهي السامي الجوهر ، الغريب عن هذه الصفات كلها؟! إنه لَواضح أنّ كل خليقة غارقة في الكثير من هذه الصفات وهي جميعُها بموجب طبيعتها خاضعةٌ للفساد .

في الروح القدس . – لا نعلم كيفيّة التمييز بين الولادة والانبثاق : – وبالمثل ، نؤمن أيضاً بالروح القدس الواحد ، الربّ المحيي ، المنبثق من الآب والمستريح في الابن والمسجود له والممجَّد مع الآب والابن ، على أنه مساوٍ لهما في الجوهر والأزليّة ، الروح الذي هو من الله ، المستقيم ، صاحب الأمر وينبوع الحكمة والحياة والتقديس ، – لأنه إلهٌ مع الآب والابن فعلاً واسماً – غير المخلوق ، الممتلئُ ، المبدعُ ، صاحبُ الاقتدار ، كاملُ الفعاليّة والقوة ، لا حدَّ لقوّته ، المتسلّط المُطلَق على الخليقة كلّها . يؤلّه ولا يتألّه ، يملأ وليس ما يملأه ، يُستَمدّ منه ولا يَستمِدّ ، يُقدِّس ولا يتقدّس ، يُلجأ إليه لتقبّله استغاثات الجميع . مساوٍ للآب والابن في كل شيء . منبثقٌ من الآب وموهوبٌ بالابن فتناله الخليقة كلها . خالقٌ بذاته ،

---

(٢١) عبرانيّين ١ : ٢ (٢٢) يوحنّا ٥ : ١٩

يكوّن الكلّ ويقدّسه ويعتني به، قيوم بأقنومه الخاص، غير مفترق ولا منفصل عن الآب والابن. له كل ما للآب والابن عدا اللاولادة والولادة، فإنّ الآب غير معلول وغير مولود - لأنه ليس من أحد، بل له وجودُه من ذاته، ولا شيء ممّا هو له كان من غيره، بل بالأحرى هو لكليهما بالطبيعة المبدأُ وعلّة كيفيّة الوجود -. أمّا الابن فهو من الآب بالولادة. والروح القدس هو أيضاً من الآب، لكن لا بالولادة بل بالانبثاق. ونحن نعلم أنّ هناك فرقاً بين الولادة والانبثاق لكننا نجهل كيفيّته. وإننا نعلم أيضاً بأنّ ولادة الابن وانبثاق الروح القدس من الآب كانا معاً.

اختصاصات الأقانيم: - إذاً كل ما كان للابن والروح، كان لهما من الآب، حتى الوجود نفسه. ولو لم يكن الآب، لما كان الابن ولا كان الروح. ولو لم يكن للآب شيءٌ، لما كان أيضاً شيءٌ للابن ولا للروح. وبسبب الآب كان للابن والروح كل ما لهما - أي بسبب أنّ للآب هذه كلَّها - ما عدا اللاولادة والولادة والانبثاق. فبهذه الاختصاصات الأقنوميّة وحدها يتميّز أحد الأقانيم الثلاثة القدّوسة عن الآخَرَيْن. ويتميّزون بلا انقسام في الجوهر، بل ذلك بميزة الأقنوم الخاص.

لا تركيب في الثالوث: - ونقول إنّ لكلٍّ من الثلاثة أقنومَه الكامل، لئلا نوهم بأنهم طبيعة واحدة كاملة مركّبة من ثلاثة غير كاملين، ونقول أيضاً إنّ في الأقانيم الثلاثة الكاملين جوهراً بسيطاً واحداً فائقَ الكمال وقبل الكمال. لأنّ كلّ مجموعة من غير كاملين تكون حتماً مركّبة، ولا يمكن إيجاد مركَّبٍ من ثلاثة أقانيم. لذلك فإننا لا نتكلّم عن نوعهم إنه من أقانيم بل إنه في أقانيم. وقد سمّيناها ناقصة تلك الأشياء التي لا تحتفظ بنوع الصنع المصنوع منها. فالحجر والخشب والحديد، كلٌّ منها كامل بذاته في طبيعته الخاصة. امّا بالنظر إلى البيت المصنوع منها، فكلٌّ منها ناقص، لأنّ كلاًّ منها ليس في ذاته بيتاً.

كيف الثلاثة إله واحد: - وعليه إننا نقول بأن الأقانيم كاملون لئلا نفكّر بتركيب في الطبيعة الإلهية. فالتركيب بدءُ التقسيم. ونقول أيضاً إنّ كلاًّ من الأقانيم الثلاثة هو في الآخر، لئلا نصير إلى كثرة وجمهرة من الآلهة. لذلك نقرّ بعدم تركيب الأقانيم الثلاثة وبعدم اختلاطهم، ولذلك أيضاً نعترف بتساوي الأقانيم في الجوهر وبأن كلَّ واحد منهم هو في الآخر وبأنها هي هي مشيئتهم وفعلهم وقوّتهم وسلطتهم وحركتهم - إذا صحَّ التعبير، وبأنهم إله واحد غير منقسم. فإنّ الله واحد حقاً، وهو الله وكلمته وروحه.

في التمييز بين الأقانيم الثلاثة. – والفرق بين النظر بالفعل والنظر بالنطق والتفكير: – واعلمْ أنّ النظر بالفعل غيرُ النظر بالنطق والفكر. وعليه يتّضح لنا تمييز الأفراد بالفعل في جميع المخلوقات، لأن بطرس يبدو منفصلاً بالفعل عن بولس. أمّا ما هو فيهما مشتركٌ ومتجانس وواحد، فلسنا نشاهده إلاّ بالمنطق والتفكير. فنفكّر في عقلنا أنّ بطرس وبولس من طبيعة هي هي نفسها وأنّ لهما طبيعةً مشتركة. فكل منهما حيوان ناطق ومائت، وكلٌّ منهما تُحيي جسدَه نفسٌ ناطقة وعاقلة. أما الطبيعة المشتركة فتشاهَد بالمنطق، لأن الأفراد ليسوا بعضهم في بعضٍ، ولكلّ فرد – في ما يختصّ به – نفور من غيره، أي يبتعد بذاته في الكثير مما يميّزه من غيره. فهم أيضاً ينفصلون في المكان ويختلفون في الزمان وينقسمون في الرأي والقوّة والشكل أي الهيئة والبنية والطبع والحجم والسيرة وسائر الميزات الخاصة، – وأكثر الكلّ – في أنهم ليسوا بعضهم في بعضٍ، بل إنّ كيانهم منفصل انفصالاً تاماً. ومن ثم يُقال رجلان وثلاثة رجال ورجال كثيرون.

لذلك نقول بطبيعةٍ إلهيّة واحدة وبأقانيمٍ ثالوثٍ لا ينقسم وبرجوع الابن والروح إلى مبدإٍ واحد: – هذا هو الذي نراه في الخليقة كلها. أما الثالوث القدوس الفائق الجوهر الذي يعمّ جلالُه الكلّ وغيرُ المدرَك فهو بعكس ذلك. فإنّ ما يُرى هنالك بالفعل إنما هو الشركة والوحدة بسبب التساوي في الأزلية ووحدة الجوهر والفعل والمشيئة واتفاق الرأي والسلطة والقوّة ووحدة هويّة الصلاح. وإني لست أقول بتشابه، بل بوحدة هوية، ووحدة انطلاق الحركة. فالجوهر واحد والصلاح واحد والقوّة واحدة والمشيئة واحدة والفعل واحد والسلطة واحدة، بل هي واحدة وهي هي نفسها، لا ثلاثة أمثال بعضهم في بعض، بل حركة واحدة وهي هي في الأقانيم الثلاثة. فلكلٍّ منهم، بالنسبة لغيره، ليس أقلّ مما له بالنسبة لنفسه، أي أنّ الآب والابن والروح القدس واحدٌ في كل شيء، ما عدا اللاولادة والولادة والانبثاق. وهذا التمييز يكون بفعل التفكير، فنعرف الله واحداً، ونعرف في وحدة خواصّه الأبوّة والبنوّة والانبثاق. ونفهم الفرق على حسب العلّة والمعلول وكمال كل أقنوم، أي طريقة وجوده. فلسنا نستطيع القول بانفصال مكانيّ – كما هو عندنا – في اللاهوت غير المحدود، لأنّ الأقانيم هم بعضهم في بعضٍ، لا على طريقة الاختلاط، بل التواجد، على نحو قول الربّ القائل: «أنا في الآب... والآب فيّ»[٢٣]. ولسنا نقول باختلاف في

(٢٣) يوحنّا ١٤: ١١

الإرادة أو الرأي أو الفعل أو القوّة أو أي شيء آخر ، الأمر الذي يُحدِث الانقسام الفعلي الذي فينا في كلّ شيء . لذلك لا نقول بآلهة ثلاثة ، آب وابن وروح قدس ، بل بالأحرى بإله واحد ، الثالوث القدّوس ، مرجع الابن والروح فيه إلى علّة واحدة بدون تركيب ولا اختلاط – ذلك ضد هرطقة صابيليوس – ، فإنهم متّحدون ، كما قلنا ، لا للاختلاط بل للتواجد بعضهم في بعضٍ ونفوذ أحدهم في الآخرين بدون امتزاج ولا تشويش ، ولا انفصال ولا انقسام – ذلك ضد هرطقة آريوس – . وإذا وجب الاختصار نقول : إنّ اللاهوت لا يمكن أن يُقسم إلى أقسام ، وهو على نحو ما يصير في ثلاثة شموس متواجدة بعضها في بعضٍ وهي لا تنفصل ، فيكون مزيج النور واحداً والإضاءة واحدة . إذاً عندما ننظر إلى اللاهوت ، على أنه العلّة الأولى ، والرئاسة الواحدة ، والواحد ، وحركة اللاهوت ومشيئته الواحدة – إذا صحّ القول – ، وقوّة الجوهر وفعله وسيادته ذاتها ، فالذي يتصوّر في ذهننا هو الواحد . امّا عندما ننظر إلى مَنْ فيهم اللاهوت أو – بعبارة أدقّ – إلى مَن هم اللاهوت ، لا سيمَا إلى الصادرَيْنِ من العلّة الأولى بلا زمن والمساويَين لها في المجد وعدم الانفصال – وأعني الابن والروح – فالمسجود لهم ثلاثة : الآب آبٌ واحد وهو لا مبدأ له – أي لا علّة له – لأنه ليس من أحد . والابن ابنٌ واحد وهو ليس بلا مبدإٍ – أي بلا علّة – وهو من الآب . وإذا اعتبرتَ البدء انطلاقاً من الزمن ، فالابن لا بدءَ له ، لأنه صانع الأزمان وهو ليس تحت الزمن . والروح القدس روح واحد صادر من الآب وذلك ليس بالولادة بل بالانبثاق ، لأنّ الآب لم ينفكّ أن يكون غير مولود – فإنّه قد وَلَد الابنَ – والابن لم ينفكّ أن يكون مولوداً – لأنه وُلد من غير المولود – ، فكيف إذاً؟ والروح القدس لا يستحيل إلى الآب أو إلى الابن ، لأنه منبثقٌ ولأنه إله . فإنّ خاصّته لا تتحرّك ، وإلاّ كيف تبقى خاصّة إذا تحرّكت واستحالت؟ فإذا صار الآب ابناً ، فلا يكون آباً بالحقيقة – لأن الآب واحدٌ حقاً – . وإذا صار الابن آباً ، فلا يكون ابناً بالحقيقة ، لأنّ الابن واحد حقاً . والروح القدس واحد .

واعلم أننا لا نقول بأنّ الآب من أحد ، بل نقول انه أبو ابنه ، ولا نقول إنّ الابن علّة أو آب ، بل نقول إنه من الآب وإنه ابن الآب . ونقول أيضاً إن الروح القدس من الآب ونُسمِّيه روحَ الآب . ولا نقول إنّ الروح القدس من الابن ، ونسمّيه روح الابن . يقول

الرسول الإلهي : «إن كان أحد ليس فيه روح المسيح فهو ليس منه»[٢٤] . ونعترف أنَّ الابنَ يُظهره و يمنحه لنا ، فقد قال : «نفخَ في تلاميذه وقال لهم : خذوا الروح القدس»[٢٥] . فكما أنّ الشعاع والإشراق من الشمس – وهي ينبوع الشعاع والإشراق – كذلك يمنح لنا إشراقه بواسطة الشعاع ، فينيرنا به ويكون متعتَنا . ولسنا نقول بأن الابن ابن الروح ولا إنه من الروح .

(٢٤) رومة ٨ : ٩ (٢٥) يوحنّا ٢٠ : ٢٢

المقولات في الله

إنّ الإله بسيط ولا تركيب فيه. والمركّب هو المؤلّف من أشياء مختلفة. وعليه إذا قلنا في الله إنه غير مخلوق ولا بدء له ولا جسميّ وغير مائت وأبديّ وصالح وخالق وما شاكل ذلك، فإننا نجعل فيه اختلافات جوهرية – لأنّ المؤلّف من هذه كلّها لا يكون إلهاً بسيطاً، بل مركّباً – وهذا أقصى الكفر. – وعليه يجب أن نعتبر كلاً من المقولات في الله لا يشير إلى ما هو من جوهره تعالى، ولا يدلّ على شيء من ذلك، بل هو حالة تتعلّق بما يتميّز عنه، أو هو شيء من توابع طبيعته أو هو فعَلَه.

«الكائن» هو اسم الله الأكثر اختصاصاً: – يتضح إذاً أنّ أبلغَ الأسماء المقولة في الله إنما هو «الكائن»، كما أوحاه الله نفسه لموسى على الجبل قائلاً: «قل لبني اسرائيل: الكائن أرسلني»[٢٦]، فإنه بذلك يجمع في ذاته الوجود كله، على مثال بحر من الجوهر لا يُعرف له عمق ولا حدّ. أما على نحو ما يقول القديس ديونيسيوس، فهو «الصالح» لأنه لا يقال في الله إنه موجود أولاً، ثم إنه صالح.

والاسم الثاني هو الله: ὁ θεός، المشتقّ من كلمة θέειν، ركض وامتدّ وأحاط بالكلّ، أو من كلمة αἴθειν، أحرَقَ، لأن الله نار تُحرق كل الشرور، أو من كلمة θεᾶσθαι، شاهـدَ الكلّ، لأنه لا يغفل عن شيء ويُلقي نظره على الكلّ، فيشاهد كل شيء قبل وجوده، مفكرّاً بتجريد عن الزمن في كل فرد أيضاً، بحسب فكره المريد خارجاً عن الزمن، الذي هو تحديد سابق وصورة ومثال يتحقّق في الوقت الذي سبق تحديدُه.

وعليه إنَّ الاسمَ الأول «الكائن» تعبيرٌ عن الوجود وعن ماهيّة الوجود. أمّا الثاني «الله» فهو تعبير عن الفعل. والأسماء: لا بدء له ولا يبلى وغير مصنوع أو غير مخلوق ولا جسم له ولا يُرى وما شاكلها تدلّ على ما ليس هو أي على أنه لم يبدأ وجوده ولا يَفنى ولم يُخلق وليس له جسد ولا يُرى. وتدلّ الأسماء صالحٌ وصدّيق وبار وما ماثلها على ملحقات الطبيعة، لا على الجوهر نفسه. وتدلّ الأسماء ربٌّ وملك وما ماثلها على حالةِ مَنْ يتميّزون عنه. فهو سيِّد من يسود عليهم وملك من يتملّك عليهم وخالق من خلقهم وراعي من يرعاهم.

---

(٢٦) خروج ٣: ١٤

في الاتحاد والتمييز الإلهيين

وعليه يجب أن نرتضي بهذه التعابير كلّها شاملة اللاهوت ككلّ، هي هي، بسيطة، كاملة، إتحاديّة. أمّا التمييز فيكون في الآب والابن والروح، وفي غير المعلول والمعلول، وفي غير المولود والمولود والمنبثق، فإنّ هذه لا تدلّ على الجوهر، بل على نسبة أحدهم إلى الآخر، وعلى كيفيّة وجودهم.

إذاً، إذا عرفنا هذه الصفات وتوصّلنا بها إلى الجوهر الإلهي، فلا نكون قد أدركنا الجوهر نفسه، بل ما هو حول الجوهر، كما أننا لو عرفنا أنّ النفس لا جسد لها ولا كميّة ولا شكل، فلا نكون قد عرفنا جوهرها، كما لا نكون قد عرفنا جوهر الجسد من معرفتنا انه أبيض أو أسود، بل ما هو حول الجوهر. والكلام الصادق يعلّمنا أنّ الإله بسيطٌ وأنّ له فعلاً بسيطاً واحداً وهو صالح وفاعل الكلّ في الكلّ، على مثال شعاع الشمس الذي يرسل حرارته إلى الكلّ، ويفعل في كل الأشياء على حسب منفعتها الطبيعيّة ومقدرتها على القبول، لأنّ الله الخالق قد منحه هذه القوّة الفاعلة.

يُستثنى من ذلك كل ما يتعلّق بتجسّد الكلمة الإلهي حبًّا بالبشر، لأنَّ الآب والروح لم يشتركا فيه بشيء سوى بالرضى، وبالأعجوبة الفائقة الوصف التي عملها الله الكلمة إذ صار إنساناً مثلنا، وهو الإله الذي لا يتغيّر وابن الله.

في الصفات الجسمانيّة المقولة في الله

ولمّا كنّا نرى، في الكتاب الإلهي، الكثيرَ من المقولات ترمز إلى الله بصورة جسميّة أكثر منها روحيّة، فيجب أن نعلم، نحن البشر لابسي هذا الجسد الكثيف، أنه لا يمكننا أن نفهمَ أفعال اللاهوت الإلهيّة، السامية، اللاماديّة، ولا أن نعبّر عنها إلاّ إذا استعملنا الصوَر والأمثال والرموز المختصّة بنا. وعليه كلّ ما يُقال في الله بصورة جسميّة إنما يقال بصورة رمزيّة، ومعناه أسمى من ذلك، لأنَّ الإله بسيطٌ ولا شكلَ له. إذاً يُراد بعينَي الله وجفنَيه ونظره قوّته المشرفة على الكلّ ومعرفته التي لا خفيَّ أمامها، ذلك لما يحصل لنا من أكمل المعرفة واليقين بواسطة هذه الحاسّة. ويُراد بأذنيه وسمعِه تعطّفَه واستجابةَ سؤلنا، لأننا نحن أيضاً – بواسطة هذه الحاسّة نفسها – نؤخذ بالعاطفة فنُصبح أكثر استعداداً لنميل بأُذننا نحو من يتوسّلون إلينا. ويُراد بفمه وكلامه إعلان مشيئته، لأننا نحن أيضاً نُدلي بالفم والكلام عن مكنونات صدورنا. ويُراد بالأكل والشرب إسراعنا إلى تتميم مشيئته، لأننا بواسطة حاسّة الذوق نلبّي شهوة الطبيعة الضروريّة. ويُراد بشمّه إعلانُ فكرنا إليه. وعلى مثال حاسّة الشمّ نفسها عندنا يحصل قبول رائحة فكرنا العطرة لديه. ويُراد بوجهه إعلانه تعالى وظهورُه بأفعاله، كما يتمّ ظهورنا من وجهنا. ويُراد بيديه فاعليّتُه في عمله، لأننا نحن أيضاً ننجز بأيدينا نفسها أفيدَ أعمالنا وأكثرَها كرامة. ويُراد بيمينه إغاثتَنا في الصالحات، لأننا نحن أيضاً نستعين بيميننا، خاصة في الأعمال الأكثر شرفاً وكرامة والمتطلّبة قوةً أعظم من غيرها. ويُراد بلمسه فحصُه أدقَّ صغائر الأمور وما خفي منها وطلبُ الحساب عنها، لأنّ الأشياء التي نلمسها نحن لا يمكنها أن تَخفَى علينا. ويُراد برجليه ومشيه، مساعدةُ المحتاجين أو ردُّ الأعداء أو أيُّ عمل آخر يقتضي مجيئاً وحضوراً، لأننا نحن أيضاً ننتقل بواسطة رجلينا للمجيء. ويُراد بالحلف ثبات عزمه، لأننا نحن أيضاً نُثبت بالحلف عهودَ بعضنا مع بعض. ويُراد بغضبه وغيظه، بغضُه الشرَّ ونفوره منه، لأننا نحن أيضاً نبغض ما يضادُّ رأينا فنغضب. ويُراد بنسيانه ونومه ونعاسه، تأجيله الانتقام من الأعداء وابطاؤه في منح الإغاثة الاعتياديّة لأخصّائه. وباختصار الكلام، إنّ كلَّ ما يُقال في الله بطريقة جسميّة يتضمّن فكرةً خفيّة تُرشدنا ممّا فينا إلى ما يفوقنا. عدا ما يُقال عن مجيء الله الكلمة بالجسد، فإنه هو نفسه قد اتخذ – لأجل خلاصنا – الإنسان كلّه، نفسه العاقلة وجسده وخصائص طبيعته البشريّة، الآلام الطبيعيّة البريئة من اللوم.

في الموضوع نفسه

وعليه لقد تعلَّمنا من الأقوال المقدّسة – كما يقول ديونيسيوس الأريوباجي الإلهي – أنّ الله علّةُ الكلّ ومبدأُهم. فهو جوهرُ الكائنات وحياة الأحياء ونطق الناطقين وعقل الكائنات العاقلة. وهو أيضاً استدعاءُ الساقطين عنه وإنهاضُهم وتجديدُ ما أفسدوه في طبيعتهم وتحويلُه. وهو أقدس توطيدٍ للمتحرّكين باضطراب ذميم، وثباتُ الصامدين، وطريقُ المقبِلين إليه ودليلُهم الأمين. وأُضيف أنه أيضاً أبٌ للذين صنعهم، لأنّ الله أحقُّ بأن يكون أبانا – وقد أخرجنا من العدم إلى الوجود – من والدينا الذين نالوا منه الوجود والمقدرة على الولادة. وهو راعي تابعيه الذين يرعاهم، وضياءُ المستنيرين ومبدأُ كمال الكاملين ومبدأُ تأليه المؤلَّهين وسلامُ المتباعدين وبساطة البسطاء واتحاد المتّحدين. وهو يجلّ بجوهره على كلّ مبدإٍ، لأنه مبدأُ كل مبدإٍ وعطاءٌ صالحٌ لكل أحد، على قدر ما هو حقّ وممكن من خفايا معرفته.

في مكان الله وفي أنّ الله وحده غير محدود

المكان الجسماني : – المكان جسماني وهو نهاية الفضاء الواسع حيث يوسع الموسوع. مثلاً إنّ الهواء يتّسع للجسم والجسم يوسع فيه. وليس كل الهواء الواسع مكان الجسم الموسوع بل هي حدود الهواء الواسع التي تمسّ الموسوع. وذلك حتماً، لأن الواسع ليس في الموسوع.

المكان العقلاني. – ليس الله في مكان. – مكان الله يفوق الطبيعة : – وهناك مكانٌ عقلانيّ فيه تُعقل الطبيعة العقليّة اللاجسميّة، وفيه توجد وتَعمل. لكنها لا تُوسعُ اتساعاً جسمياً، بل عقليًّا. فليس لها جسم لكي توسَع اتساعاً جسمياً. فإنّ الله إذاً – الذي هو لاماديّ وغيرُ محدود – هو أيضاً ليس في مكان، بل هو مكان لذاته، وهو يملأ الكل وهو فوق الكل وهو نافذٌ في الكلّ. ويُقال بأنه تعالى في مكان، ويقال مكان الله حيث يكون فعلُه فيه واضحاً. وهو ينفذ بذاته في الكلّ دون اختلاط ويُشركُ الجميع بفعله نفسه، كلاًّ على حسب طاقته واستيعاب قوّته – أي على حسب طهارته الطبيعية والطوعيّة. فإنّ ما كان منها خالياً من المادّة أطهرُ من الماديّات، وما كان منها تُمارَسُ فيه الفضيلة أطهرُ من التي هي تحت نِير الشرّ. إذاً إنّ ما يدعى مكان الله هو ذاك الذي له نصيبٌ أوفر في فعله تعالى ونعمته. لذلك «فالسماء عرش له»[٢٧] – لأنّ فيها الملائكة يتمّمون مشيئته ويمجّدونه على الدوام –. و«الأرضُ موطئُ قدمَيه»[٢٨] – لأنه «تراءى عليها بالجسد وتردّد بين البشر» –[٢٩]. وتطلَق تسمية «رِجل الله» على جسده المقدّس. ويُقال للكنيسة أيضاً مكان الله لأنها مخصّصة لتمجيده، كأنها قطاعٌ فرَزْناه لنُقيم فيه ابتهالاتنا إليه. كذلك أيضاً الأمكنة التي يتمّ فيها فعلُ الله ظاهراً – بجسدٍ أو بلا جسد – تسمّى أمكنة الله.

ويجب أن نعلم أنّ الإله لا يتجزّأ، لأنّه كلّه كائنٌ في كل مكان، وليس موزّعاً كالأجساد جزءاً في جزء، بل كلّه في جميعها وكلّه فوق جميعها.

في مكان الملائكة والنفس. وفي ما لا يمكن حصره وما يمكن حصره : – الملاك لا يُحصر في مكان حصراً جسمانيًّا لكي يمكن تمثيلُه بصورة أو بشكل. ومع ذلك يُقال إنه في

---

(٢٧) اشعيا ٦٦ :١ (٢٨) أشعيا ٦٦ :١ (٢٩) باروك ٣ :٣٨

مكان ، لحضوره حضوراً عقلانياً وفعله بحسب طبيعته . وهو لا يوجد إلاّ حيث يُحصر حصراً عقلانياً ، ومن ثمَّ يفعل أيضاً . وانه لا يستطيع أن يفعل في آنٍ واحد في أمكنة مختلفة ، لأنَّ الله وحده يعمل في كل مكان في آنٍ واحد ، إلاَّ أنّ الملاك - لسرعة طبيعته - ينتقل انتقالاً فجائياً أي سريعاً ، فيعمل في أمكنةٍ مختلفة . لكنّ الإله الكائن في كل مكان وفوق الجميع ، يفعل في الوقت نفسه أفعالاً مختلفة بفعل واحد بسيط .

أمّا النفسُ فترتبطُ كلُّها بالجسد كلّه - لا جزءٌ في جزءٍ - ولا يستولي عليها الجسد ، بل هي تستولي عليه ، مثلها مثل النار والحديد . لمَّا تكون فيه تفعل أفعالها الخاصة .

- المحدود ما كان محصوراً في مكانٍ أو زمانٍ أو إدراك . أمّا غير المحدود فهو ما لا يخضع لهذه الأقسام الثلاثة .

وعليه إنّ الإله وحده غير محدود ، لأنه لا بدءَ له ولا نهاية ، وهو يُحيط بالجميع ، ولا يمكن أيَّ إدراك الإحاطةُ به . فهو وحده لا يُدرك ولا يُرى ولا أحد يعرفه ، وهو وحده قادرٌ على مشاهدة ذاته . أمّا الملاك فهو محدود في الزمان ، لأنه ابتدأ أن يكون ، وفي المكان ، ولو عقلانياً ، كما سبق وقلنا ، وفي الإدراك أيضاً . لأنَّ الملائكة يعرفُ بعضهم طبيعة بعض كيف هي ، على حسب ما حدّد الخالق كمال هذه المعرفة . والأجسام أيضاً محدودة في بدئها ونهايتها ومكانها الجسميّ وإدراكها .

في الله الآب ، وفي الابن ، وفي الروح القدس . - وفي الكلمة والروح : - إنّ الإله إذاً لا يتحوّل البتة ولا يتغيّر . وقد سبق وحدّدَ بسابق معرفته كلّ ما هو ليس في مقدورنا ، كلاًّ على حسب ما يخصُّه ويليق به من زمان ومكان . و بمقتضى ذلك ، «إن الله لا يدين أحداً ، بل أعطى الحكم كلّه للابن»[٣٠] . ومن الواضح أنّ الآب قد دان ، والابن كذلك لكونه إلهاً ، والروح القدس أيضاً . غير أن الابن نفسه قد أتى بالجسد كإنسان ، ويجلس على عرش المجد - والمجيءُ والعرشُ من شأن الجسد المحدود - فيدين المسكونة كلّها بالعدل .

- كلّ الكائنات بعيدة عن الله ، لا بالمكان بل بالطبيعة . والتمييُز والحكمة والرأي - من حيث هي حالاتٌ فينا - تحضر وتغيب . لكنّها غير هذا عند الله ، فلديه تعالى ليس ما يحضر ويغيب . وهو لا يتحوّل ولا يتغيّر ، ومن الممتنع الكلام عن عارض في الله . والصلاح

(٣٠) يوحنّا ٥ : ٢٢

حليفُ جوهره ، فمَن يبتغيه دائماً ، ذاك هو الذي يجده . لأنَّ الله في الجميع ، والكائنات منوطة بالكائن ، وليس من وجودٍ إلاّ وقد نال وجوده في الكائن ، لأنَّ الله يستمرّ في الكل ، من حيث هو حافظ الطبيعة . أمّا الكلمة فقد اتحد بجسده المقدّس في أقنومه وخالط جبلتنا دون امتزاج . لا يرى الآب أحدٌ سوى الابن والروح (٣١) .

– الابن مشيئة الآب وحكمته وقوته . وينبغي ألاَّ نقول بصفةٍ في الله لئلا نجعل فيه تركيباً من جوهر وصفة .

– الابن من الآب . وكلّ ما لذاك هو لهذا . لذلك لا يستطيع الابن أن يعمل من ذاته شيئاً (٣٢) ، لأنّ ليس له فعل خاص به يتميّز عن فعل الآب .

– نعرف من نظام الكون وسياسته أن الله الذي لا يُرى بطبيعته يُرى بأعماله (٣٣) .

– الابن صورة الآب ، وصورة الابن الروحُ الذي به يسكن المسيح في الإنسان فيمنحه أن يكون على صورة الله .

– إنّ الروح القدس الله ، وهو وسطُ اللامولود والمولود ومرتبطٌ إلى الآب بالابن . ويُدعى روح الله وروح المسيح وعقل المسيح وروح الربّ والربَّ نفسه وروح البنوّة الإلهيّة وروح الحق والحريّة والحكمة . – وهو يصنع هذه كلها أيضاً – . وهو يملأ الكلّ بجوهره ويستحوذ على الكلّ . يمدُّ العالم بالجوهر ولا يتّسع العالم لقوّته .

– الله جوهر أزليٌّ لا يتغيّر ، صانع الكائنات ، ويُسجَد له بدافع من منطق التقوى .

– الآب الله وهو كائنٌ دوماً بلا ولادة ، لأنه لم يلده أحدٌ وهو والدُ الإبن ولادةً أزليّة . والإبنُ الله وهو كائنٌ دوماً مع الآب مولوداً منه بلا زمن ومنذُ الأزل ، بلا سيلان ولا انفعال ولا انفصال . والروح القدس الله وهو قوّة تقديس وقيّومٌ ومنبثقٌ من الآب بلا انفصال ومستريحٌ في الابن ، ومساوٍ للآب والابن في الجوهر .

– الكلمة حاضرٌ دوماً للآب حضوراً جوهريًّا . والكلمة أيضاً حركة العقل الطبيعيّة التي بموجبها يتحرّك ويعقل ويفكّر . وهي له بمثابة النور والشعاع . وتكون الكلمة أيضاً داخليّة متكلّمة في القلب . وتكون أيضاً الفكرة المرسَلة . وعليه إنّ الله الكلمة ذو جوهر وأقنوم ، أمّا الكلمات الثلاث الأخرى فهي قوى النفس . ومن ثمَّ لا تُعتبر أنها في أقنوم خاص بها ، لأنّ

(٣١) راجع يوحنّا ٦ : ٤٦ (٣٢) راجع يوحنّا ٥ : ٣٠ (٣٣) راجع الحكمة ١٣ : ١ – ٥

الأولى منها وليدةُ العقل الطبيعيّة ، نابعةٌ منه نبعاً طبيعيًّا . والثانية يُقال لها الداخليّة ، والثالثة هي الخارجية .

إنّ للروح معانيَ مختلفة ، فهو الروح القدس – ويقال أيضاً لقوى الروح القدس أرواحاً . والروح أيضاً هو الملاك الصالح ، والشيطان أيضاً روحٌ ، والنفس روحٌ ، وقد يُدعى العقل أيضاً روحاً . والريحُ روحٌ أيضاً والهواءُ روحٌ .

ميزات الطبيعة الإلهية

هي غير مخلوقة ، لا مبدأ لها ، لا تموت ، لا تُحصى ، أبديَّة ، لاماديّة ، صالحة ، خالقة ، عادلة ، مُنيرة ، لا تتحوّل ، لا تنفعل ، لا يُحاط بها ، لا تُوسع ، لا تُحدّ ، غير محدودة ، لا تُرى ، لا يستوعبها الفكر ، لا ينقصها شيء ، لها قوّتها وسلطتها من ذاتها ، قديرة ، محييّةٌ ، كاملةُ القوّة ولا حدَّ لقوّتها ، تُقدّس وتمنح ذاتها ، تحيط بالكلّ وتضمّ الكلّ وتعتني بالكلّ ، وكلّ هذه الميزات وما شاكلها هي لها من طبيعتها وليست مستجلَبَة من غيرها ، بل هي نفسها تمنحُ مبروءاتها كل صلاح على قدر استيعاب كلّ منها .

بقاء الأقانيم أحدهم في الآخر ودوامهم - إنهم لا يفترقون ولا ينفصلون أحدهم عن الآخر ، لأنّ لهم في ما بينهم نفوذاً مطبقاً بلا سيلان ، ليس إلى حدّ الاختلاط والامتزاج ، بل حتى يكون أحدُهم في الآخر ، فالابن هو في الآب والروح ، والروح في الآب والابن ، والآب في الابن والروح ، دون أيّ إدغام أو انعجان أو اختلاط . وميزة حركتهم أنها واحدةٌ وهي هي نفسُها ، فإنّ انطلاقة الأقانيم الثلاثة وحركتهم واحدة ، مما لا تمكن رؤيته في الطبيعة المخلوقة .

ولما كان الوحي الإلهي وفعله واحداً وبسيطاً ولا يتجزّأ ويتنوّعُ في التوزيعات بأشكالِ الخيرات الممنوحة للجميع بما تقتضيه طبيعتهم الخاصة ، فهو يبقى بسيطاً ومتكاثراً بلا تجزّؤ في المتجزّئات وجامعاً المتجزّئات ومحوِّلاً إيّاها إلى بساطته نفسها . لأن الكل يبتغيه وينال فيه الكيان . وهو يُعطي الوجودَ الجميع كمقتضى طبيعتهم ، وهو وجودُ الكائنات وحياةُ الأحياء ونطقُ الناطقين وتفكيرُ المفكّرين ، لأنه فوق العقل وفوق النطق وفوق الحياة وفوق الجوهر .

وهو أيضاً ينفذُ في الكلِّ بلا اختلاط ولا ينفذُ شيءٌ فيه . وهو بمعرفته البسيطة يعرفُ الكلّ . وبعينه الإلهيّة الكليّة النظر ، اللاماديّة ، يرى الكل رؤيةً بسيطةً ، الحاضرات والماضيات والمستقبلات ، قبل حدوثها[٣٤] . وهو لا يخطأُ بل يغفر الخطايا ويخلّص . وهو يقدر على كل ما يشاء ، ولكنه لا يشاء كلّ ما يقدر عليه ، لأنه يقدر أن يُزيل العالم ، ولكنه لا يشاء ذلك .

---

(٣٤) دانيال ١٣ : ٤٢

الكتاب الثاني :

المخلوقات



رئيس الملائكة ميخائيل

(إيقونة روسيّة من القرن ١٦)

في الدهر

إنَّ الذي صنع الدهور هو الذي كان قبلَ الدهور. ويقول فيه داود الإلهي: «من الأزل إلى الأبد أنت اللهُ»[1]. ويقول الرسول الإلهي: «وبه أنشأ الدهور»[2].

وعليه يجب أن نعلم أَنّ كلمة «دهر» كثيرةُ المعاني، وهي تشير إلى مسمَّيات كثيرة، فإن حياة كلٍّ من البشر تدعى دهراً، وفترةُ ألف سنة تُدعى أيضاً دهراً. والدهرُ هو العمر الحاضر كلّه، والدهرُ هو ذاك الذي سيأتي بعد القيامة ولا يكونُ له انتهاء. ويُسمّى أيضاً دهراً، لا الزمانُ، ولا قسمٌ من الزمان – يُقاس بانتقال الشمس وجريها أي بقيام الأيّام والليالي – بل ما يمتدّ في الآزال، وهو شبيه بحركة ومسافة زمنيّة. فما كان تحت حكم الزمن هو زمانٌ، وذاك الخاضع للآزال هو دهر.

دهور الحياة الحاضرة السبعة والثامن هو الدهر الآتي: – يقولون إذاً إنَّ لهذا العالم سبعةَ دهور هي من ابتداء خلق السماء والأرض حتى انقراض البشر العام في القيامة. لأن موت كلّ حيٍّ بمفرده إنما هو نهايةٌ جزئيّة. أمّا النهاية الكاملة فتكون عندما تصير قيامة البشر العامة. أمّا الآتي فهو الدهر الثامن.

وقبل قيام الكون، عندما لم تكن شمسٌ تفصل بين نهار وليل، لم يكن دهرٌ يقاس، بل كان تعاقبٌ مستمرّ في الآزال، شبيه بحركة ومدى زمنيّين. وبناء على هذا فهو دهرٌ واحد ومن ثَمَّ يُقال بأن الله دهريٌّ، بل هو قبل الدهر، لأنه صنع الدهر نفسه. ولمّا كان الله وحده لا بدءَ له، فهو هو نفسه صانعُ الدهور كلّها والكائنات بأسرها. وبقولي الله، أعني إلهَنا الواحد الآب وابنه الوحيد الجنس ربّنا يسوع المسيح وروحَه القدّوس.

دهور الدهور. – الحكم على تجديد أوريجنيس: – ويقولون أيضاً بدهور الدهور، على أنّ للعالم الحاضر سبعةَ دهور، تستوعب دهوراً كثيرةً هي أجيالُ البشر، والدهر الواحدُ هو الذي يمتدّ إلى جميع الدهور ويُقال له دهر الدهور، الحاضر والآتي. أمّا الحياة الدهريّة والعقاب الدهريّ فيدلاّن على ما لا ينتهي من الدهر الآتي. لأنه بعد القيامة لا يُعدّ الزمان

---

(١) مزمور ٨٩: ٢ (٢) عبرا ١: ٢

بالأيام والليالي، بل بالأحرى يكون نهارٌ واحدٌ لا مساءَ له، تضيءُ فيه شمس العدل ببهائها للصدّيقين، ويكون للخطأة ليلٌ عميقٌ لا نهاية له. وعليه كيف سيُعدُّ زمن السنوات الألف لإعادة التجديد الأوريجيني؟ إذاً إنّ الله صانعَ الدهور كلِّها واحدٌ وهو خالق الكل لأنه كائنٌ قبل الدهور.

في الخليقة

وعليه إذ كان الله صالحاً وفائق الصلاح ، لم يكتفِ بمشاهدته ذاته ، بل ارتضى بدافعٍ فائقٍ من صلاحه أن يكونَ من يُحسنُ إليهم ويُشركهم بصلاحه ، فأخرج الكلّ من العدم إلى الوجود وخلق ما يُرى وما لا يُرى ، جاعلاً الإنسانَ مركّباً من منظورٍ وغيرِ منظور . إنه تعالى قد خلق بفكره ، وفكرُهُ أضحى عملاً بمؤازرة كلمته ، وكمُلَ بالروح .

في الملائكة

خلقُ الملائكة وطبيعتُهم : – هو الله نفسهُ صانعُ الملائكة وبارئُهم ومُخرجُهم من العدم إلى الوجود. وقد خلقهم على صورته الخاصة ، طبيعةً لاجسميّة ، على مثال ريحٍ ما ونار لاماديّة ، كما يقول داود الإلهي : «الصانع ملائكته رياحاً وخدّامه لهيبَ نار»[٣]. وقد صمّم الله فيهم الخفّةَ والتوقُّدَ والحرارةَ وسرعةَ النفوذ والحدّة في تلبيةِ أوامِره وخدمتِه والتساميَ بذواتهم ونفورَهم من كلّ فكر ماديّ.

الملاك لا جسم له : – ومن ثَمَّ إنَّ الملاك جوهرٌ عقلاني ، دائم الحركة ، مطلقُ الحريّة ، لا جسمَ له ، يخدم الله ويتمتع في طبيعته بنعمة الخلود. أمّا نوع جوهره وتحديده فلا يعرفها إلاَّ الخالق وحده. ويُقال فيه بأنه لاجسميّ ولاماديّ ، ذلك بالنسبة إلينا ، لأنّ كلّ شيء بالمقابلة مع الله – الذي هو وحده ليس من يضاهيه – يبدو كثيفاً وماديًّا. وبالحقيقة إنّ اللاهوت وحده منزَّهٌ عن المادة والجسم.

يتمتع الملاك بحريّة الرأي : – وعليه إنّ طبيعة الملاك ناطقةٌ وعاقلةٌ وحرّةٌ ، متقلّبةُ الرأي ، أي متحوّلة الإرادة ، فإنّ كل مخلوق متحوّلٌ ، وغير المخلوق وحده لا يتحوَّل. وكلٌّ ناطقٍ حرٌّ. فإذاً ، بما أنّ طبيعته ناطقةٌ وعاقلة فهي حرّة ، وبما أنها مخلوقة فهي متحوّلة ، لها المقدرة على البقاء والتقدّم في الصلاح وعلى التحوّل إلى الشرّ.

الملاك غير قابل للتوبة : – إنه غير قابل للتوبة ، لأنّ لا جسد له ، أمّا الإنسان فلسبب ضعف جسده يحظى بالتوبة.

والملاك خالد ، ليس بالطبيعة ، بل بالنعمة : – وهو خالدٌ ، لا بالطبيعة بل بالنعمة. لأنّ كلّ من ابتدأ ، فبموجب طبيعته ينتهي أيضاً. أمّا الله وحده وقد كان دائماً فهو بالأحرى فوق الديمومة ، لأنّ خالق الأزمان ليس هو تحت الزمن بل فوق الزمن.

الملائكة نيِّرات ثانية : – إنّها النيّرات العقلية الثانية تستمدّ إنارتها من النور الأول الذي لا بدءَ له. وهي ليست بحاجة إلى لسان وسمَع ، لكنها تتبادل الأفكار والآراء بدون نطق خارجي.

---

(٣) مزمور ١٠٣ : ٤

وعليه إنَّ الملائكة قد خُلقوا جميعاً بالكلمة وتكمَّلوا بالروح القدس فحصلوا على الإنارة والنعمة طبقاً لكرامتهم ورتبتهم.

الملائكة محدودون: – إنهم لمحدودون، فهم عندما يكونون في السماء لا يكونون على الأرض وإذا أرسلهم الله إلى الأرض لا يبقون في السماء. لكنّ الأسوار والأبواب والأقفال والأختام لا تَحُول دون وجودهم، لأنهم لا يُحصرون. وأقول لا يُحصرون لأنهم لا يظهرون كما هم للمستحقّين الذين يريد الله أن يَظهروا لهم، بل يتّخذون صورةً يستطيع معها الناظرون إليهم أن يروهم. أمّا ذاك الغيرُ المحدود طبعاً وحقيقةً فهو الأحدُ الذي لم يُخلق، لأن كلّ خليقة إنما يحدِّدها الله الخالق نفسه.

إنهم ينالون التقديس من الروح القدس من خارج جوهرهم، ويتنبّأون بمؤازرة النعمة الإلهيّة. ولا يتزوّجون لأنهم لا يموتون.

مكان الملائكة: – ولأنهم عقول، فهم في أمكنة عقلانيّة أيضاً، غيرُ محصورين حصراً جسمانيًّا. ومن اقتضاء طبيعتهم أن لا يكون لهم شكلٌ جسمانيّ ولا أن يمتدّوا في الأنحاء الثلاث، بل أن يحضروا حضوراً عقلانيًّا ويعملوا حيثما يؤمَرون دون أن يستطيعوا في آن واحد أن يكونوا ويعملوا هنا وهنالك.

لا يتّضح أنهم متساوون في الجوهر: – ولسنا نعلم هل هم متساوون في الجوهر أم هم مختلفون بعضهم عن بعض. إن الله وحده الذي صنعهم يعلم هذا، لأنه يعرف كل شيء. وهم يختلف بعضهم عن بعض بالإنارة وبالمقام، لحصولهم على المقام نظراً للإنارة، أو على الإنارة نظراً للمقام. وهم ينيرون بعضهم بعضاً لسموّ رتبتهم أو طبيعتهم، لأنه واضحٌ أنّ المتفوّقين منهم يُشركون مَن هم دونهم بالضياء والمعرفة.

يتولّى الملائكة الشؤون البشريّة: – هم أقوياءُ ومستعدّون لتلبية مشيئة الله. ولسرعة طبيعتهم يوجدون فوراً حيثما تدعوهم إشارة منه تعالى. وهم يحافظون على قطاعات الأرض ويعتنون بالشعوب والمواضع على حسب ما رتّبه لهم الخالق ويسوسون شؤوننا ويُغيثوننا. وهم يقيمون بكليّتهم في حضرة الله لأجلنا تلبيةً لمشيئة الله وأمره.

يصعب تحرّكهم نحو الشرّ: – إنّه لصعب تحرّكهم نحو الشرّ، وليسوا بغير متحرّكين إليه إطلاقاً. وهم لا يتحرّكون إليه الآن، لا من طبيعتهم، بل بالنعمة وبثباتهم في الخير الوحيد.

طعام الملائكة: – هم يرون الله على قدر استطاعتهم. وبهذا يقوم طعامهم. إنهم

يتفوّقون علينا بصفتهم خالين من الجسد ومن كلّ انفعال جسمانيّ. ولكنهم ليسوا بدون انفعال البتّة، لأن الإله وحده لا ينفعل.

ظهورات الملائكة: – وإنّهم يغيّرون شكلهم تلبيةً لما يأْمُرهم به الله سيِّدُهم وعلى هذا النحو يتراءون للبشر ويكشفون لهم الأسرار الإلهية.

هم يعيشون في السماء وعملهم الواحد تسبيح الله وخدمة مشيئته الإلهيّة.

رتب الملائكة: – على نحو ما جاء في أقوال ديونيسيوس الأريوباجي المتفوّق في القداسة والطهارة وعلم اللاهوت، إنّ علم اللاهوت – أو بالحريّ الكتاب المقدّس – يذكر تسعةَ جواهر سماويّة. ويحصرُها صاحبُ الكهنوت الإلهيّ هذا في ثلاث ثلاثيّاتٍ من الرتب، ويقول: إنّ الثلاثي الأول موجودٌ دوماً حول الله مستسلِماً للاتحاد به تعالى عن قرب وبدون وسيط وهم جماعة السيرافيم المسدّسي الأجنحة والكيروبيم الكثيري الأعين والعروش الفائقيّ القداسة، والثلاثيّ الثاني هم جماعة الأرباب والقوّات والسلطات، والثلاثيّ الثالث هم الرئاسات ورؤساءُ الملائكة والملائكة.

متى خلق الله الملائكة: – إذاً يقول بعضهم إنّ الملائكة وُجدُوا قبل الخليقة كلها، على نحو ما قال غريغوريوس اللاهوتيّ: «لقد فكّر الله بالقوّات الملائكيّة والسماويّة، وكان تفكيرُه عملاً». ويقول آخرون إنه تعالى قد خلق الملائكة بعد أن كانت السماء الأولى. ويتفق الجميع على أن ذلك كان قبل جبْل الإنسان. أمّا أنا فأقفُ إلى جانب اللاهوتيّ، لأنه كان يليقُ أن يُخلقَ الجوهر العقلانيّ أولاً، ثم الحسيّ، وأخيراً الإنسان نفسه، من كِلا الجوهرين.

لم يكن الملائكة قط خالِقين: – أمّا أولئك الذين يقولون بأنّ الملائكة صنعوا جوهراً ما، فإنما هم فمُ الشيطان أبيهم، لأن الملائكة خلائقُ وليسوا خالقين. وما صانع الكلّ والمعتني به وحافظُه إلاّ الله وحدَه الذي لم يخلقْه أحدٌ وهو المسجود له والممجّد في الآب والابن والروح القدس.

في إبليس والشياطين

أصل الشياطين من رتبة دنيا من الملائكة. – الشرّ والظلام فقدانُ ما يُضادُّهما، ذلك ضد ماني: – لقد كان الشيطانُ أحدَ تلك القوّات الملائكيّة، وقد نصّبه الله قائماً بحراسة نظام ما حول الأرض والأرض نفسها. لم يكن شريراً من طبيعته، بل كان صالحاً ومخلوقاً على الصلاح، ولم يضعِ الخالقُ في تكوينه أثراً للشرّ البتة. لكنّه لم يحمل الإنارة ولا الكرامة اللتين خصَّهُ الخالق بهما، فحاد بمطلق حريّته عمّا هو من طبيعته إلى ما هو خارج عن طبيعته، فانتصب تجاه الله صانعه مريداً أن يقاومه، فأصبح أول منتقل من الخير إلى الشرّ. والشرُّ إنْ هو إلاّ فقدان الخير كما أنَّ الظلام هو أيضاً فقدان النور. وعلى هذا النحو فالخيرُ نورٌ عقلانيٌّ والشرُّ ظلامٌ عقلانيٌّ. وعليه إنّ صانعه قد خلقه نوراً وكوّنه صالحاً: «ورأى الله جميعَ ما صنعه فإذا هو حسنٌ جداً»[٤]. وقد أصبح الشيطانُ ظلاماً بمطلق إرادته الحرّة، وانجرَّ إليه وتبعه وسقَط معه عددٌ لا يُحصى من الملائكة الخاضعين له. وقد كانوا مع الملائكة ومن طبيعتهم نفسها، فصاروا أشراراً، لأنهم حادوا عن الخير إلى الشرّ بمطلق حريّتهم.

لا يستطيع الشياطينُ شيئاً إلاّ بإذن الله: – وعليه ليس للشياطين سلطةٌ ولا سطوةٌ على أحد، ما لم يَسمحِ الله بذلك سماحاً تدبيريًّا، كما جرى لأيّوب وكما جاء في الإنجيل عن الخنازير. وفي حال سماح الله، فهم يتجبّرون ويتقلّبون ويتحوّلون إلى أيّ شكل أرادوا من وحي مخيلتهم.

وبأيّ صفة يتنبّأ الملائكة عن المستقبلات: – أمّا المستقبلات فلا يعلمها ملائكة الله ولا الشياطين. وهم مع ذلك يتنبّأُون. لكنّ الملائكة، إذا كشفها الله لهم وأمرهم بقولها، فيتمّ كل ما يقولونه. غير أنّ الشياطين يتكلّمون أحياناً عن أشياء صائرةٍ بعيداً، ويختلقون أحياناً الأشياء اختلاقاً. لذلك يكذبون في أمور يجب ألاّ تُصدَّق، ولو كانوا صادقين مراراً كثيرة على نحو ما قلناه. وهم يعرفون الكتب أيضاً.

لا يستطيع الشياطين إكراه الإنسان: – إنَّ الشرورَ والتأثرات الدنِسة كلَّها تصلُ إلى

(٤) تكوين ١ : ٣١

عقولنا من قِبَل الشياطين. وقد سمح الله لهم بتجربة الإنسان، ولكنّهم لا يقوَون على إكراهه، لأن فينا من القوّة أن نقبل التجربة وألاّ نقبلها. لذلك قد أُعدَّتِ النارُ التي لا تُطفأ والعقاب الأبديّ لإبليس وشياطينه وللذين يتبعونه.

على نحو ما هو الموت للإنسان تكون السقطة للملاك: – ويجب أن نعلم أنَّ السقطة للملائكة هي على ما هو الموت للبشر. لأنّ بعد سقطتهم ليس لهم توبةٌ، وكذلك بعد الموت للبشر.

٨٨٠ ● الرأس الخامس ● المقالة التاسعة عشرة

في الخليقة المنظورة

إنَّ الله نفسه الممجَّد في ثالوثه ووحدانيّته «قد صنع السماء والأرض وكلَّ ما فيهما» (٥)، لأنه أخرج من العدم إلى الوجود ما لم يكن من مادّة سابقة الوجود كالسماء والأرض والهواء والنار والماء، وما كان من تلك الموادّ التي كوّنها هو كالحيوان والنبات والبذور. فإنّ هذه قد تكوّنت بأمر الخالق من أرض وماء وهواء ونار.

(٥) مزمور ١٤٥: ٦

في السماء

السماءُ ما يُحيط بالبرايا المنظورة وغير المنظورة. وفي إطارها تتوقّف وتنحصر قوّات الملائكة العقليّين والمحسوسات بأسرها. أمّا الإله فهو وحده غير محدود، لأنه مالئُ الكلّ ومحيطٌ بالكلّ ومحدِّدُ الكلّ، على أنه فوق الكلّ وصانعُ الكلّ.

آراء في طبيعة السماء: – وعليه لمّا كان الكتاب يذكر السماءَ وسماءَ السماء وسماوات السماوات، وأن بولس المغبوط يقول «إنّه اختُطف إلى السماء الثالثة»[٦]، فنقول نحن بأنه – في كلّ بحث وصل إلينا عن تكوين السماء – يُؤتى على ذكر إبداع السماء، فيصفُها الحكماء الذين هم من خارج الدين بكرةٍ خاليةٍ من النجوم، منتحلينَ بذلك آراءَ موسى: «وسمّى الله الجَلَدَ سماء أيضاً»[٧]، وأمرها بأن تكون في وسط المياه بحيث تفصل بين المياه التي فوق الجَلَد والمياه التي تحت الجَلَد. وقال باسيليوس الإلهيّ، مقتبساً تعليمه من الكتاب الإلهيّ، إنّ طبيعة السماء لطيفة كالدخان. وقال غيره بأنها مائيّة لوجودها في وسط المياه. وقال آخرون بأنها من العناصر الأربعة. وقال آخرون أيضاً: بل هي جسم خامس ومختلف عن العناصر الأربعة.

السماء شكلها كرويّ: – وقد ارتأى بعضُهم أنَّ السماء تحيط بالكلّ بشكل دائرة وأنها كرويّة المظهر، وهي نفسها تُكوِّن القسم الأعلى من كل جهة، وتكون النقطة الوسطى من المكان الذي تحيط به قسمَه الأسفل. وإنّ ما كان من الأجسام فارغاً وخفيفاً حظي من قِبَل الخالق على المركز الأعلى، وما كان منها ثقيلاً ومندفعاً إلى الأسفل نال المكان الأدنى، وهو الوسط. فيقولون إذاً إنّ النار – وهي أخفّ العناصر وأكثرها اندفاعاً إلى العلاء – تترتّب حالاً بعد السماء وهي تُسمّى الأَثير. وبعدها الهواء في رتبة أدنى. أمّا الأرض والماء – وهما الأكثر ثقلاً وانحداراً إلى أسفل – فهما معلّقان في الوسط بحيث أنّ الأرض والماء يكونان في الجهة السفلى تجاه الهواء والنار. غير أنّ الماء، لكونه أخفَّ من الأرض، فهو أَسهل حركةً منها ويعلوها في كلّ مكان مثل الرداء وحوله الهواء من كلّ جهة الأثير. أما السماء فهي من خارج حول الجميع.

---

(٦) ٢ كور ١٢: ٢ (٧) تكوين ١: ٨

حركة السماء دوريّة : – ويقولون إنّ السماء تتحرّك تحرّكاً دوريًّا . وبذلك تضغط على ما في داخلها فيبقى جامداً لا يتزعزع .

السيارات السبع وأفلاكها : – ويقولون إنّ أفلاكَ السماء سبعةٌ وإنّ كلّ واحد منها أعلى من الآخر . ويُضيفون أنها كالدخان لخفَّة طبيعتها وإنّ لكلٍّ فلكٍ كوكبه . ويقولون بأنّ الكواكب السيَّارة السبعة هي : الشمس والقمر والمشتري وعطارد والمرِّيخ والزهرة وزُحَل . ويُلاحظون أنّ الزُهرة تكون مرةً كوكب الصبح وأخرى كوكب المساء . وإنّما تدعى هذه سيّارات لأنّ حركتها معاكسة لحركة السماء . فبينما السماء وباقي النجوم تتحرّك من المشارق إلى المغارب ، ترى هذه وحدَها تقوم بحركتها من المغارب إلى المشارق . نعلمُ ذلك من سيرِ القمر الذي يتراجع قليلاً كلّ مساء .

لذلك يقول جميع الذين ارتأوا أن السماء كرويّة بأنّها متساوية البُعد عن الأرض من فوق ومن الأطراف ومن أسفل . وأقول من أسفل ومن الأطراف ذلك بالنسبة إلى شعورنا ، لأنّ السماء – بحسب منطق الاستنتاج – ترتفعُ من كل الجهات إلى المكان الأعلى ، وإنّ الأرض تنخفض إلى المكان الأسفل . ويقولون إنّ السماء تحيط بالأرض على شكل كرةٍ وتحمل معها في دورانها ، في حركة سريعة جداً ، الشمس والقمر والكواكب . ولمّا تكون الشمس فوق الأرض يكون هناك نهارٌ ، ويكون تحت الأرض ليلٌ . ولمّا تصير الشمس تحت الأرض ، يكون هنا ليلٌ وهناك نهار .

يرى بعضُهم أن يُثبتوا أَنَّ السماء ليست كرويّة من كل جهاتها : – وتخيَّلَ آخرون السماء بشكل نصف كرة ، مستندين إلى قول داود الناطق بالإلهيّات : «أنت الباسط السماء كسجف» [٨] أي كخيمة . وإلى قول المغبوط أشعيا : «يبسُطُ السماوات كسُرادق» [٩] ، فقالوا إنَّ الشمس والقمر والكواكب ، عند غروبها ، تدور حول الأرض من المغرب إلى الشمال ثم تظهر من جديد في الشرق . ورغم ذلك ، إنّه لسيّان أن يكون سيرها على هذا أو ذاك النحو . والمهمُّ أنها كلّها قد وُجدتْ بأمر الله وتركَّزتْ وحَصُلتْ على مشيئته تعالى وعزمه أساساً ثابتاً لها . «فإنّه هو قال فكانت وهو أمر فخُلقت . وأقامها إلى الدهر والأبد . جعل لها رَسماً فلا تتعدّاه» [١٠] .

---

(٨) مز ١٠٣ : ٢ (٩) أشعيا ٤٠ : ٢٢ (١٠) مز ١٤٨ : ٥ – ٦

السماوات ثلاث : – إنّ السماء الأولى إذاً هي سماء السماء ، لأنها فوق الجَلَد . ومن ثَمَّ هما سماءان ، لأن الله يُسمّي الجَلَد أيضاً سماء . وقد درجت العادة في الكتاب الإلهيّ أن يُسمّى الهواء أيضاً سماءً ، لأننا نراه فوقنا . وقد قال : «باركي الربّ يا جميع طيور السماء» (١١) ، وهو يتكلّم هنا عن الهواء ، لأن الهواء ، لا السماء ، هو مسلكُ الطيور . وبذلك يتمّ عدد السماوات الثلاث التي يتكلّم عنها الرسول الإلهي (١٢) . وإذا أردتَ أن تفهم الأفلاكَ السبعة على أنها سماوات ، فلا حرجَ البتة على كلام الحقّ . وإنّ من عادة اللغة العبريّة أن تدعو السماء سماوات أيضاً ، بصيغة الجمع . فهي إذاً ، إذا أرادت أن تقول سماءَ السماء ، قالت سماواتِ السماوات ، وتعني بذلك سماءَ السماء التي فوق الجَلَد والمياه التي فوق السماوات أيضاً ، أو فوق الهواء والجَلَد ، أو فوق أفلاك الجَلَد السبعة ، أو فوق الجَلَد ، على حسب عادة اللغة العبريّة التي تستعمل السماوات بصيغة الجمع .

السماواتُ من طبيعتها قابلةٌ الفساد : – وعليه كل ما كان ، في تكوينه ، مبنيًّا على الفساد هو كذلك بمقتضى طبيعته . والسماوات أيضاً هي كذلك . لكنَّ نعمةَ الله تُمسِك بها وتصونها . أمّا الإله فهو وحدَه بطبيعته لا بدءَ له ولا نهاية . لذلك قيل : «هي تزول وأنتَ تبقى» (١٣) . إلاّ أنّ السماوات لا تزول زوالاً تامًّا : «ورأيتُ سماءً جديدة وأرضاً جديدة ، لأنّ السماء الأولى والأرض الأولى قد زالتا . والبحر لم يكن من بعد» (١٤) .

السماء ، بحجمها ، أكبر كثيراً من الأرض . أمّا جوهرها ، فيجب ألاّ نبحث عنه ، لأنّنا لا نستطيع معرفته .

السماواتُ ليست حيّةً : – ولا يَظنَّنَّ أحدٌ أنّ السماوات والكواكب حيّةٌ ، فإن لا حياةَ فيها ولا حسّ . وإذا كان الكتابُ الإلهيّ يقول : «لتفرح السماوات وتبتهج الأرض» (١٥) . فذلك أنه يدعو إلى السرور الملائكةَ الذين في السماء والبشرَ الذين على الأرض . والكتاب يعرف أن يُشخّص الجوامد ويُخاطبها مخاطبته للأحياء إذ يقول : «البحر رأى فهرب . الأردن رجع إلى الوراء» (١٦) ، و «ما لك يا بحر تهرب؟ يا أُردن ترجع إلى الوراء؟» (١٧) . فهنا تسأل الجبال والتلال عن سبب ارتكاضها ، كما اعتدنا نحن أيضاً أن نقول : «التأمتِ

---

(١١) دانيال ٣ : ٨٠ (١٢) ٢ كور ١٢ : ٢ (١٣) مز ١٠١ : ٢٧ (١٤) رؤيا ٢١ : ١

(١٥) مز ٩٥ : ١١ (١٦) مز ١١٣ : ٣ (١٧) مز ١١٣ : ٥

المدينة». ولسنا نريد بذلك الإشارة إلى البيوت نفسها، بل إلى سكّان المدينة. وأيضاً: «السماوات تنطق بمجد الله»[١٨]، لا أنها تُخرج صوتاً تسمعه الآذان الحسيّة، بل هي، نظراً لعظمتها، تُظهر لنا قدرة الخالق. وبتأمّلنا في جمالها، نمجِّد المُبدعَ البارع في صنعه.

(١٨) مز ١٨: ٢

في النور والنار والنيّرين أي الشمس والقمر والكواكب

النار أحد العناصر الأربعة، خفيفة ومندفعة إلى العلاء أكثر من سائر العناصر، محرقةٌ ومنيرة معاً، خلقها الله في اليوم الأول. وقد قال الكتاب الإلهي: «قال الله: ليكن النور فكان النور»[١٩]. وما النار إلا النور، كما يقول بعضهم. ويقول آخرون إنها النار الكونيّة التي فوق الهواء، ويُسمّونها الأثير. إذاً في البدءِ– أي في اليوم الأول – صنع الله النورَ، بهاءَ الخليقة المنظورة كلِّها وزينتَها. لأنك إذا رفعتَ الآنَ النور، فيبقى الكلُّ في الظلام مجهولاً، دون أن يستطيع إظهار بهائه الخاص به: «وسمّى الله النور نهاراً والظلام سمّاه ليلاً»[٢٠]. وليس الظلام جوهراً، بل عرَضٌ، لأنه فقدان النور، أمّا الهواء فليس له أن يكون النور في جوهره. إذاً إنّ الله قد سمَّى ظلاماً ذاك الذي يُفقِدُ الهواء نوره. وليس جوهر الهواء ظلاماً، لكن فقدان النور الذي يَعني عرَضاً أكثر منه جوهراً. ولم يبدأْ بتسمية الليل بل بتسمية النهار. ومن ثمَّ كان النهار أولاً وكان الليل أخيراً. فالليل إذاً تابعٌ للنهار. ومن بدء النهار إلى النهار التالي يكون يوم واحدٌ. فقد قال الكتاب: «وكان مساءٌ وكان صباحٌ يومٌ واحد»[٢١].

النهارُ والليلُ في أيام الخليقة الثلاثة الأولى وفي باقي الأيام: – إذاً في الأيام الثلاثة الأولى، كان النهار وكان الليل في اندفاق النور وفي انسحابه بأمر الله. وفي اليوم الرابع صنع الله النيِّرَ الكبير – أي الشمس – لبدءِ النهار وسيطرته، وبذلك يقوم النهار. والنهار يكون بوجود الشمس فوق الأرض. واستمرار النهار يكون بسير الشمس فوق الأرض من المشرق إلى المغرب. وصنع الله أيضاً النيِّر الأصغر – أي القمر – ثم الكواكب، لبدءِ الليل وسيطرته. والليل هو أن تكون الشمس تحت الأرض. ويكون استمرار الليل بسير الشمس تحت الأرض من المغرب إلى المشرق. وعليه قد جعل القمر والكواكب لإنارة الليل. ولكن ليس لتكون دائماً تحت الأرض في النهار، لأنَّ هناك كواكب في السماء تكون في النهار فوق الأرض، غير أنّ الشمس تحجبها بأشعتها الوهّاجة هي والقمر أيضاً فلا تسمح لها بالظهور.

وقد وضع الله في هذه النيّرات النور المخلوق أولاً، لا لأنه يعجز عن خَلق نور غيره، بل لئلا يبقى هذا النور دون استعمال. لأنّ النيِّر ليس النور نفسه، بل هو مخزنٌ للنور.

---

(١٩) تكوين ١: ٣ (٢٠) تكوين ١: ٥ (٢١) تكوين ١: ٥

السيّارات السبع : – إنّ سبعةً من هذه النيّرات تُسمّى سيّارات ، ويقال بأن حركتها معاكسة لحركة السماء . ولذا فهي تُدعى سيّارات . ويقولون بأنَّ السماء تتحرّك من المشارق إلى المغارب . أما السيّارات فمن المغارب إلى المشارق . وأنّ السماء ، بحركتها الذاتيّة الأشدّ سرعة ، تحمل معها في دورانها السيّارات السبع . وهذه أسماؤها : – الشمس (☉) والقمر (☾) والمشتري (♃) وعطارد (☿) والمريخ (♂) والزُهرة (♀) وزُحل (♄) . وإنّ في كلّ فلك من أفلاك السماء واحدة من السيّارات السبع . فزُحل (♄) في الفلك الأول أو الأعلى ، والمشتري (♃) في الثاني ، والمريخ (♂) في الثالث ، والشمس (☉) في الرابع ، والزُهرة (♀) في الخامس ، وعطارد (☿) في السادس ، والقمر (☾) في السابع والأدنى .

وتسير الكواكب سيراً متواصلاً رسمه لها الخالق ، وكأنّه أسّسها عليه ، على ما يقول داود الإلهيّ : «القمر والكواكب التي أنتَ أسّستها»[٢٢] . ويريد بقوله : «أسستها» الترتيب والارتباط الثابتَين والوثيقَين المغروسَين فيها من قِبَل الله . فقد وضعَها الله لتنظيم الأوقات والعلامات والأيام والسنين .

فصول السنة الأربعة . – كان خَلْقُ العالم في الربيع : – فإنّ بالشمس تقوم الفصول الأربعة . والربيع أوّلها ، لأن الله أبدع فيه الكائنات كلّها . والدليل على ذلك أنّ تفتُّح الزهور يصير فيه حتى الآن . وهو فصل يعتدل فيه النهار والليل ، لأن النهار فيه اثنتا عشرة ساعةً والليل كذلك . قيام الربيع من متوسط مشرق الشمس . وهو معتدل ومنمي الدم ، لأنه حارٌّ ورطب ، وفيه مزيج من الشتاء والصيف . وهو أكثرُ حرارةً ويبوسة من الشتاء وأكثر برودة ورطوبة من الصيف . والربيع يمتدُّ من الحادي والعشرين من آذار إلى الرابع والعشرين من حزيران . ثم يأتي فصل الصيف ، في ارتفاع شروق الشمس إلى النواحي الشماليّة . وهذا وسطٌ بين الربيع والخريف ، له من الربيع الحرارة ومن الخريف اليبوسة ، لأنّه حارّ ويابس . تنمو فيه المرارة الصفراء . نهارُه هو الأطول وساعاتُه خمس عشرة ، وليله هو الأقصر ومدّته تسعُ ساعات . ويمتدّ من الرابع والعشرين من حزيران إلى الخامس والعشرين من شهر أيلول . ثم تصل الشمس من جديد إلى منتصف مشرقها فيتلو الخريفُ فصلَ الصيف وهو في حالة وسط بين البرودة والحرارة ، واليبوسة والرطوبة . وهو يتوسط

---

(٢٢) مز ٨ : ٤

فصل الصيف وفصل الشتاء. له من الصيف اليبوسة ومن الشتاء الرطوبة. ولمّا كان بارداً ويابساً فهو يُنمي المرارة السوداء. وفي هذا الفصل يتساوى أيضاً النهار والليل. ساعاتُه اثنتا عشرة نهاراً وليلاً. وهو يمتد من الخامس والعشرين من أيلول حتى الخامس والعشرين من كانون الأول. ثم تبلغ الشمس مشرقها الجنوبي، وهو الأصغر والأدنى، فيبدأ فصل الشتاء البارد والرطب والوسط بين الخريف والربيع. له من الخريف البرودة ومن الربيع الرطوبة. فيه النهار الأقصر وساعاته تسعٌ، والليل الأطول وساعاته خمس عشرة. وهو يُنمي البلغمَ و يمتدّ من الخامس والعشرين من كانون الأول إلى الحادي والعشرين من آذار. وعليه فقد دبّر المبدع عمله تدبيراً حكيماً ذلك بألاّ ننتقل من أقصى البرد أو الحرارة أو الرطوبة أو اليبوسة إلى أقصاها المعاكس، لئلا نقع في أمراض عضالة، لأن المنطق يعلّمنا أنّ الانتقالات الفجائية خطرة.

وتعمل الشمس إذاً هكذا على تحقيق الفصول التي تكمل بها السنة بأيامها ولياليها، ذلك بوجود الشمس فوق الأرض وبغروبها تحت الأرض و بمنحها الإضاءة لسائر النيِّرات أي القمر والكواكب.

ويقولون أيضاً بأنّ في السماء اثني عشر برجاً من النجوم، حركتها معاكسة لسير الشمس والقمر والسيّارات الأُخر الخمس، وبأَن السيّارات السبع المذكورة تعبُر كلُّها في الأبراج الاثني عشر، وأن الشمس تقضي شهراً واحداً في كل منها، وبأنها تجتاز الاثني عشر برجاً في الأشهر الاثني عشر. وإليك أسماء الأبراج الاثني عشر وأسماء شهورها:

تصل الشمسُ

إلى الحمل	♈	في ٢١ آذار
إلى الثور	♉	في ٢٣ نيسان
إلى الجوزاء	♊	في ٢٤ أيار
إلى السرطان	♋	في ٢٤ حزيران
إلى الأسد	♌	في ٢٥ تموز
إلى العذراء	♍	في ٢٥ آب
إلى الميزان	♎	في ٢٥ أيلول
إلى العقرب	♏	في ٢٥ تشرين الأول
إلى القوس	♐	في ٢٥ تشرين الثاني

إلى الجدي	♑	في ٢٥ كانون الأول
إلى الدلو	♒	في ٢٥ كانون الثاني
إلى الحوت	♓	في ٢٤ شباط

سَير القمر هو الأقصر : - أمّا القمر فيجوز في كل شهر في الأبراج الإثني عشر. ولقربه منها يجتازها بأكثر سرعة ، كما لو جعلتَ كرةً ضمن كرة أخرى لوجدتَ الكرةَ التي في الداخل أصغر من الأخرى. على هذا النحو أيضاً يكون سير القمر الموجود في الفلك الأسفل فهو الأقصر ومن ثمَّ هو الأسرع.

ضد التنجيم : - لذلك يقولُ الإغريق بأن كلَّ شؤوننا تتدبّر بواسطة هذين الكوكبين ، الشمس والقمر ، بشروقها وغروبها وتشابكها. وبهذه الأمور يقوم علمُ التنجيم. أمّا نحن فنقول : بأنها قد تكون علامات مطرٍ أو عدمه ، بَردٍ أو حرّ ، رطوبةٍ أو يبوسة ، أو أهويةٍ وما شاكلها. أمّا أن تكون إشارات إلى أعمالنا فكلاً ، لأنَّ الباريء تعالى قد كوَّننا مطلَقي الحريّة. فأصبحنا أرباب أعمالنا. وإذا كنّا نعملُ أعمالَنا كلّها بدافع من النجوم ، فنكون نعمل عن اضطرار. وما كان عن اضطرارٍ فليس هو بفضيلةٍ أو برذيلة. وإذا لم نقتنِ فضيلة ولا رذيلة ، فلسنا نستحقُّ ثواباً أو عقاباً ، ويكون الله ظالماً إذا منح البعض الخيراتِ وأنزل بالبعض المحنَ ، بل يكونُ الله لا يدبِّرُ مبرؤاته ولا يعتني بها ، إذا كانت كلها منقادةً ومحمولةً إلى العمل عن اضطرار ، ويكون النطقُ فينا دون فائدة ، لأننا إذا لم نكن أقلّه أربابَ عملٍ واحدٍ ، فعبثاً نتبصّر. والحال أنّ النطق قد منحناه الله للتبصّر تبصّراً كاملاً. لذا فكلُّ ناطقٍ مطلقُ الحريّة.

ما نعرفه من النجوم : - ونقول نحن بأنَّ النجوم ليست في شيءٍ من سبب الحوادث أو من ولادة المواليد وتكوينهم أو فساد تكوينهم ، لكنَّها بالأحرى هي علامات الأمطار والتقلّب الجوّي. ونجيبُ بالمثل لمَن يقول بأنها سببُ حروب ، أنها بالحريّ أدلّةٌ عليها. وإنّ حوادث الجوّ تُحدثها الشمس والقمر والنجوم فتُكوّن - في ظروفٍ مختلفة - أمزجةً وملكات وميولاً مختلفة. أمّا الملكات التي هي في حوزتنا ، فتنقاد إلى المنطق وهو يسيّرها إلى ما يليق.

وأحياناً كثيرة تظهر كواكب مذنّبة أو نوعٌ من العلامات تشيرُ إلى موت ملوك. وهي ليست من النجوم المتكوّنة منذ البدء ، لكنّها قائمة بأمر الله إلى حين ، ثم تعود فتنحلّ ، لأنَّ

النجم أيضاً الذي رآه المجوس في ميلاد الربّ لأجلنا حبًّا بخلاص البشر لم يكنْ من النجوم المخلوقة في البدء. والدليل على ذلك أنه كان يسيرُ أحياناً من المشرق إلى المغرب، وأحياناً من الشمال إلى الجنوب. وكان يختفي حيناً ويظهر حيناً آخر، ذلك لأنه لم يكن من الكواكب النظاميّة الطبيعيّة.

لماذا أراد الله أن يستمدَّ القمرُ نوره من الشمس: - واعلمْ أنّ القمر يستمدُّ نورَه من الشمس، لا لأنَّ الله عاجزٌ عن منحه نوراً خاصاً به، بل ذلك كي يقوم الائتلاف والنظام في الخليقة بوجود رئيس ومرؤوس، ونتثقّفُ نحن أيضاً على المبادرة ببذل الذات والعطاء والانقياد، فنخضعُ أولاً للربّ الإله الصانع والجابل، ثم للمترئّسين الذين نحن موضوعون من قبله تعالى تحت ولايتهم، ولا ندقّق في الفحص لماذا هذا هو الرئيس، وامّا أنا فلا، ونتقبّل كل ما يأتينا من الله بشكرٍ ورضى.

سببُ كسوف الشمس وخسوف القمر: - وتنكسفُ الشمس وينخسف القمر ذلك لنُقص ِ ضَلال الذين يسجدون للخليقة دون الخالق ولتثقيفهم على أنّ الشمس والقمر متحوّلان ومتغيّران. وكلُّ متحوّلٍ ليس هو الله، لأن كل متحوّلٍ فاسدٌ من طبيعته.

وتنكسف الشمس عندما يكون جرمُ القمر متوسطاً كحائط ومظلّلاً وحاجباً عنّا النور. وعليه، طالما يستمرّ جرمُ القمر حاجباً الشمس، يبقى الكسوف قائماً. ولا تستغربنَّ ذلك لصغر حجم القمر، فإنّ بعضَهم يقولون إنّ الشمس أكبر كثيراً من الأرض، ويقول الآباء القدّيسون إنها متساوية حجماً مع الأرض، لأنّ أحياناً كثيرة سحابةٌ صغيرة تحجبُها أو تلٌّ صغير أو حائط.

أمّا خسوف القمر فينجم عن ظلّ الأرض، عندما يكون القمر في الخامس عشر من أيامه، وتكون الشمس تحت الأرض والقمر فوق الأرض متعاكسَيْن كلٌّ في قطبه. فترسل الأرض ظلّها ولا يستطيع النور الشمسيّ إنارة القمر. ومن ثمَّ يصيرُ الخسوف.

الأشهرُ القمريةُ والأشهرُ الشمسية. - خلقَ الله القمر بدراً: - واعلمْ أنّ البارئ تعالى قد خلق القمر تامًّا أي في يومه الخامس عشر، لأنه كان يليقُ أن يكونَ كاملَ الصنع. وكما قلناه، قد خلق الشمس في اليوم الرابع. إذاً إنَّ القمر قد سبق الشمس أحد عشرَ يوماً. والفرق بين الرابع والخامس عشر أحد عشر يوماً. لذلك كل سنة تنقُصُ أَشهرُ القمر الاثنا عشر عن أشهر الشمس الإثني عشر أحد عشر يوماً. لأن أيّام السنة الشمسية ثلاثمائة

وخمسة وستون يوماً وربع ، لذلك يُجمع الربع في السنوات الأربع ليكتمل نهار واحد ويسمّى كبيساً . وتكون أيام تلك السنة ثلاثمائة وستة وستين . أما أيام السنة القمرية فثلاثمائة وأربعة وخمسون . والقمر – منذ مولده أي تجديده – ينمو إلى أن يبلغ الرابع عشر ونصفاً وربعاً ، ثم يبدأ ينقص إلى أن يبلغ اليوم التاسع والعشرين ونصفاً وربعاً ويصير بلا ضياء بتاتاً . ثم يعود فيقترن بالشمس فيولد ويتجدد حاملاً بذلك تذكار قيامتنا . وإنه إذاً يعطي الشمس ، كل سنة ، الأحد عشر يوماً الإضافية ، ومن ثم يتجمّع شهرٌ إضافيٌّ لدى اليهود كل فترة ثلا ث سنوات وتصبح تلك السنة ثلاثة عشر شهراً ، حصيلة الأحد عشر يوماً المتكررة .

وإنه لواضح أن الشمس والقمر والكواكب مركّبة ، وأنها من طبيعتها عرضةٌ للفساد . أما طبيعتها فلا نعرفها . وعليه يزعم بعضُهم أنّ النار لا تكون مضيئة بدون مادةٍ ما . ومن ثمّ هي لا تضيء إذا طُفِئت . ويزعم غيرهم أنها إذا طُفئت تحوّلت إلى هواء .

حركة الأبراج : – تتحرّك الدائرة البرجيّة تحرُّكاً منحرفاً ، مقسوماً إلى اثني عشر قطاعاً ، تسمّى أبراجاً . وفي البرج ثلاث عشرات أو ثلاثون درجة ، وفي الدرجة ستون دقيقة . إذاً تُقسم السماء إلى ثلاثمائة وستين درجة ، مئة وثمانون منها في الشطر الأعلى فوق الأرض ومئة وثمانون تحت الأرض .

بيوت السيّارات

للمرّيخ بيتان الحمل والعقرب ، وللزهرة بيتان الثور والميزان ، ولعطارد بيتان الجوزاء والعذراء ، وللقمر بيت واحد هو السرطان ، وللشمس بيت واحد هو الأسد ، وللمشتري بيتان القوس والحوت ، ولزحل بيتان الجدي والدلو .

علالي السيّارات

عليةُ الشمس الحمل ، وعليةُ القمر الثور ، وعليةُ المشتري السرطان ، وعليةُ عطارد العذراء ، وعليةُ زحل الميزان ، وعليةُ المرّيخ الجدي ، وعليةُ الزهرة الحوت .

حالات القمر

إقتران : – لمّا يكون القمر في الدرجة التي فيها الشمس.

ولادة : – لمّا يبتعد عن الشمس خمس عشرة درجة.

شروق : – لمّا يظهر بشكل هلال، مرتين، ويبتعد عنها ستين درجة.

نصفي : – مرّتين، لمّا يبتعد عنها تسعين درجة.

في ثلاثة أرباعه : – عند ابتعاده عنها مئة وعشرين درجة.

تام في ضوئه : – مرّتين، عند ابتعاده عنها مئة وخمسين درجة.

بدر في تكوينه : – عند ابتعاده عنها مئة وثمانين درجة.

وقد قلنا «مرّتين» أي مرّة في ازدياد ومرّة في تناقص.

ويمرّ القمر في كلّ من الأبراج مدّة يومين ونصف.

في الهواء والرّيح

الهواء عنصر لطيف جداً، رطبٌ وحارّ، أثقل من النار وأخفّ من التراب والماء، يُسبّب التنفّس والتصويت، لا لون له - أي من طبيعته ليس له لون -. هو نقيٌّ وشفّاف ويجتازه النور ويخدم ثلاثاً من حواسّنا: فيه نرى ونسمع ونتنفّس. وهو قابل للحرارة والبرودة، لليبوسة وللرطوبة. واليك جميع اتجاهاته في حركته: إلى فوق وإلى أسفل، إلى الداخل وإلى الخارج، إلى اليمين وإلى اليسار، فضلاً عن حركته اللولبيّة.

الهواء خالٍ من النور: - الهواء من ذاته خالٍ من النور. لكنّه يستنير بالشمس والقمر والكواكب والنار. قال الكتاب: «وكان على وجه الغَمر ظلام»[٢٣]. والقصد من ذلك أنَّ الهواء لا يملك النور من ذاته، بل أنّ جوهره غير جوهر النور.

ما هو الريح؟ - الريح حركة الهواء، وهو انطلاق الهواء من مكان إلى آخر متّخذاً اسمه من مصدر انطلاقه.

مكان الهواء وعدد الرياح: - والمكان أيضاً من الهواء، لأنّ مكان كل جسم ما يحيط بهذا الجسم. وما الذي يحيط بالأجسام إلاّ الهواء؟ - وهناك أمكنة مختلفة يكون منها تحرُّكُ الهواء، ومنها أيضاً تتّخذ الرياح أسماءَها. وعددها كلها اثنتا عشرة. ويقولون إنّ الهواء نار خامدة أو بخار ماء ساخن. ولذا فالهواء حارٌّ من طبيعته الخاصة وهو يبرد بمجاورته للماء وللأرض. ومن ثمّ أجزاؤه السفلى باردةٌ والعليا ساخنة.

---

(٢٣) تكوين ١: ٢

في المياه

وصف الماء. – الغاية من وجود الماء فوق الجَلَد: – والماء أيضاً أحد العناصر الأربعة. صنعه الله حسناً جداً. وهو عنصر رطب وبارد، ثقيل وسهل الانصباب لاندفاعه إلى أسفل. ويذكره الكتاب قائلاً: «وكان على وجه الغمر ظلام، وروح الله يرفّ على وجه المياه»[٢٤]. وما «الغمر» سوى الماء الكثير الذي لا يمكن البشر إدراك آخره. إذاً في البدء كان الماء يغمر الأرض كلها. وصنع الله الجَلَد أولاً يفصل نصف الماء الذي فوق الجَلَد من الماء الذي تحت الجَلَد، وقد تأسّس بالأمر السيّديّ في وسط غمر المياه. ومن ثمّ قال الله: «ليكن الجَلَد فكان». وما السبب في وضع الله ماءً فوق الجَلَد؟ – ذلك لأجل لهيب الشمس والأثيرِ الجزيل الحرارة. فالأثيرُ منتشر حالاً بعد الجَلَد. والشمس مع القمر والكواكب في الجَلَد. فلولا وجود الماء لالتهب الجَلَد من الحرارة.

البحار: – ثم قال الله: «لتجتمعِ المياه إلى موضع واحد»[٢٥]. وبقوله: «موضع واحد» لا يعني أنها تجتمع في مكان واحد، لأنه قال حالاً بعد ذلك: «ومجتمع المياه سمّاه بحاراً»[٢٦]، بل أن تكون المياه بالأحرى منفصلة عن الأرض. وهذا ما يوضحه المنطق. وعليه قد اجتمعت المياه إلى مجتمعاتها وبرزت اليابسة. ومن ثمّ ظهر البحران المحيطان بمصر، لأنّ مصر واقعةٌ بين بحرين. واجتمعت البحار المختلفة، بوجود الجبال والجزر والمنعطفات والموانئ والخلجان المتنوّعة المحيطة بها، والسواحل والشواطىء. – لأنّ الساحل ما كان رمليًّا، والشاطىء ما كان صخريًّا، قريباً من العمق، قعره حالاً في بدئه. – مثال ذلك البحر الذي هو في المشرق المسمّى البحر الهندي، وفي الشمال ذاك المسمّى بحر جرجان، وسائر الموانئ التي اجتمعت.

الأوقيانوس الذي يحيط بالأرض من كل جهة. – سبب ملوحته: – ثم إنّ هناك الأوقيانوس وهو شبيه بنهر يحيط بالأرض كلها، – وعلى ما أظنّ – إنّه هو الذي قال عنه الكتاب الإلهيّ: «وكان نهرٌ يخرج من عدن»[٢٧]، ماؤه سائغ وعذب، ولكنه يصبُّ في البحار، ولاستمراره هناك وبقائه بلا حركة، تمتصّ الشمس على الدوام ما لطُف منه،

---

(٢٤) تكوين ١ : ٢ (٢٥) تكوين ١ : ٩ (٢٦) تكوين ١ : ١٠ (٢٧) تكوين ٢ : ١٠

وكذلك الفغرات الأرضيّة، فيصبح مالحاً. ولذلك تتكوّن السحبُ وتهطلُ الأمطار لتحويله إلى ماءٍ حلو.

أنهرُ الفردوس الأربعة. – ماء الينابيع والبحار. – المياه الساخنة: – ويتشعّب الأوقيانوس إلى أربعة فروع أي أربعة أنهر، اسم أحدها فيشون – أي الجنجيس الهندي – واسم ثانيها جيحون – وهو النيل المنحدر من الحبشة إلى مصر –. واسم الثالث دجلة. واسم الرابع الفرات. وهناك أنهر أخرى كثيرة وعظيمة، بعضها يضيع في البحار وبعضها الآخر يغيب في الأرض. ومن ثم فالأرض كلّها متخلخلة ومثقّبة كأنّ لها عروقاً تتقبّل المياه فتفجّرها إلى ينابيع. إذاً على حسب تكوين الأرض يكون ماءُ الينابيع، لأنّ الماء البحري بمروره في الأرض يصفو ويتنقّى، وعادةً يصبحُ في النتيجة حلواً. أمّا إذا صدف أنّ المكان الذي يتفجّر منه الينبوع مرًّا أو مالحاً، فيكون الماء على ما هي التربة الأرضيّة. وأحياناً كثيرة يكون الماء مضغوطاً عليه ومتفجّراً بقوّة، فيكون ساخناً. ومن ثم تخرج المياه حارّة بطبيعتها.

السمك والطيور: – إذاً في الأرض قد تكوّنت بالأمر الإلهيّ تجويفات حيث اجتمعت المياه في مجتمعاتها. ومن ثمّ تكوّنت الجبال أيضاً. فأصدر الله أمره للماء الأول بإخراج نفسٍ حيّة، لأنه تعالى كان قاصداً في البدء تجديد الإنسان بالماء والروح القدس المرفٍّ فوق المياه. – فإنّ هذا ما قاله باسيليوس الإلهيّ –. وأخرج الماء حيوانات صغاراً وكباراً، حيتاناً وتنانينَ، أسماكاً تسبحُ في المياه وطيوراً ذات أجنحة. فبالطيور إذاً يتمُّ لقاء الماء والأرض والهواء، لأنها قد تكوّنت من المياه وتعيش على الأرض وتطير في الهواء. والماء عنصرٌ حسنٌ جداً، جزيل المنفعة، يُطهّر ليس من الدنس الجسديّ فحسب، بل من الروحيّ أيضاً، إذا اقترن بنعمة الروح.

في الأرض وفي ما هو منها

لا يُعرف أساس الأرض : – الأرض أحد العناصر الأربعة ، يابسة وباردة ، ثقيلة ومتحرّكة ، أخرجها الله من العدم إلى الوجود في اليوم الأول : «في البدء خلق الله السماوات والأرض» (٢٨) ولم يستطع أحدٌ من البشر أن يقول ما هو مركزها ولا ما هي قاعدتُها. فالبعض يقولون بأنه تعالى أسّسها وثبّتها على المياه ، كقول داود الإلهيّ : «الباسط الأرض على المياه» (٢٩) . ويقول غيرهم بأنها تأسّست على الهواء. ويقول آخر : «يعلّق الأرض على العدم» (٣٠) . ويقول أيضاً داود المتكلّم بالإلهيّات ، على لسان الخالق : «إنما أنا واضعُ عمدها» (٣١) ، مسمّياً قوّتها المثبتة عمداً. أمّا قوله : «لأنه على البحار أسّسها» (٣٢) ، فيدلّ على أنّ طبيعة الماء تحيط بالأرض كلها من كل جهة. وعليه ، ولو سلّمنا بأنها مؤسّسة على ذاتها أو على الهواء أو على المياه أو على العدم ، فيجب مع ذلك ألاّ نحيد عن الرأي الصحيح ، بل أن نعترف بأنّ قوّة الخالق تضبط الكلّ وتحفظه معاً.

حالةُ الأرض في بدءِ تكوينها. – كلّ الأحياء وتطويراتها لأجل الإنسان : – في البدء إذاً كما يقول الكتاب الإلهيّ ، كانت الأرض محجوبة تحت المياه ، خاوية خاليةً. وأمر الله فكانت مجتمعات المياه ، وظهرت حينئذٍ الجبال ونالتْ بالأمر الالهيّ زينتَها ، متحلّية بكلّ أنواع الأعشاب والأغراس. ووضع فيها الأمر الإلهيّ قوّة للنموّ وللتغذية والتناسل – أي أن تَلدَ على مثالها – . ورسم الخالق ، فأخرجتْ كل أنواع الحيوانات من زحّافات ووحوش ومواشٍ ، كلّها لاستعمال الإنسان وفائدته ، بعضُها لأَكله كالغزلان والغنم والماعز وما شاكلها. وبعضُها لخدمته ، كالجمال والبقر والخيل والحمير وما شاكلها ، وغيرها لتسليته كالقردة وبعض الطيور كالعقعق والببغاء وما شاكلها. وأخرجت من النبات والأعشاب ما هو مثمر لأَكله وما هو طيّب الرائحة وما هو مزهرٌ أُعطيَ لنا لملذّتنا كالورود وما شاكلها ، وما هو لشفاء أمراضنا ، – لأنه ليس من حيوان ولا نبات إلاّ وقد حباه الله قوّةً تُستعمل لفائدة البشر – . لأن عارفَ كلّ الكائنات قبل وجودها ، والعالِم بأنّ الإنسان سوف يتجاوز

(٢٨) تكوين ١ : ١ (٢٩) مز ١٣٥ : ٦ (٣٠) أيوب ٢٦ : ٧ (٣١) مز ٧٤ : ٤
(٣٢) مز ٢٣ : ٢

حدودَ إرادته الحرّة فيصير في الفساد ، قد خلق الكلّ بغية أن يستفيدَ من استعماله ، ما هو في الجَلَد وما هو على الأرض وما هو في المياه.

كلّ شيء كان مهيّأً للإنسان : – إذاً قبل المعصية كان الكلّ تحت حوزة الإنسان وكان الله قد أقامه متسلّطاً على كل ما في الأرض وما في المياه. وكانت الحيّة أيضاً أليفةَ الإنسان تأتي إليه أكثر من غيرها وتؤانسه بحركاتها المبهجة. لذا قد تمكّن بها إبليس رئيس الشرور من إبلاغ مشورته الشريرة إلى أبوينا الأوّلين. وكانت الأرض تحمل الثمار من ذاتها لمنفعة الحيوانات الخاضعة للإنسان. ولم يكن مطرٌ على الأرض ولا شتاء. أمّا بعد المعصية، فالإنسان قد «ماثل البهائم وتشبّه بها»[٣٣] ، تاركاً الشهوةَ الحيوانيّة تتسلّط على عقله الناطق ، فأضحى متمرّداً على وصيّة الربّ ، وقامت الخليقة بوجه رئيسها الذي كانت خاضعةً له وكان الخالق قد سلّطه عليها. وبعرق جبينه ترتّب عليه أن يحرُث الأرض التي منها أُخذ.

التمرُّدُ عليه بعد سقطته. – الفائدة من الوحوش : – لكنَّ وجودَ الوحوش الآن ليس بلا فائدة ، فهي تُخيف الإنسان وتحمله على معرفة الله صانعه والاستغاثة به. والشوك أيضاً – بعد المعصية ، وبحسب قضاء الربّ – يَنبتُ من الأرض ويقترن بلطافة الورود فيحملنا على التذكّر بمعصيتنا التي سبّبتْ لنا أن تُنبتَ الأرض شوكاً وحسكاً.

وكان أمرُ الله بأن يستمرَّ كلُّ شيء بقوّته الفطريّة : – وعلينا أن نؤمنَ بأنَّ هذه الأمور تجري على هذا النحو منذئذٍ إلى الآن ، وأنها تستمرُّ في عملها تنفيذاً لقول الربّ الذي قاله : «انموا واكثروا واملأوا الأرض»[٣٤].

صورة الأرض وحجمها : – ويقول بعضهم إنّ الأرض كرويّةُ الشكل ، وآخرون إنها بشكل مخروط ، وإنها صغيرةٌ جداً وأقلُّ كثيراً من السماء ، بل إنها شبهُ نقطةٍ معلّقة في وسطها وسوف تزول وتتغيّر. وإنّه لسعيدٌ من حَظِيَ بميراث أرض الودعاء ، فهي خالدةٌ تلك الأرضُ التي سوف تُعطى للقدّيسين. ومَن هو الذي يتعجّب تعجّباً لائقاً بحكمة الخالق التي لا تُحدُّ ولا تُدرك؟ ومن هو الذي يؤدّي الشكرَ اللائق بمانح هذه الخيرات العظيمة؟

---

(٣٣) مز ٤٨ : ١٣ (٣٤) تكوين ١ : ٢٨

في الفردوس

الفردوسُ قصرٌ ملكيّ للإنسان : – ولمّا كان الله عازماً على أن يَجبُل الإنسان من خليقة منظورة وغير منظورة ، على صورته كمثاله ، بمنزلة ملك متسلّط على الأرض كلها وعلى ما فيها ، هيّأ له شبه مملكة ، لو عاش فيها لكانت له حياة سعيدة هنيئة . وما الفردوس الإلهيّ سوى ذاك المغروس بيدَيْ الله في عدن ، وهو خزانة للأفراح والمسرّات . لأنّ عدن تعني النعيم ، وهي موجودة في المشرق في أعلى مكانٍ على الأرض كلها . مناخها طيّب ، وهي تزهو بأَرقّ نسيم وأنقاه ، خصبةٌ بالغروس الدائمة النضارة ، عابقةٌ بالعطور ، مليئةٌ نوراً ، تفوق بهاءً كل ما يخطر على الفكر من حسن وجمال . بقعة إلهيّة حقًّا ، ومنزل يليق بمن هو على صورة الله . ما كان ليحلّ فيه قط أحدُ البهائم ، بل الإنسان وحده ، لأن الأيدي الإلهيّة جبلته .

لماذا غُرِستْ شجرة المعرفة : – وغرسَ الله في الفردوس شجرةَ الحياة وشجرةَ المعرفة [٣٥] . وقد غرس شجرةَ المعرفة تجربةً وامتحاناً واختباراً لطاعة الإنسان ومعصيته . ولذلك سُمّيتْ أيضاً شجرة معرفة الخير والشرّ ، أو ذلك لأنه أعطى المتناولين منها قوّة لمعرفة طبيعتهم الخاصّة ، إنْ صالحة للكاملين ، وإن شرّيرة لغير الكاملين والمنقادين إلى الشهوات – كما هو الطعام القويُّ للأحداث الذين لا يزالون بحاجة إلى اللبن – . فلم يكن يريد الله خالقُنا أن نقلق ونضطرب في أمور كثيرة ، ولا أن نفكّر ونهتمّ في معيشتنا الخاصة . وهذا في الحقيقة ما حلَّ أخيراً بآدم . فلمّا ذاق عرف أنه عريان ، وصنع له مئزراً من ورق التين وائتزر به . وقد كان كلاهما – قبل الأكل – عريانَين ، آدم وحواء ، ولم يخجلا [٣٦] . وقد كان الله يريد أن نكون نحن أيضاً كذلك بدون انفعال ، فإنّ ذلك لدليل على بعد النفْس جدًّا عن الشهوات ، وأن نكونَ بلا هموم ، لنا عملٌ واحد – هو عمل الملائكة – أن نسبّحَ الخالقَ دون انقطاع ولا انتهاء ، وأن نتمتّعَ بمشاهدته ونلقي عليه اهتمامنا . هذا ما أكّده لنا أيضاً بلسان داود النبي قائلاً : «ألقِ على الرب همّك وهو يعولك» [٣٧] ، وعلّمه تلاميذه الأخصّاء في الأناجيل قائلاً : «لا تهتمّوا لأنفسكم بما تأكلون ولا لأجسادكم بما تلبسون» [٣٨] . وأيضاً

(٣٥) راجع تكوين ٢ : ٩ – ١٠
(٣٦) راجع تكوين ٣ : ٧
(٣٧) مز ٥٤ : ٢٧
(٣٨) متى ٦ : ٢٥

«أُطلبوا أولاً ملكوت الله وهذا كلُّه يُزاد لكم»[٣٩]. وقال لمرتا: «مرتا، مرتا، إنك مهتمّة ومضطربة في أمور كثيرة، وإنما الحاجة إلى واحد. فاختارت مريم النصيب الأصلح الذي لا يُنزَع منها»[٤٠]، أعني الجلوسَ عند قدميه واستماع كلامه.

لماذا شجرة الحياة. – الفردوسُ الحسّيّ والفردوس العقلانيّ. – عودُ الحياة وكلُّ عود: – أمّا شجرة الحياة، فكانت شجرةً مفعولها منحُ الحياة، أو شجرة يصحُّ الأكل منها لمستحقّي الحياة وحدهم وغير الخاضعين للموت. لذا قد تخيّل لبعضهم أنّ الفردوس كان حسيًّا، ولآخرين أنه كان عقلانياً ولكنـه يبدو لي أنه – لمّا كان الإنسان قد خُلِقَ حسيًّا وعقلانيًّا، فعلى مثال ذلك كان منزلُه الأقدس – حسيًّا وعقلانيًّا معاً، أي مزدوج المظهر. فإنه، مع عيشه بالجسد في بقعة إلهيّة فائقة الجمال – كما أخبرنا – كان ينعَمُ بالنفس في مكان فائق السموّ والجمال، متّخذاً الله نزيلَه بيتاً له، ومتخّذاً إيّاه رداءً فاخراً ومتوشّحاً بنعمته ومتغذّياً بثمرة مشاهدته الجزيلة الحلاوة وحدها، شأنه شأن الملاك. ومن ثمّ هذا ما يستحق أن يُسمّى شجرة الحياة. فإذا كانت الحياة لا يقطعها الموت، تعود لذّة الشركة الإلهيّة إلى المتمتّعين بها. وهذا ما سمّاه الله «كلَّ شجرة»، قائلاً: «من كلّ شجر الجنة تأكل»[٤١] لأنه هو نفسه «الكلُّ» الذي فيه وبه يقوم كل شيء.

عود المعرفة: – وإنَّ عودَ معرفة الخير والشرّ هو التمييز في الرؤيا المتشعّبة وهو معرفة الطبيعة الذاتيّة نفسها التي هي صالحة للكاملين والثابتين في الرؤيا الإلهيّة، لأنها تُذيع من ذاتها عظمةَ الخالق، وهم لا يخشَوْن الزلل بسبب الزمن الذي قضَوه في ممارسة هذه الرؤيا، وقد صارت لهم عادةً. وهي غير صالحة للذين لا يزالون أحداثاً، مندفعين إلى الشهوات، لعدم ثباتهم في ابتغاء ما هو الأفضل ولعدم تأسيسهم تأسيساً قويًّا على الخير الوحيد، وقد صار اهتمامهم بجسدهم يجذبهم إليه ويستميلهم من كل صوب.

«كلُّ عود»: معرفةُ الله من مبروءاته: – إني لا أزال أعتقد بأنّ الفردوس الإلهي كان مزدوجاً، على الرغم من أن الآباء اللابسي الله، بالحقيقة، قد سلّموا في تعليمهم هذا التقليد أو ذاك، وأنه يمكن أن نفهم «كلّ عود» ما نعرفه عن القوّة الإلهيّة من المخلوقات، على نحو ما يقول الرسول الإلهي: «لأنّ غير منظوراته قد أُبصرَت منذ خُلِقَ العالم إذ أُدركت بالمبروءات»[٤٢]، وأنّ المعرفة المختصّة بنا أي معرفة تكويننا هي أسمى المفاهيم والمنظورات

(٣٩) متّى ٦: ٢٣ (٤٠) لوقا ١٠: ٤١ (٤١) تكوين ٢: ١٦ (٤٢) رومة ١: ٢٠

جميعاً ، كما يقول داود النبي : «قد عَجُبتْ معرفتُك منّي» (٤٣) ، أي من تكويني . وإنّ هذه المعرفة نفسها كانت خطرةً على آدم الحديث التكوين ، للأسباب التي قلناها .

عودُ الحياة تعبيرٌ أيضاً عن الصلاح والطعام الحسيُّ يؤدّي إلى الموت : — ويمكن أن نفهم أيضاً «عودَ الحياة» بأنه تلك الفكرة الإلهيّة المكنونة في جميع المحسوسات والمرتقية منها إلى مصدر الكلّ وعلّته المبدعة . وهذا ما يُسمّى أيضاً «كل شجرة» . وهو لكماله وعدم تجزئته يحمل إلى الاشتراك بالخير الوحيد . أمّا شجرة معرفة الخير والشرّ فتدلّ على الأكل الحسّيّ المسبّب اللذّة ، الذي — ولو تراءى حلواً — يجعل مَن يتناول منه مشتركاً في الشرور ، لأنّ الله يقول : «مِن جميع شجر الجنّة تأكل» (٤٤) . فكأني به يقول : «ارتقِ بواسطة جميع الخلائق إليّ أنا صانعك ، واجنِ منها كلّها ثمرةً واحدةً هي أنا ، الحياة الحقيقيّة ، المثمرة لك كلّ حياة ، واصنع من الاشتراك بي قوامَ وجودك ، لأنك على هذه الصورة تكون خالداً» . «وأمّا شجرة معرفة الخير والشرّ ، فلا تأكل منها . فإنك يوم تأكل منها تموت موتاً» (٤٥) ، لأنه من الطبيعي أنّ الأكل الحسيّ إمتلاءٌ مما يذوي ويؤول إلى الخارج والفساد ، فلا يمكن مَن يشترك في الأكل الحسيّ أن يبقى غيرَ فاسد .

---

(٤٣) مز ١٣٨ : ٦ (٤٤) تكوين ٢ : ١٦ (٤٥) تكوين ٢ : ١٧

في الإنسان

على هذا النحو إذاً قد أوجد الله الجوهر العقلانيّ ، أعني الملائكة وكلَّ رتبهم التي هي في السماء ، لأنه من الواضح حقاً أنّ لهؤلاء طبيعةً عقلانيّةً بدون جسم . وأقول «بدون جسم» بالمقابلة مع كثافة المادّة ، لأنّ الحقيقة أنّ الإله وحده منزَّهٌ عن المادّة والجسم . وقد خلق الله أيضاً السماء والأرض الحسيّتين وكل ما في وسطها . فمن جهة قد خلق الجوهر القريب إليه – لأن الطبيعة العقلية قريبةٌ إليه وهي تُدرك بالعقل – ، ومن جهة أخرى خلقَ الجوهر البعيد منه كلَّ البُعد ، لأنه واقعٌ تحت الحسّ . «وكان يلزم أيضاً أن يكون مزيجٌ من كليهما – وهو دليل على مزيد من الحكمة والسيطرة على الطبائع – ، على رأي غريغوريوس المتكلّم بالإلهيّات ، حتى تكون صلةٌ بين الطبيعة المنظورة والطبيعة غير المنظورة» . وبقولي «يلزم» أعني في النهاية مشيئة المبدع ، لأنها هي الأجدرُ بالأمر والنهي . ولا يقول أحدٌ قط لجابله : «لماذا صنعتني هكذا؟» فللخزّاف أن يصنع من كتلته آنية مختلفة لإظهار حكمته»[٤٦] .

أنّ الله والحالة هذه ، قد صنع الإنسان بيديه من طبيعة منظورة وغير منظورة ، على صورته كمثاله ، فجبل جسمَه من الأرض وأعطاه بنفخته نفْساً ناطقةً وعاقلةً . وهذا ما نسمّيه الصورةَ الإلهيّة . فإنّ لفظة «على صورته» تدلُّ على أنه عاقلٌ وحرٌّ ، ولفظة «كمثاله» تعني مشابهة له بالفضيلة قدرَ المستطاع .

ضلال أوريجينيس المستقي من طيماوس : – وبمقتضى تخرّصات أوريجينيس ، أنّ الجسد والنفس قد أبدعا معاً ، لا هذا أولاً وتلك أخيراً .

مواهبُ الانسان في بدءِ خلقه : – إذاً لقد صنع الله الإنسان خالياً من الشرّ ، مستقيماً فاضلاً ، لا غمَّ له ولا همَّ ، زاهياً بكل فضيلة ، مزداناً بالصالحات كلّها ، تخاله عالَماً ثانياً ، صغيراً في كبير ، ملاكاً آخر معبوداً ، مزيجاً ، ناظراً الخليقة المنظورة ، ومسارَّ الخليقة العقليّة ، ملكَ ما على الأرض ومملوكَ ما في العلى ، أرضيًّا وسماويًّا ، وقتيًّا وخالداً ، منظوراً ومعقولاً ، وسطاً بين العظمة والضِعة ، روحاً وجسداً معاً ، روحاً بالنعمة وجسداً بالأصل ، ذاك ليبقى و يمجِّدَ المبدع ، وهذا ليشقى ، وبشقائه يفطنُ ويرتدع عن الطموح إلى العظمة ،

(٤٦) رومة ٩ : ٢١

هنا – أي في الحياة الحاضرة – حيواناً خاضعاً للتدبير، وهناك، في الدهر الآتي حيث المكافأة، ونهاية السرّ، يتألّه بانقطاعه إلى الله بإشارة رضى منه تعالى. وتألّهه اشتراكٌ في الضياء الإلهيّ، لا انتقالٌ إلى الجوهر الإلهيّ.

الإنسان مخلوقٌ بلا خطيئة وذو إرادة حرّة: – وقد صنع الله الإنسان بلا خطيئة طبعاً، وذا إرادة مطلقة الحريّة. وأقول «بلا خطيئة»، لا أنه منزّهٌ عن الخطيئة، لأنّ الإله وحده منزّهٌ عن الخطأ، بل أن الخطأ لا يأتيه من طبيعته، بل بالأحرى من اختياره. أي له أن يبقى وينموَ في الخير، بمعونة النعمة الإلهيّة، كما له أن يحيدَ عن الخير ويصيرَ في الشرّ، فيبتعد عن الله بمطلق إرادته. فان الفضيلة لا تكون بالإكراه.

في النفس: – وعليه فإنّ النفس جوهرٌ حيّ وبسيط ولاجسميّ. وهي من طبيعتها لا تُرى بالأعين الجسديّة، وهي خالدةٌ وناطقة وعاقلة لا يمكن تصويرها. وهي في حاجة إلى جسم عضويٍّ لتمنحه الحياة والنموّ والحسَّ والتناسل. والعقلُ في النفس لا يتميّز عنها، بل هو جزؤُها الأنقى. والعقل في النفس كالعين في الجسم. وهي مطلقةُ الحرّيّة، مريدة وفاعلة ومتحوّلة، – أي متحوّلة الإرادة لأنها مخلوقة. و بما أنها نالت كل هذا طبعاً بنعمة مبدعها، فقد نالت بهذه النعمة طبعاً الوجود ونوع الوجود.

ليستِ اللاجسميّة على السواء في الجميع: – ونعتبر اللاجسميّين الذي لا يُرَوْن ولا شكل لهم على نوعين. فهم كذلك بجوهرهم أو بالنعمة، وهم كذلك بالطبيعة أو بالنظر إلى كثافة المادّة. فلمّا نقول إذاً في الله إنّه لاجسميّ، فذلك بالطبيعة، ولمّا نقول ذلك في الملائكة أو في الشياطين أو في النفوس، فذلك بالنظر إلى كثافة المادّة.

في الجسد: – والجسمُ ما كان منتشراً في الأنحاء الثلاث أي في الطول وفي العرض وفي العمق أو العلو. ويتركّب الجسد من العناصر الأربعة. أمّا أجسام الحيوانات فمن الأخلاط الأربعة.

الأخلاط الأربعة قريبة بصفاتها من العناصر الأربعة: – واعلمْ أنّ العناصر أربعة: هي الأرض –ويابسة وحارّة – والماءُ – بارد ورطب – والهواءُ – رطب وحارّ – والنارُ – حارّة ويابسة. وبالمثل إنّ الأخلاط أيضاً أربعة وتتناسب مع العناصر الأربعة. وهي المرارة السوداءُ– تتناسب مع الأرض لأنها يابسةٌ وحارة، والبلغم – يتناسب مع الماء لأنه بارد ورطب، والدمُ– يتناسب مع الهواء لأنه رطب وحارّ –، والمرارة الصفراء– تتناسب مع النار لأنها حارّة ويابسة. وعليه فإنّ الثمار تتركّب من العناصر، والأخلاط من الثمار،

وأجسام الحيوانات من الأخلاط ، وتنحلّ إليها . وكل مركّب ينحلُّ إليها .

للإنسان اشتراك مع الجوامد والحيوانات والناطقين : – واعلمْ أنّ الإنسان يشارك الجوامد وينعم بحياة الحيوانات وقد نال تفكير أصحاب النطق . فهو يشارك الجوامد بجسمه وبتكوينه من العناصر الأربعة ، والنبات بهذه نفسها وبقوّة التغذية والنموّ والتناسل أو الولادة ، والحيوانات ، بهذه نفسها أيضاً وبالافراط في الميل أي في الشهوة والغضب ، وفي الحسّ ، وفي الحركة في الاندفاع .

الحواسُّ إذاً خمسٌ وهي النظر والسمع والشمّ والذوق واللمس . وخواصُّ الحركة في الاندفاع . الإنتقال من مكان إلى مكان وحركة الجسم كله والتصويت والتنفُّس . وإننا نستطيع أن نفعل ذلك وأن لا نفعله .

وينتمي الإنسان بنطقه إلى الطبائع اللاجسميّة والعقلانيّة ، لأنه يفكّر ويعقل ويحكُم في الأمور ويسعى وراء الفضائل ويعتنق التقوى ، قِمَّة الفضائل . لذلك فالإنسان عالَمٌ صغير .

اختصاصات النفس والجسد : – واعلمْ أنّ اختصاصات الجسد وحدَه هي القطعُ والسيلان والتبديل . ويكون التبديل في الصفة ، كالتسخين والتبريد وما شاكلها ، ويكون السيلان في الاستفراغات ، باستفراغ اليابسات والرطبات والهواء من الجسم ، ومن ثمّ يحتاج هذا إلى التعويض . لذلك تحدث الانفعالات الطبيعيّة كالجوع والعطش . أمَّا القطعُ فهو ابتعاد الأخلاط بعضُها عن بعضٍ ، فيتمُّ الانفصال إلى صورة ومادّة .

ويختصّ بالنفس التقوى والتفكير . أمَّا الفضائل فهي مشتركةٌ بين النفس والجسد ، ومرجعها إلى النفس ، على أنّ النفسَ تُسيِّر الجسد .

العاقلُ من طبعه التسلُّطُ على غير العاقل . – وقوى النفس خاضعةٌ أو غير خاضعة للعقل : – واعلمْ أنّ العاقل من طبعه أن يتسلّط على غير العاقل ، وأنّ قوى النفس تُقسَم إلى عاقلة وغير عاقلة . فالقوى غير العاقلة قسمان : قسمٌ لا يُصغي إلى العقل أي لا يخضع له ، وقسم يُصغي إلى العقل ويخضع له . والذي لا يُصغي إلى العقل ولا يخضع له هو الحيوانيُّ – ويدعى النبضيّ – والناسل أي المولِّد ، والنباتيّ – ويُدعى الغاذيّ ، وهو يختصّ بإنماء الأجساد وصيانتها . وهذه ليست تحت سيطرة العقل بل الطبيعة . أمّا القوى التي تُصغي إلى العقل وتخضع له فتقسم إلى شهوةٍ وغضب . والقسم غير العاقل من النفس يُدعى عموماً الشهوات والأهواء ، مع العلم أيضاً أنّ الحركة في الاندفاع هي مما يختصُّ بالعقل .

ويختصُّ بالقسم الذي لا يخضع للعقل القوى الغاذية والناسلة والنابضة. فالقوى النامية والغاذية والناسلة تُسمّى نباتيّة. أما القوّة النابضة فتسمّى حيوانيّة.

وللغاذية أربع قوى: - الجاذبةُ - وهي التي تَجذِبُ الطعام -. والماسكة - وهي التي تضبطه ولا تدعه يستفرغ للحال -، والهاضمة - وهي التي تُحوّل الطعامَ إلى أخلاط - والدافعة - وهي التي تستفرغ الفضلة في منفذ الإبراز وتُخرجه.

أنواع القوى الحيوانيّة المختلفة: - واعلمْ أنّ القوى النفسانيّة مختصّةٌ بالحيوان وهي النامية والحيوانيّة. والنفسانيّة هي المنوطة بالاختيار أعني الحركة في الاندفاع والحسّ. ويختصّ بالحركة في الاندفاع كل ما هو انتقالٌ مكانيٌّ وحركة الجسم كله والتصويتُ والتنفّس. فإنّ لنا أن نعمل هذه كلها أو لا نعملَها. أمّا ما لا يتعلق بالاختيار فهو القوى النباتيّة والحيوانيّة. والنباتيّة هي الغاذية والنامية والناسلة. والحيوانيّة هي النابضة. فإنّ هذه كلها تعمل، شِئنا أم أبيْنا.

الأعمال الصالحةُ والطالحة: - واعلمْ أنّ الأعمال منها ما هو صالح ومنها ما هو طالح. فالذي يُظَنُّ أنه صالحٌ يجلب الارتياحَ علاوةً على اللذة. والذي يُظنُّ أنه طالحٌ يجلبُ الخوفَ علاوةً على الغمّ. واعلمْ أننا هنا بقولنا «صالح» نعني ما هو صالحٌ في الحقيقة أو في الظاهر. وكذلك «الطالح».

في اللذّات

التمييز بين اللذّات : - من اللذّات ما هو نفسانيّ ومنها ما هو جسدانيّ. واللذّات النفسانيّة هي تلك المختصّة بالنفس ذاتها وفي ذاتها، كتلك المتعلّقة بالعلوم وبالتأمّل العقلانيّ. والجسدانيّة ما كان بالاشتراك بين النفس والجسد. ولذلك يُنسَبُ للجسد كل ما يتعلّق بالطعام والعلاقة الجنسيّة وما شاكلها. ولا يمكن إيجاد فكرةٍ ما عن لذّة تتعلّق بالجسد وحده.

ومن اللذّات أيضاً ما هو حقيقيٌّ وما هو كاذبٌ، ومنها ما يتعلق بالذهن وحدَه كالعِلم والتأمّل العقلانيّ، ومنها ما يشتركُ مع الجسد والحسّ. واللذّات التي يشترك فيها الجسد منها طبيعيّة وضروريّة معاً، وبدونها لا يمكن العيش، كالأطعمة التي تَسدُّ الحاجة والألبسة الضروريّة. ومنها ما هو طبيعيّ ولكنّه غير ضروريّ، كالعلاقة الجنسيّة بمقتضى الطبيعة والشريعة، فهي تتمُّ لبقاء الجنس كلّه وبدونها يمكن العيش في البتوليّة. وتكون اللذّات غير ضروريّة وغير طبيعيّة، كالسُّكر والعهارة والإفراط في الأكل - وهي لا تتمّ لقيام حياتنا ولا لدوام الجنس، بل بالعكس تكون بالأحرى لضررنا. وعليه ينبغي لمن يعيش في رضى الله أن يسعى وراء ما هو منها ضروريٌّ وطبيعيٌّ معاً. وأن يجعل ما هو طبيعي وغير ضروري في الرتبة الثانية. وليَصِرْ ذلك بمقتضى الظرف والحال والاعتدال. أمّا ما هو سوى ذلك فيجب الامتناع عنه تماماً.

مقياس صلاح اللذّة : - وينبغي أن نحسب اللذّات صالحةً تلك التي لا يتخلّلها غمٌّ، ولا يعقبها ندامةٌ، ولا يتأتّى منها ضررٌ آخر، ولا تتجاوز حد الاعتدال، ولا تصرفُنا طويلاً عن أعمالنا الملحّة وتستعبدُنا.

٩٣٢ المقالة الثامنة والعشرون * الرأس الرابع عشر *

في الحزن

للحزن مظاهر أربعة : – الكآبة والغمّ والحسد والرحمة. فالكآبة الحزن الصامت. والغمُّ الحزن المُضني. والحسد الحزن لنجاح الآخرين. والرحمة الحزن لضرر الآخرين.

٩٣٢ * الرأس الخامس عشر * المقالة التاسعة والعشرون

في الخوف

ويُقسم الخوف إلى ست حالات: الكسل والاستحياء والخجل والفزع والذهول والحذر. وعليه فالكسل هو الخوف من الإتيان بعملٍ. والاستحياء هو الخوف من استجلاب الملامة – وهذه عاطفة حُسنى –.والخجل هو الخوف من جرّاء عمل مشين – وهذه العاطفة ليست لقطع الرجاء من الخلاص –. والفزع هو الخوف من جرّاء مخيّلة واسعة. والذهول هو الخوف من جرّاء مشهد غير مألوف. والحذر هو خوف السقوط أو الخيبة. ومن يخشى الخيبة في عمله يجتهد.

في الغضب

الغضب غليان الدم حول القلب من تبخّر المرارة وتكدّرها. لذلك يسمّى أيضاً «المرّة» والتمرمر. ويصحب الغضب شهوةٌ إلى الانتقام أحياناً. فإننا متى ظُلمنا أو ظننّا أننا مظلومون، نتأثّر ويكون ألمنا خليطاً من شهوة وغضب.

وللغضب ثلاثة مظاهر هي الحنق ويسمّى المرّة والتمرمر. والغيظ والضغينة. وللغضب بدءٌ وحركةٌ ويُقال لها حنقٌ ومرّة وتمرمر، ثم يصبح غيظاً μῆνις. وهو المرّة الثابتة أعني التذكُّر بالشرّ. ولفظه مشتقٌّ من الثبات τό μένειν، ويستمرٌّ في الذاكرة. والضغينة هي الغضب المترصّد فرصةً للانتقام ويُسمّى κότος لاشتقاقه من لفظة τό κεῖσθαι اضطجع.

والغضب خَفَرٌ للمنطق ومنتقمٌ للشهوة. لأننا عندما نرغب في أمر ويصدّنا عنه آخر، نثور كمظلومين، إذا حكَمَ المنطق أنَّ ما حدث يستوجب استياءَنا وكنّا ممن يحافظون على مقامهم الطبيعي.

في المخيّلة

المخيّلة قوة النفس اللاناطقة وهي تتأثّر بالحواس ويُقال لها الإحساس. أمّا المخيَّل والمحسوس فهو ما كان واقعاً تحت المخيّلة والإحساس، على مثال النظر الذي هو القوّة الناظرة نفسها، والمنظور ما يقع تحت النظر كالحجر مثلاً أو ما شاكله. والتخيُّل تأثير النفس اللاناطقة من جراء مخيّل ما. والخيال تأثير نفسيّ فارغ في النفوس اللاناطقة من جرّاء مُخيَّل ما. أما عضو المخيِّلة فجوف الدماغ الأماميّ.

في الحس

الحسُّ قوةٌ في النفس من شأنها تفهُّمُ الموادِّ أي تمييزها. والحواسّ هي الأعضاء أو الآلات التي نحسُّ بها. والمحسوسات ما يقع تحت الحسّ. والحسَّاس هو الحيّ المتمتّع بالحسّ. وأنواع الحسّ خمسة، وبالمِثْل الحواسُّ خمس.

الحسُّ الأول هو النظر. - وآلاتُ حسّهِ وأعضاء النظر هي الأعصاب الصادرة من الدماغ مع العينين. ويشعر النظر، باديءَ ذي بدءٍ، باللون، ثم انطلاقاً من اللون يُميِّز الجسمَ الملوَّن وحجمَه وشكلَه والمكانَ الذي هو فيه ومسافةَ بُعده وعددَه وحركتَه وسكونَه وخشونتَه ونعومتَه، واستواءَه وعدمَ استوائه، وحدّتَه وتثلّمَه، وهل سطحه مائيّ أم أرضيّ، وهل أرضه رطبة أم يابسة.

الحسّ الثاني هو السمع. - وهو يشعر بالأصوات والضجّات. فيميّز حدّتها وثقلها، نعومتها وضخامتها. أما أعضاؤه فهي أعصاب الدماغ اللطيفة وجهاز الأُذنين. والإنسان والقرد وحدهما لا تتحرّك آذانهما.

الحسّ الثالث هو الشمّ. - وهو الذي يصير بإصعاد الروائح عبر المنخرين إلى الدماغ، فتبلغ إلى حدود تجويفات الدماغ الأماميّة. وهي الحاسّة التي تشعر بالروائح. وأهمُّ اختصاصاتها تمييز الروائح طيّبها وكريهها وما يتوسّط بينهما مما ليس طيّباً ولا كريهاً. فإذا تمَّ للرطوبات التي هي في الأجسام أن تنضجَ، كانت الرائحة الطيّبة، وفي الحالة الوسطى، كانت الوسطى، واذا نقص النضوج كثيراً أو فُقدَ تماماً كانت الرائحة الكريهة.

الحسّ الرابع هو الذوق. - وهو إدراك الطعوم أو الإحساس بها. وأعضاؤه اللسان، ولا سيّمَا أوّله، وسقف الفمّ. وفيهما تمتدّ الأعصاب الصادرة من الدماغ، فتوصل ما تدركه من إحساس إلى مرجعها. أمّا صفات الأخلاط الطعميّة فهي هذه: - الحلاوة والحموضة والحَمازة والحَرافة والحرارة والملوحة والمرارة والدهنيّة واللزوجة. والذوق هو تمييز هذه الطعوم. أمّا الماء فهو خالٍ من هذه الصفات كلّها وليس فيه البتّة شيء منها. وما الحَرافة إلاّ شدّة الحرارة وكثرتها.

والحسّ الخامس هو اللمس. - وهو شائعٌ أيضاً بين جميع الحيوانات. وهو صادر من

الدماغ إلى الجسم كلّه بامتداد الأعصاب. لذلك فإنّ اللمس في الجسم كله، بل في الحواس الأخرى أيضاً. ويخضع للّمس الحارّ والبارد، الليّن والصلب، اللّزج والمشقّق، الخفيف والثقيل، لأن هذه تُعرف باللمس وحده. أمّا المشترك بين اللمس والنظر فهو الخشن والناعم، اليابس والرطب، الغليظ والدقيق، العلويّ والسفليّ، المكان والحجم لما يتمُّ لهذا أن يحصر الملموس بقبضة واحدة، الكثيف والدقيق أي الرقيق، والمدوّر إذا كان صغيراً، وأشكال أخرى. وعلى هذا النحو نحسّ باقتراب الجسم ذلك بمؤازرة الذاكرة والذهن معاً، وكذلك أيضاً نحسّ بالعدد حتى الاثنين أو الثلاثة، شريطة صغر أحجام الأشياء وسهولة قبضها. ويُدرك النظر هذه الأمور أكثر من اللمس.

واعلمْ أنّ الخالق قد هيّأ لكلٍّ من الحواسّ الأخرى عضوين، حتى إذا فقد أحدهما قام الآخر مقامه. فإنّ لنا عينين اثنتين وأنفاً مزدوج المجرى، ولساناً مزدوجاً — غير أنه منفصل لدى بعض الحيوانات، كالحيّات، ومتّصل لدى البعض الآخر، كالإنسان. واللمس منتشر في الجسم كله، ما عدا العظام والأعصاب والأظافر والقرون والشعر والروابط وما ماثلها.

واعلمْ أنّ النظر يرى ما يقع أمامه مواجهة، والشمّ والسمع يحسّان — لا بما هو تجاهها وحسب — بل بما هو في كلّ الجهات. أمّا اللمس والذوق فيشعران — لا بما هو تجاهها ولا بما هو في كل الجهات —، بل بمحسوساتهما الملتصقة بهما وحدهما.

٩٣٧ * الرأس التاسع عشر * المقالة الثالثة والثلاثون

في التفكير

ومن التفكير الحكم والقبول والاندفاع إلى العمل والكفّ عنه والهرب منه. ويخصّه فهم المفاهيم والفضائل والمعارف وأصول الفنون والمشورة والاختيار، فضلاً عمّا هو فينا، عبر الأحلام، يتنبّأ عن المستقبل الذي يعتبره البيثاغوريّون بأنّه التكهّن الوحيد الحقيقيّ. وقد تبِعهم في ذلك العبرانيّون. أمّا عضوه فهو التجويف الأوسط من الدماغ والروح النفساني الذي هو فيه.

في الذاكرة

تحديد الذاكرة : – الذاكرة من الذِكر وهي علّة التذكّر ومخزنه . والذِكر صورة مطبوعة في الحسّ والفكر تظهر بالفعل أو هي حفظٌ للحسّ والفكر معاً . فإنّ النفْس ، بواسطة حواسّها من جهة ، تنطبع فيها إحساسات أي يصير إحساس ويتكوّن مظهر ، ثم بواسطة العقل من جهة أخرى ، يصير تفكير . إذاً عندما تحفظ النفسُ رسوم ما قد ظهر لها وما قد فهمته يقال بأنّها تتذكره .

كيف تتكوّن الذاكرة : – واعلمْ أنّ فهم المعقولات لا يكون إلاّ بالتعليم أو بالتفكير الطبيعيّ ، وليس ذلك من الإحساس ، لأنّنا نتذكّر المحسوسات كما هي . أما المعقولات فما نتعلّمه منها نذكره . وليس لنا ذكر لجوهرها .

ما هو التذكّر : – والتذكّر عبارة عن إعادة ذكر أضاعه النسيان . والنسيان فقدان الذكر . وعليه فإنّ المخيّلة ، وهي تنطبع بإحساسات الموادّ ، تسلّمها لقوة التمييز أو المنطق ، وكلاهما واحد . ثم تتسلّمها هذه القوّة وتمحّصها وترسلها إلى الذاكرة . وعضو الذاكرة تجويف الدماغ الخلفي المسمّى المُخيخ . وفيه الروح النفسانيّة .

٩٤٠ * الرأس الحادي والعشرون * المقالة الخامسة والثلاثون

في الكلمة الداخليّة والكلمة الخارجيّة

ثم يقسم النطق في النفس إلى كلام داخليّ وخارجيّ. فإنّ الكلام الداخليَّ حركة النفس الصائرة في القوّة التفكيريّة بدون صوت البتة. ومن ثمّ كثيراً ما – ونحن صامتون – ننطلق في ذواتنا بحديث بأسره، ونتحدّث في الأحلام. ولهذا نحن بالأكثر كلُّنا ناطقون. وإنَّ البُكمَ منذ مولدهم أيضاً أو الذين فقدوا صوتَهم لمرضٍ أو عارضٍ ما ليسوا بأقلّ نطقاً في شيء. أمّا الكلام الخارجي فيكون في الصوت وفي المحادثات أي هو الكلام الملفوظ باللسان والفم. لذلك يُدعى أيضاً خارجيًّا، وهو رسول الفكر. وبسبب ذلك ندعى نحن ناطقين.

٩٤٠ - ٩٤٩ * الرأس الثاني والعشرون * المقالة السادسة والثلاثون

في الانفعال والفعل

الانفعال كلمةٌ مبهمة: - للانفعال معانٍ مختلفة، فإن الانفعال يكون جسدانيًّا كالأمراض والجروح ويكون نفسانيًّا كالشهوة والغضب. وانفعال الحيوان هو الذي - عموماً وأصلاً - يتبعه لذّةٌ ووجع. والوجع يتبع الانفعال، والانفعال نفسه ليس وجعاً. فإنّ الجوامد تنفعل دون أن تتوجّع. إذاً ليس الانفعال توجّعاً، بل الشعور بالانفعال. ويجب أن يكون هذا الانفعال جديراً بالاعتبار أي كبيراً كي يخضع للحسّ.

ما هو انفعال النفس: - وهذا هو حدُّ الانفعالات النفسانيّة: الانفعال حركة للقوّة الشاهيّة حسيّة تجاه صورة خير أو شرّ. وبتعبير آخر، الانفعال حركة للنفس لانطقيّة ابتغاء خير أو شرّ. فإنّ ابتغاء الخير إذاً يُحرّك الشهوة وابتغاء الشرّ يحرّك النفور. أمّا الانفعال الأصيل أي العام فهو هذا: - الانفعال حركة في شيء من شيء آخر. والفعل حركة فاعلة. والفاعل هو المتحرّك من ذاته. والنفور حركة النافر. ويكون الانفعال في قسمي النفس وفي الجسم كله أيضاً، عندما ينقاد بقوّة النفور إلى الأعمال. فإنّ الحركة تصير من واحد في آخر، وهذا يسمّى انفعالاً.

الحركة نفسها انفعالٌ وفعلٌ: - وبتعبير آخر، يسمّى الفعل انفعالاً، ذلك لأنّ الفعل حركة بحسب الطبيعة والانفعال حركة ضدّ الطبيعة. وبهذا المعنى أيضاً يُسمّى الفعل انفعالاً، ذلك عندما لا يتحرّك بحسب الطبيعة إمّا من ذاته وإمّا من غيره. وعليه، بما أنّ حركة القلب بالنبضات طبيعيّة فهي فعلٌ، وبما أن حركته بالخفقان ليست موزونةً ومن ثمّ هي غير طبيعيّة، فهي انفعالٌ، لا فعل.

ليس كل حركة المنفعل يُسمّى انفعالاً، بل أشدُّها الذي يبلغ إلى الحسّ. فإن الصغيرة منها والتي لا تخضع للحسّ ليست انفعالاتٍ بالمرّة. ويجب أن يكون أيضاً للانفعال الحجم الجدير بالاعتبار. لذلك يضاف إلى تحديد الانفعال: حركة **محسوسة** والحركات الصغرى التي تتناسى الحسّ لا تكوّن انفعالاً.

قوى النفس المزدوجة، العارفة منها والناشطة: - إعلمْ أنّ لنفسنا قوى مزدوجة: منها عارفة ومنها ناشطة. فالعارفة منها هي العقل والتمييز والظنّ والمخيّلة والحسّ. أمّا الناشطة أو

الراغبة فهي الإرادة والاختيار. وزيادة في الإيضاح، ندقّق في معانيهما مبتدئين بالقوى العارفة.

إذاً لقد قيل الكافي في ما تقدّم في المخيّلة والحسّ. وعليه يقوم الانفعال في النفس بواسطة الحسّ ويُدعى مخيّلة، ومن المخيّلة ينجم الظنّ. ثم ينظر التمييز في الظنّ هل هو صادق أم كاذب فيختار الصادق. ولذا فالتمييز مشتقّ من ميَّزَ واختار. إذاً فإنَّ المميِّزَ والمحدِّدَ يُسمّى عقلاً.

ومن جهة أخرى، إعلمْ أنّ حركة العقل الأولى تدعى تفكيراً. وما يقع عليه التفكير يدعى فكراً. وهذا إذا استمرَّ وانطبع في النفس لتفهّمه يسمّى تأملاً. والتأمّل إذا طال وجال في ذاته وفحص النفس للتفهّم يسمّى تبصّراً. والتبصّر إذا امتدّ أصبح نقاشاً، اسمه الكلام الباطني. ويقولون في تحديده إنه كمال حركة النفس في تفكيرها الخالي من صوت خارجي، ويقولون إنّ منه يصدر الكلام الخارجيّ المعبَّر عنه باللسان. هذا وقد تكلّمنا في القوى العارفة، فلننتقل أيضاً بالكلام إلى القوى الناشطة أيّ الراغبة.

القوى الراغبة. – تحديد الإرادة: – إعلمْ أنْ قد زُرعت في النفس طبيعيًّا قوةٌ راغبة في ما هو بحسب طبيعة الكائن، وهي مجهَّزة تجهيزاً جوهريًّا لكلّ ما يؤول بالنفع على الطبيعة، وتسمّى إرادة. فإنّ الجوهر يرغب في وجوده وعيشه وحركته بحسب عقله وحسّه، لأنه يميل إلى كمال كيانه الطبيعيّ الخاصّ. لذلك يحدِّدون أيضاً هذه المشيئة الطبيعيّة هكذا: المشيئة ميلٌ نطقيٌّ وحيويٌّ منوطٌ بالأمور الطبيعيّة وحدها. حتى إنّ الإرادة نفسها أي القوّة البسيطة الطبيعيّة هي ميل حيويّ ونطقي إلى جميع مقوّمات الطبيعة. غير أنّ ميل البهائم الذي ليس هو بنطقيّ لا يسمى إرادة.

إرادة شيء ما طبيعيّة: – والإرادة مشيئةٌ ما طبيعيّة أي ميل طبيعي ونطقي إلى عمل ما. لأنّ في نفوس البشر قوةً تميل بهم ميلاً نطقياً. إذاً عندما يتحرّك الميل النطقيّ نفسه تحرّكاً طبيعيًّا إلى عملٍ ما يُقال له إرادة، لأن الإرادة ميلٌ واندفاعٌ نطقيٌّ إلى عملٍ ما.

وتشمل الإرادة ما هو بوسعنا وما هو ليس بوسعنا، أي ما هو ممكن وما هو غير ممكن. لأننا نريد مراراً كثيرة أن نزني أو أن نعفّ أو أن ننام. وهذه هي بوسعنا ممكنة. وإنّنا نريد أيضاً أن نملُكَ، وهذا ليس ممّا هو بوسعنا. وقد نريد أن لا نموت مطلقاً، وهذا من غير الممكنات.

فعل الإرادة هو غايتها وهو موضوع الإرادة : – إنّ إرادة الغاية ليست مما يُؤدّي إلى الغاية . فإنّ المراد إذاً هو الغاية ، كالمُلكِ مثلاً أو الشفاء . أمّا ما يؤدّي إلى الغاية فهو موضوع المشورة أي الطريقة التي ننال بها الشفاء أو المُلك . ثمّ بعد الإرادة البحث والفحص ، وبعد ذلك ، – إذا كان الأمر مما هو بوسعنا – تكون المشورة أو الشور . والشورُ ميلٌ من شأنه أن يبحث في الأمور التي بوسعنا تتميمها ، لأننا نتشاور في هل يجب الإتيانُ بالعمل أم لا . ثم يأتي الحكم في ما هو الأفضل ويُدعى حكماً . ثم يصير التمييز وإيثار ما حكَمَتْ به المشورة ويسمّى رأياً . لأنّه إذا صدر الحكمُ ولم يكن ثمّة تمييز ما صدرَ الحكمُ فيه أي إيثاره ، فلا يُدعى رأياً . ثم بعد التمييز يصير الاختيار أي الانتخاب . فإنّ الاختيار هو تجاه موضوعين اثنين وينتهي باختيار الواحد وإهمال الآخر . ثم يصير العزم على العمل . ثم يُنجزُ ويدعى استعمالاً . ثم يتوقّف العزم بعد الاستعمال .

الإرادة مفقودة في البهائم : – وعليه لدى الحيوانات ، حالما يكون ميلٌ إلى شيء ، يصير العزم على إنجازه . لأنّ ميل البهائم غير نطقي ويُسيّرها العزم الطبيعي . لذلك فإنّ ميل البهائم لا يُسمّى مشيئة ولا إرادة . فالمشيئة ميلٌ طبيعيّ نطقيّ ، والميل الطبيعي لدى البشر الناطقين ينقاد أكثر مما يقود ، لأن الإنسان المتمتّع بالحريّة يتصرّف بقيادة عقله ، بسبب أنّ القوى العقليّة والحيويّة مجتمعة فيه . إذاً هو يميل بحريّة ويريد بحريّة ويبحث بحريّة ويفحص بحريّة ويتشاور بحريّة ويحكم بحريّة ويؤثر بحريّة ويختار بحريّة ويعزم بحريّة ويعمل بحريّة في ما هو بحسب الطبيعة .

في الإرادة الإلهيّة . – في الله إرادة بدون مشورة : – واعلمْ أننا لمّا نتكلّم في إرادة الله لا نقول بأنها تختار اختياراً حقيقيًّا ، لأن الله لا يتشاور . فالتشاور يفترض الجهل . وليس من يتشاور في ما يعرفه . وإذا كانت المشورة دليل الجهل ، فإنّ الاختيار يكون حتماً كذلك . وإنّ الله الذي يعرف كلّ شيءٍ معرفةً بسيطة ، فهو لا يتشاور .

وكذلك في نفس الربّ : – ولسنا نقول باختيار في نفس الرب ، ذلك لأنّ ليس فيها جهل . فإنها ولو كان من طبيعتها أن تجهل المستقبلات ، غير أنها – وقد اتحدت أقنوميًّا بالله الكلمة – فقد كان لها معرفة كل شيء ، ليس بالنعمة ، بل – كما يقال – بسبب اتحادها الأقنومي . فإنّ الأقنوم هو نفسُه كان إلهاً وإنساناً معاً . لذلك فالإرادة عنده لا يتخلّلها رأي . فقد كانت للربّ تلك الإرادة الطبيعيّة البسيطة ، على نحو تلك المشاهَدة في سائر الأقانيم البشريّة . أمّا نفسُه المقدّسة ، فلم يكن لها رأيٌ أو مرادٌ تجاه مشيئته الإلهيّة ولا مشيئةٌ أخرى

ضد مشيئته الإلهيّة. لأنّ الرأي يختلف في الأشخاص، ما عدا في اللاهوت الأقدس البسيط والمنزّه عن التركيب والانفصال. فإنّ الأقانيم هنا — وهم بلا انقسام ولا انفصال قطعاً، — ليس ثمّة انقسام في مرادهم. وهنا أيضاً، بما أنّ طبيعتَهم واحدةٌ، فإنّ مشيئتَهم الطبيعيّة واحدة. ومن حيث أنّ الأقانيم بلا انفصال، فإنّ مرادهم أيضاً واحدٌ وواحدةٌ حركة الأقانيم الثلاثة. أمّا في البشر، فمن حيث أنّ طبيعتهم واحدة، فإنّ مشيئتهم الطبيعيّة واحدة أيضاً. ومن حيث أنّ أشخاصهم مشتّتون ويتميّز بعضهم عن بعض بالمكان والزمان وبوضعهم بالنسبة للأمور، وبأشياء أخرى كثيرة، فلأجل ذلك إنّ مشيئاتهم وآراءهم مختلفةٌ. أمّا في ربّنا يسوع المسيح، فمن حيث أنّ طبيعتَيْه مختلفتان، فإنّ مشيئتَي لاهوته وناسوته الطبيعيّتين مختلفتان وهما قوّتاه الشائيّتان. ومن حيث أنّ أقنومه واحد، فإنّ الذي يشاء واحد، وواحد ما يشاؤه أي إنّ المشيئة ذات الرأي التي يشاؤها ناسوته تتبع حتماً مشيئته الإلهيّة، وهي تشاء ما شاءت أن تشاءه المشيئة الإلهيّة.

واعلمْ أنّ المشيئة شيءٌ والإرادة شيءٌ آخر. وما تشاؤه المشيئة شيءٌ وما تشاؤه الإرادة شيءٌ آخر، والذي يشاء شيءٌ آخر. والمشيئة قوة الشِّيئةِ البسيطة نفسها، والإرادة مشيئة شيء، والشيء العمل الموضوع للمشيئة أي هو ما نشاؤه، مثلاً تحرُّكُ الميل للطعام. والميل على بساطته مشيئةٌ نطقيّةٌ، وذو المشيئة هو الحاصل على قوّة تشاءُ، مثلاً الإنسان. والشائي هو نفسه الذي يستعمل المشيئة.

واعلمْ أنّ المشيئة الفاعلة تعني تارةً المشيئة العازمة، — ويُقال لها المشيئة الطبيعيّة — وتارةً تعني الشيء الذي نشاؤه ويقال لها المشيئة الشوريّة.

في الفعل

اعلمْ أنّ جميع القوى التي سبق الكلام عنها – العارفة والناشطة والطبيعيّة والفنيّة – تُسمّى أفعالاً. فإنّ قوة كل جوهر الطبيعيّة وحركته هي فِعْلُهُ. وأيضاً إنّ حركة كل جوهر الغريزيّة هي فعله الطبيعيّ. ومن ثمَّ إنه لواضحٌ أنّ على قدر جوهر الأشياء نفسه يأتي أيضاً فعلها نفسه. وعلى قدر ما أنّ طبائع الأشياء مختلفة، تأتي أفعالها أيضاً مختلفة. ولا يُعقَلُ جوهرٌ خالياً من فعلٍ طبيعي.

والقوّة التي من شأنها أن توضح كل جوهر إنما هي أيضاً فعله الطبيعي. وأيضاً إن قوّة النفس الأولى الدائمة الحركة هي فعلها الطبيعيّ. وهذا هو كلامها الدائم الحركة، النابع منها دوماً نبعاً طبيعيًّا. وأيضاً إنّ قوّة كل جوهر وحركته هي فعلُه الطبيعيّ. ولا يخلو منه سوى العدم. والأعمال أيضاً، كالتكلُّم والمشي والأكل والشرب وما ماثلها تُسمّى أفعالاً. والانفعالات الطبيعيّة كثيراً ما تسمّى أفعالاً، كالجوع والعطش وما ماثلها. وإنّ تكميل القوّة أيضاً يسمّى فعلاً.

ويكون الفعل مضعّفاً: بالقوّة وبالفعل. فنقولُ إنّ الطفل الرضيع نحويٌّ بالقوّة، لأنّ له الجدارة – إذا تعلّم – أن يصير نحويًّا. ونقول أيضاً إنّ النحويّ نحويٌّ بالقوّة وبالفعل. فهو بالفعل لأنّ له معرفة النحو. وهو بالقوّة لأنه يستطيع أن يشرحه، ولو كان لا يمارس الشرح. ولمّا يفعل، أي يشرح، نقول أيضاً إنه نحويّ بالفعل.

واعلمْ أنّ الحالة الثانية مشتركة لما هو بالقوّة ولما هو بالفعل. فالثانية لما هو بالقوّة والأولى لما هو بالفعل.

الحريّة فعل الطبيعة الأوّل والوحيد الحقيقيّ، ذلك أنها حياة ناطقة ومستقلّة، وبانية الصورة التي تمثّلنا. والذين ينزعونها عن ربّنا لست أفهم كيف يقولون إنه إله متأنِّس. الفعل حركة الطبيعة الناشطة. والمتحرّك من ذاته يقال له الفاعل.

في ما هو طوعيّ وغير طوعيّ

لمّا كان للمرءِ أن يأتي بعمل ما هو طوعيّ وأنَّ له أن يأتي بعمل ما يحسبه غير طوعيّ، وكان كثيرون يجعلون أيضاً ما هو حقًّا غير طوعيّ، ليس في الانفعال فحسب، بل في الفعل أيضاً، فيجب العلم بأنّ العمل فعل نطقيّ، وأن الأعمال يتبعها مدح أو ذمّ، وأنّ بعضها يتمّ بلذّة وبعضها بغمّ، وأنّ بعضها يؤثره عاملُها وبعضها ينفر منه، وأنّ - بين المأثورات - بعضُها مأثورٌ دائماً وبعضها مأثورٌ إلى حين، وأنّ الأعمال التي ينفر منها هي على هذا النحو أيضاً. فإنّ الأعمال منها ما يُؤخذ بعين الرحمة وهو جدير بالغفران، ومنها ما يُمقَت ويستوجب العقاب. إذاً فإنَّ العمل الطوعيّ يتبعه حتماً مدحٌ أو ذمٌّ، ويلتحق أيضاً بعاملي الأعمال أنها تُنجز بلذّة وتكون مأثورة، إمّا دائماً وإمّا حيناً تُعمل. أمّا الأعمال المعمولة عن إكراه فهي جديرة بالمسامحة أو الرحمة ويصحبها غمٌّ، ولا تكون مأثورة وهي معمولة ليس بدافع من عاملها، بل تكون عن إكراه.

والإكراه يكون عن اغتصاب أو عن جهل. فهو يكون عن اغتصاب متى كان المبدأ العامل - أي العلّة - من خارج. أي متى اغتصَبنا غيرنا دون أن نُبدي رضى البتّة ودون أن نجاريه بنشاط خاص أي دون أن نصنع نحن بذاتنا ما نغتصب عليه. ونقول في تحديده: - الإكراه هو الذي مبدأُه من خارج دون مجاراة المغتصَب بنشاط منه خاصّ. ونعني بالمبدأ العلّة العاملة. أمّا الإكراه عن جهل فيكون عندما لا نفتعل نحن علّة الجهل، بل يحدث الأمر صدفة. فإذا اقترف سكران قتلاً، يكون قد قتل جهلاً لا كرهاً لأنّ علّة الجهل - أي السكر - قد افتعلها هو نفسه. أمَّا إذا كان أحدُهم يرشق النبال في مكان معتاد وقتل أباه المتواجد هناك صدفةً، فيُقال إنه فعل ذلك عن جهل كرهاً.

فالإكراه إذاً على نوعين: عن اغتصاب وعن جهل. أمَّا الفعل الطوعيّ فهو خالٍ منهما كليهما، وهو يكون لا عن اغتصاب ولا عن جهل. وإنه إذاً لطوعيٌّ الفعل الذي مبدأُه - أي علّته - في مَن يعرفُ الأمور بدقائقها وبأسبابها وبظروفها. ويُسمّي علماءُ البيان معرفة الأمور بدقائقها الأنواع الظرفيّة وهي: «مَن الفاعل؟ ومَن المفعول به؟ وما هو الفعل؟ - في حال قتل ما - و بماذا؟ أي الآلة - وأين؟ أي المكان - ومتى؟ - أي الزمان - وكيف؟ - أي نوعيّة الفعل - ولماذا؟ - أي لأيّ سبب؟.

واعلمْ أنّ هناك أعمالاً وسطى لا تصير طوعاً ولا كرهاً ، ولا يصحبها لذّة أو غمّ ، إنما نرتضي بها ، تجنُّباً لشرّ أعظم . فنُلقي ، مثلاً ، ما في السفينة خوفاً من الغرق .

واعلمْ أنّ ما يعمله الأطفال والبهائم يصير طوعاً ولكن بدون سابق تمييز ، وما نعمله نحن بغضب وبدون تروٍّ ، يتمّ طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز . وإذا وقف بنا صديقُنا فجأة ، نرتضي بذلك طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز أيضاً . والذي يَعثُر على كنزٍ لا يتوقّعه ، يتلقّاه طوعاً ، ولكن بدون سابق تمييز . وإنّ كل هذه الأمور تصير برضى لأننا نسرُّ بها ، ولكن بدون سابق تمييز ، لأنها ليست صادرة عن تشاور ، فإنّ على التشاور أن يسبق الإيثار ، كما قلنا .

في ما هو في استطاعتنا – أي في الحريّة

تساؤلاتٌ في الحريّة : – يقتضي للكلام في الحريّة أي في ما هو باستطاعتنا أن نبحث أولاً إذا كان ثمّة شيءٌ في استطاعتنا ، لأنَّ كثيرين يعارضون ذلك . وأنْ نبحثَ ثانياً ما هي الأمور التي هي في استطاعتنا ، وما هي سلطتنا عليها . ثالثاً أن نبحث عن السبب الذي لأجله صنَعَنا الله جابلُنا أحراراً . ولنعُد إذاً إلى ما بدأنا به ، مبيّنين أوّلاً أنّ هناك شيئاً هو في استطاعتنا مما يعترف به أولئك ، فنقول هكذا :

يقولون إنّ علّة جميع ما نعرفه هو الإله أو القضاء أو القدر أو الطبيعة أو الحظ أو الفطرة . غير أنّ عمل الإله جوهر وعناية ، وعمل القضاء الحتميّة في مفاعيل الحركة ، وعمل القدر أن تتمّ الأمور عن اضطرار وباضطرار – لأنه هو نفسه من الاضطرار – وعمل الطبيعة ولادةٌ ونموّ وفساد للنبات والحيوان ، وعمل الحظّ النوادر والمفاجآت ، وإنّ هذا هو تحديد الحظّ : اتفاق ومصادفة علّتين اثنتين قد وُضعتا لغايةٍ وتمّتا على غير ما كان في الحسبان . كذاك الذي يحفر قبراً فيجدُ كنزاً ، فإنّ واضع الكنز لم يضعه لكي يجده غيره ولا الذي وجد الكنز حفر ليجده ، بل الأول قد وضعه ليسترجعه متى شاء ، والثاني أراد أن يحفر قبراً . واتفق وقوعُ أمر غير ما توخّاه كلاهما . وعمل الفطرة مرصود على الجوامد والحيوانات . هذا هو قولهم . فإلى ماذا إذاً ننسبُ ما يحدث على يد البشر ، إذا لم يكن الإنسان علّة عمله ومبدأه؟ فإنه لا يجوز تسجيلُ الأعمال القبيحة والظالمة على الله ، ولا على القضاء لأنها لا تكون دائماً على حال واحدة ، ولا على القدر – لأنّ أعمال القدر مفروضة لا معروضة – ، ولا على الطبيعة – لأنّ أعمالها مختصّة بالنبات والحيوان – ، ولا على الحظّ – لأنّ أعمال البشر ليست نوادر ومفاجآت – ، ولا على الفطرة – لأنهم يقولون إنّ ميدان الفطرة في الجوامد والحيوانات – . وعليه بقي أنّ الإنسان ، إذا عمل أو صنع ، فهو مبدأ أعماله الخاصّة ، وهو حرٌّ .

وأيضاً ، إذا لم يكن الإنسان ربَّ عمل واحد على الأقلّ ، فتكون المشورة لديه من النوافل . وما الفائدة من المشورة إذا لم يكن ربَّ عملٍ واحد؟ فإنّ كل مشورة هي لأجل العمل ، وإلاّ فيكون أجملُ ما في الإنسان وأكرمه عرضةً لأبشع الاستغراب . وعليه ، إذا كان ثمّة مشورةٌ فهي لأجلِ العمل ، لأن كل مشورة تكون لأجل العمل وبسبب العمل .

في الحوادث

في ما هو باختيارنا. – في ما هو غير لازم. – لنا دائماً حريّة الاختيار لا العمل: – إنّ الحوادث منها ما هو في استطاعتنا ومنها ما هو ليس في استطاعتنا. أمّا ما هو في استطاعتنا فنكون أحراراً أن نعملَه وأنْ لا نعملَه. أي كل عملٍ نعملُه طوعاً، لا يقال إنّنا عملناه طوعاً إذا كان العمل ليس منّا. وبعبارة أبسط، إنه يتبع هذه الأعمال مدحٌ أو ذمٌّ وإنها أُسُّ المشورة والشريعة. وفي الحقيقة إنّ كل الأمور النفسانيّة خاضعة لنا ونتشاور فيها. والمشورة تكون في الأمور المعروضة علينا على السواء. والأمر المعروض بالسويّة هو الذي نستطيعه هو نفسه أو نستطيع عكسه. والذي يحدّد اختيار هذا الأمر بالذات هو عقلُنا. وهذا بدءُ العمل. وعليه إنّ الأمور التي هي في استطاعتنا هي المعروضة علينا على السواء، مثلاً التحرّكُ وعدم التحرّك، مباشرة العمل وعدم مباشرته، محاولة إتيان ما ليس ضروريًّا وعدم المحاولة، الكذب وعدم الكذب، العطاء أو عدم العطاء، والفرح حيث يجب الفرح، أو لا، والفرح حيث لا يجب الفرح، وما شاكل ذلك ممّا يكون أساساً لأعمال الفضيلة أو الرذيلة. فإنّنا في هذه كلها نكون أحراراً. وإنّ الفنون أيضاً من المعروضات علينا على السواء، فإنّه في استطاعتنا أن نمارسها إذا شئنا أو أن لا نمارسها.

واعلمْ أنّ اختيار الأعمال يكون دائماً في استطاعتنا، غير أنّ إنجازها يمنع مراراً كثيرة، بتحويل من العناية الإلهيّة.

في سبب وجودنا أحراراً

المخلوقات متغيّرة من طبيعتها. - الحريّة تلازم العقل. - لا حريّة لدى البهائم: - نقول إذاً إنّ الحريّة أتتنا مع النطق وإنّ التغيير والتحويل قد حصلا مع ولادة المواليد، لأنّ كل مولود متحوِّل. فإنّ الذين ابتدأ بدءُ كيانهم انطلاقاً من تحويل، تحتّم عليهم أن يكونوا متحوّلين. وما التحويل إلاّ خروج الأشياء من العدم إلى الوجود وإيجاد شيء جديد من مادّة موضوعة. فإنّ الجوامد إذاً والبهائم تتحوّل بحسب التغييرات الجسميّة السابقة الذكر، أمّا الناطقون فيتحوّلون بحسب اختيارهم. والنطق منه النظريُّ ومنه العمليُّ. النظريُّ يعقل الكائنات كما هي عليه، والعمليّ يشير ويحدّد للأعمال المنطقَ القويم. ويُسمّون النظريَّ عقلاً والعمليَّ منطِقاً، والنظريّ حكمةً والعمليَّ بصيرةً. وعليه كل من يتبصّر - بما أنّ عليه أن يختار أعماله - إنما يتبصّر لكي يختار ما سبق وحكم به في تبصّره، ويعمل بما كان قد اختاره. وإذا كان الأمر كذلك، فمن الضرورة أن تخضع الحريّة للمنطق. فإمّا أن لا يكون منطق، وإمّا إذا كان منطقٌ فهو سيّد الأعمال. وهو حرٌّ. ومن ثَمَّ ليست البهائم حرّةً لأنها بالأحرى تنقاد للطبيعة ولا تقودها. لذلك تراها لا تقاوم الميل الطبيعي بل حالما تميل إلى الشيء تقوم بعمله. أمّا الإنسان، فلأنه ناطقٌ، يقود الطبيعة أكثر مما ينقاد لها. ولذا إذا مال إلى شيء وأراده، فله المقدرة على أن يقاوم ميله، أو أن لا ينقاد إليه. ولذا فالبهائم لا تُمدَح ولا تُذمّ والإنسان يُمدح ويُذمّ.

الملائكة أحرار. - وهم متحوّلون، لأنهم مخلوقون: - واعلمْ أنّ الملائكة - بما أنهم ناطقون - هم أحرار، وبما أنهم خلائق، هم متحوّلون. والشيطان - وقد خلقه البارئُ صالحاً - أضحى مخترع الشرّ هو والقوّات القائمون معه - أي الشياطين -. أما باقي المراتب الملائكيّة فقد ثبتوا في الصلاح.

في ما هو ليس في استطاعتنا

ما ليس في استطاعتنا منوطٌ بالله وحده : – الأمور التي ليست في استطاعتنا ، بعضُها له مبادئُه أو أسبابه فينا ، كالمجازاة على أعمالنا في هذا الدهر وفي الآتي ، والباقي كلّه منوطٌ بالعناية الإلهيّة ، فإنّ الجميعَ كيانُهم من الله. وقد دخل الفساد فينا بسبب شرّنا ، ذلك لمجازاتنا ومنفعتنا ، «إذ ليس الموت من صنع الله ولا هلاك الأحياء يسُرّه»[٤٧]. إنما كان الموت بالإنسان – أي بزلّة آدم – وكذلك سائر العقوبات. أمّا ما تبقّى كلّه فيجب أن يُنسب إلى الله ، لأنّ وجودَنا منوط بقدرته الخالقة ، وثباتَنا في الوجود بقدرته الحافظة ، وتدبيرَنا وخلاصَنا بقدرته المعتنية ، والتمتّعَ الأبديَّ بخيراته بصلاحه نحو الذين يحفظون ما هو بموجب طبيعتهم ، فإنّنا لهذا أيضاً قد خُلقنا. ولما كان البعضُ يُنكرون العناية ، فلنقل أخيراً شيئاً في العناية.

---

(٤٧) حكمة ١ : ١٣

في العناية

وعليه إنّ العناية هي اهتمام الله بالكائنات. والعناية أيضاً هي عطفُ الله الذي به تنال الكائنات كلُّها ما يُلائم مسلكَها. وإذا كانت العناية هي عطف الله، فمن الضرورة القصوى أنّ كلّ ما تُجريه العناية يكون بحسب المنطق المستقيم ويكون هو الأحسن والأجدَر بالله، حتى لا يمكن أن يكونَ أحسنُ منه. ومن الضرورة أيضاً أن يكون صانعُ الكائنات هو نفسه المعتني بها أيضاً، لأنه ليس لائقاً ولا منطقيًّا أن يكون واحدٌ خالق الكائنات وآخرُ المعتني بها، فإنهما بذلك يكون كلاهما حتماً في ضعفٍ، هذا للصنع وذاك للعناية. وعليه إنّ الله هو الصانع وهو المعتني وإنّ إرادته الصالحة هي قوّته الصانعة والحافظة والمعتنية. فإنّ «كل ما شاء الربّ صنعه في السماوات والأرض» [٤٨]، ومشيئته لا يقاومها أحد. فقد شاء أن تكون الكائنات فكانت. ويريد استمرار العالم فيستمرّ. وكلّ ما يشاؤه يكون.

والبرهان على أنّ الله يعتني وأنه يُحسن الاعتناء، فليُنعِم أحدُنا النظر في هذا: إنّ الله وحده بطبيعته صالح وحكيم، والصالح يعتني لأنّ من لا يعتني ليس صالحاً ولأنّ البشر أيضاً والبهائم يعتنون طبعاً بأولادهم والذي لا يعتني يُذمّ. وبما أنه حكيم فهو يحسن الاهتمام كثيراً بمخلوقاته.

وعليه ينبغي - إذا ما أصغينا إلى هذه الأمور - أن نعجب بأعمال العناية كلّها وأن نُشيد بها كلّها وأن نتقبّلها حتى ولو بدت لكثيرين جائرة، لأننا نجهل ولا نفهم عناية الله وهو وحده يعرف أفكارنا وأعمالنا ومستقبلنا. وأعني بذلك كلَّ ما هو ليس في استطاعتنا، لأنّ ما هو في استطاعتنا يعودُ، لا إلى العناية، بل إلى حريّتنا.

والأمور المنوطة بالعناية يتمّ بعضها بمسرّة الله وبعضها بسماحه. فالتي بعنايته هي، بلا ريب، جميعُ الصالحات. أمّا التي بسماحه فهي كثيرة الأنواع. فإنّ الله يسمح مرّات كثيرة أن تنزل المصائب بالبار ليظهر للآخرين الفضيلة المختفية فيه، كما حدث لأيّوب. ويسمح مرّات أخرى بإتيان أحد المنكرات حتى، إذا ما تمَّ العمل الظاهر منكراً، ينتج عجب ما عظيم كخلاص البشر بالصليب. ويسمح في حالة أخرى بأن يُبتلى البار بمحنة

---

(٤٨) مز ١٣٤: ٦

رديئة كيلا يحيد عن ضميره الصالح ولا يسقط في الافتخار الباطل لِما أُوتي من قوّة النعمة، كما جرى لبولس[٤٩].

لماذا يتخلّى الله عن البعض: – قد يصير التخلّي عن أحدهم إلى حينٍ لأجل إصلاح غيره، حتى إذا رآه الآخرون يتأدّبون – كما جرى لأليعازر والغنيّ. فإننا طبعاً إذا رأينا البعض يتألّمون نرتدع. وقد يصير التخلّي عن آخر لأجل مجد غيره، لا لأنه هو أخطأ أو أبواه، – كالأعمى منذ مولده – فقد كان ذلك ليتمجّد ابن الإنسان[٥٠]. وتسمح العناية أيضاً بأن يتألّم أحدُهم تنشيطاً لغيره، حتى إذا عظُم مجدُ المتألِّم، يكون الألم منشّطاً للآخرين في رجاء المجد الآتي وفي الشوق إلى الحياة الأبديّة – كما جرى للشهداء. وقد يسمح الله أحياناً بسقوط أحدهم – حتى في فعل قبيح – لينتزع منه رذيلةً أخرى أكثر قباحة. مثلاً، إذا كان شخصٌ يفتخر بفضائله وأعماله الصالحة، قد يتركه الله يسقط في الزنى، لكي، بسبب سقطته، يتوصّل إلى الشعور بضعفه، فيتّضع ويقوم فيعترف للربّ.

يعود إلينا انتخاب الخير والشرّ. – وعلى العناية النتيجة الحتميّة: – إعلمْ أنه يعود إلينا إيثار الأعمال. أمّا إنجازها، فالصالحة منها تعود إلى العون الإلهي، لأن الله – نظراً لسابق معرفته –، يُعين إعانةً عادلةً الذين يؤثرون الصلاح بضمير مستقيم. والطالحة تعود إلى التخلّي الإلهيّ، لأنه تعالى – بسابق معرفته أيضاً – يتخلّى عن الأشرار تخلّياً عادلاً.

التخلّي التدبيريّ والتخلّي الكامل: – والتخلّي على نوعين، فيكون التخلّي تدبيريًّا وتأديبيًّا ويكون التخلّي كاملاً ويائساً. فإنّ التدبيريّ والتأديبيّ يحصل لأجل إصلاح المتألّم وخلاصه وتمجيده أو لأجل تنشيط الآخرين والقدوة الصالحة أو لأجل مجد الله. أمّا التخلّي الكامل فيحصل عندما يكون الله قد صنع كل ما يؤول إلى الخلاص وبقي الإنسان، عن قصد، بدون تأديب ولا علاج حتى بدون أَمل بالشفاء. حينئذٍ يُسلّمه الله كيهوذا إلى الهلاك الكامل. حفظَنا الله ونجّانا من مثل هذا التخلّي.

واعلمْ أنّ مظاهر العناية الإلهيّة كثيرة، لا يمكن النطقُ تفسيرَها ولا العقلُ إدراكَها.

واعلمْ أنّ جميع المصائب الطارئة تقود الذين يتقبّلونها بشكرٍ إلى الخلاص وتكون لهم مجلبةً لكل منفعة.

---

(٤٩) راجع ٢ كور ١١: ٧

(٥٠) راجع يوحنّا ٧: ٣

واعلمْ أنّ الله – بسابق تصميمه – «يريد أنّ الجميع يَخلُصون ويحظَون بملكوته» [٥١]. فإنه لم يخلقنا للعقاب، بل للتمتّع بصلاحه، ذلك لأنه صالح. وهو يريد عقاب الخطأة لأنه عادل.

السماح الإلهيّ على نوعين: – فنقول إذاً إنّ مشيئته الأولى مصمّمة وهي رضى وهي منه. أمّا مشيئته الثانية فهي لاحقة وهي تجاوزٌ وهي بسببنا. وهذه على نوعين: تدبيريّة وتأديبيّة، لأجل الخلاص، وجزائيّة، لأجل عقاب كامل، كما قلنا. وهذه من الأمور التي ليست في استطاعتنا.

إنّ الله لا يريد الشرّ مطلقاً. – لكنّه يسمح به: – إنّ الأمور التي هي في استطاعتنا، بعضُها صالح ويشاؤه الله عن تصميم ورضى، وبعضُها طالح وشرٌّ في الحقيقة ولا يشاؤه الله لا سابقاً ولا لاحقاً، إنما يتركه لحرّيتنا، لأن التعقُّل والفضيلة لا يُغتصبان. ويعتني الله بالخليقة كلها ويُحسن إلى الخليقة بأسرها وهو يؤدّبها أحياناً كثيرة حتى بواسطة الشياطين كما جرى لأيّوب وللخنازير [٥٢].

---

(٥١) ١ تي ٢: ٤

(٥٢) راجع متّى ٨: ٣٠ وما يليها

في سابق المعرفة والاختيار

يسبق الله ويعلمُ كل شيء ولا يسبقُ فيحدّدُ كل شيء : - اعلمْ أنّ الله يسبق ويعلم كل شيء وأنه لا يسبق ويحدّد كل شيء . فهو يسبق ويعرف ما هو في استطاعتنا ولكنّه لا يسبق ويحدّده ، فهو لا يشاء حدوثَ الشرّ ولا يقتسر الفضيلة ، حتى إنّ سابق التحديد يكون تلبية أمر سبق الله وعرفه . وإنه تعالى يسبق ويحدّد الأمور التي ليست في استطاعتنا . فإنّ الله ، نظراً لمعرفته السابقة ، يحدّد للحال كل شيء بحسب صلاحه وعدله .

زرع الله الفضيلة في طبيعتنا أي هي غريزيّة وعلى قدر إمكان ممارستها : - واعلمْ أنّ الفضيلة قد زُرعت في طبيعتنا من قِبَل الله الذي هو نفسه بدء كل صلاح وعلّته وبدون مساعدته ونجدته لا يمكننا أن نريد الصلاح أو أن نعمله . وأنّ في استطاعتنا إمّا أن نستمرّ في الفضيلة وأن نتبع الله الذي يدعونا إليها ، وإمّا أن ننحرف عن الفضيلة - وهذا يعني أن نصير في الرذيلة - ونتبع الشيطان الذي يدعونا إليها بدون اغتصاب . وما الرذيلة إلاّ الابتعاد عن الخير ، كما أنّ الظلام هو زوال النور . إذاً ، إذا ثبتنا في ما هو بحسب طبيعتنا نكون في الفضيلة ، وإذا حدنا عمّا هو بحسب طبيعتنا - أي عن الفضيلة - نؤول إلى ما هو ضدّ طبيعتنا ونصير في الرذيلة .

أمّا التوبة فهي عودةٌ عمّا هو ضدّ طبيعتنا إلى ما هو بحسب طبيعتنا - عن الشيطان إلى الله - وذلك بالزهد والمتاعب .

وعليه إنّ الخالق قد أبدع هذا الإنسان ذَكراً وأَفاض عليه من نعمته الإلهيّة وضمّه بها إلى شركته . ومن ثمّ قد نصَّبه سيّداً ، له أن يمنح الحيوانات أسماءها شأنها شأن عبيد له . فإن الإنسان ، لمّا كان على صورة الله ، ناطقاً وعاقلاً وحرًّا ، فقد وضع سيّدُ الكل والملكُ العام بين يديه السيطرة على الأرضيّات .

خُلقتِ المرأة لنشر ذريّة الإنسان المحكوم عليه بالموت : - وإنّ الله العارف بسابق علمه أنّ الإنسان سوف يحصل في المعصية ويسلّم إلى الفساد ، قد صنع منه أنثى على مثاله تكون له عوناً ، وبعد المعصية ، تكون له عوناً على قيام الجنس بالولادة خلفاً عن سلف . فإنّ الجبْلة الأولى تسمّى تكويناً لا ولادة ، لأنّ الجبلة الأولى - وهي من قِبَل الله - تكوينٌ . أمّا تناسل

البعض من البعض، من جرّاء الحكم بالموت بسبب المعصية، فهو ولادة.

وكان الله قد وضع الإنسان في الفردوس العقلانيّ والحسّيّ، وكان هذا يعيش على الأرض بحسّه جسديًّا ويتعاطى بنفسه مع الملائكة فيستثمر الأفكار الإلهيّة ويغتذي بها. كان عارياً بالبساطة ولا شغل له في حياته سوى أن يعرف الخالق وحده بمصنوعاته وينعم برؤيته ويبتهج.

حالةُ الإنسان في الفردوس وسَقْطته: – وعليه لمّا كان الله قد زيّن الإنسان طبيعيًّا بمشيئة حرّة، فقد وضع له ناموساً ألاّ يذوق من شجرة المعرفة. وقد قلنا على قدر طاقتنا ما يكفي عن هذه الشجرة في الرأس المختصّ بالفردوس. وفيمَا كان الله يرسم له الوصيّة، وعده، إذا ما حفظ الكرامة لنفسه وانتصر للمنطق وأقرَّ بأنه هو المخلوق وحافظ على ما يُؤمر به، أن يُشركه في السعادة الخالدة، فيحيا إلى الأبد وينالَ الغلبة على الموت. لكنّه إذا أخضع النفس للجسد وآثر الملذّات الجسديّة وتناسى كرامته الخاصّة و «ماثل البهائم وتشبّه بها» (٥٣)، خالعاً نير صانعه ومحتقراً أمر إلهه فيصبح عرضة للموت والفساد، فيُلقى للعذاب ويعيش حياة شقيّة. لأنه لم يكن مفيداً له ولا لائقاً به أن يحظى بالخلود بدون تجربة، لئلا يسقط بالكبرياء في حكم إبليس، فإنّ هذا – بسبب خلوده – قد نال، بعد سقطته الاختياريّة، الثبات في الشرّ والتصلُّب الذي لا يتحوّل. أمّا الملائكة، فبعكس ذلك، لأنهم – بعد أن انتخبوا الفضيلة باختيارهم – نالوا بالنعمة رسوخاً في الخير لا يتزعزع.

سبب تجربة آدم: – وعليه كان يجب أن يُمتَحن الإنسان أوّلاً، «لأنَّ رجلاً بلا اختبار ولا تهذيب ليس جديراً بالاعتبار» (٥٤). وهو بالاختبار يكتمل في حفظ الوصيّة، وهكذا ينال الخلود جزاءَ فضيلته. فإنّ الإنسان – وهو وسطٌ بين الله والمادّة – إذا حفظ الوصيّة وجنح عن ميله الطبيعيّ إلى الكائنات، يصبح متّحداً بالله اتحاداً اعتيادياً، إذ يكون قد نال رسوخاً في الخير لا يتزعزع. أمّا إذا سقط، فيميل بالأحرى إلى المادة، ويحيد عقله عن الله علّته، ويؤول إلى الفساد، ويصير عرضةً للألم – بدل عدم التألّم – وللموت – بدل الخلود – ويحتاج إلى الزواج والولادة العابرة؛ وحبًّا بالحياة يتعلّق بالملذّات على أنّها قوامها، ويُبغض بسهولة من يحاولون أن يصدّوه عنها، وينتقل بميله من الله إلى المادّة، وبنفوره من

---

(٥٣) مز ٤٨: ١٣ (٥٤) ابن سيراخ ٣٤: ١١

عدوّ خلاصه بالحقيقة إلى بني جنسه. وعليه إنّ الإنسان قد انغلب لحسد إبليس، لأنّ الشيطان الحسود والماقت الخير لم يعد يحتمل بكبريائه أن يكون هو في الأسفل وأن نحظى نحن بالعلى. ولذلك فإنّ هذا الكذوب قد أغرى الإنسان المسكين بأمل التألّه، رافعاً إيّاه إلى علوّ كبريائه الخاصّ، ليُلقيَ به في ما يشبه غورَ سقطته.

الكِتَابُ الثَّالِث :

سِرُّ التَّدبير الإلهيّ



إيقونة البشارة (القرن ١٥)

في تدبير الله تعالى وفي اهتمامه بنا وبخلاصنا

نتائجُ معصية وصيّة الله في الفردوس : – وعليه ، فقد رأينا كيف أنّ إبليس – بمكيدته هذه – قد جعل الإنسان ينخدع ويخالف وصيّة الله جابلِه ويتعرَّى من النعمة ويفقد دالَّته لدى الله ويستتر بخشونة المعيشة الشاقّة – هذا هو مدلول ورق التين [1] – ويتّشح بالإماتة – أي الميتوتة – وكثافة الجسد – وهذا هو لبس الجلود – ويصبح بحكم الله العادل منفيّاً من الفردوس ، ويلبث محكوماً عليه بالموت ومستهدَفاً للفساد.

مبادرة الله باستدعاء الانسان إلى التوبة : – بيد أنّ المتحنّنَ – الذي أعطاه الوجود ومنحه حسن الوجود ، – لم يهملْه ، بل أدَّبه أولاً بتأديباتٍ شتى فاستدعاه إلى العودة بالإنذار والتخويف ، وبطوفان الماء وبإبادة الجنس البشريّ عموماً ما عدا القليل منهم [2] وببلبلة الألسن وتشتيتها [3] وبزيارة الملائكة لإبرٰهيم [4] وبحريق المُدن [5] وبظهورات رمزيّة ، بحروب ، بالانتصارات ، بانكسارات ، بآيات وعجائب وقوى مختلفة ، بالشريعة والأنبياء. وكان المقصود من هذه كلّها إزالة الخطيئة المتغلغلة بطرق شتّى – وكانت قد استعبدت الإنسان ونغَّصت حياته بكل أنواع الشرور – ثم إعادة الإنسان إلى حسن الوجود. ولمّا كان الموت قد دخل إلى العالم بالخطيئة دخولَ بهيمة وحشيّة شرسة مفسدةٍ للحياة البشريّة ، فقد وجب على مَن يفتديه أن يكون منزَّهاً عن الخطيئة وغيرَ محكوم عليه بالموت من جرّاء الخطيئة بل عليه أيضاً أن يعضد طبيعتنا ويجدّدها ، وأن يهذّبنا بعمله ويعلّمنا طريق الفضيلة التي تبعدنا عن الفساد وتُسدّد خطواتنا نحو الحياة الأبديّة. وأخيراً عليه أن يُظهر لنا في ذاته عظمةَ لجّة محبته للبشر. ومن ثمّ فإنّ الربّ البارئ نفسه قد اتخذ على عاتقه الدفاع عن جبلته الخاصة ، فصار بعمله معلّماً. فإنّ العدوّ لمّا كان قد خدع الإنسان بأمل التألُّه ، فقد انخدع هو بظهور جسد واتّضح للحال صلاحُ الله وحكمته وعدله واقتداره : فقد ظهر صلاحه تعالى بأنه لم يحتقر ضعف جبلته الخاصّة ، بل انعطف عليها في سقطتها ومدَّ لها يده. وقد ظهر عدله بأنّ الإنسان لمّا كان مغلوباً لم يتركِ الله لغيره أنْ يقهر الطاغي ولا انتشل

(١) تكوين ٣: ٧ (٢) تكوين ٦: ١٣ (٣) تكوين ١١: ٧ (٤) تكوين ١٨: ١ الخ
(٥) تكوين ١٩: ١ الخ

الإنسان من الموت بالقوّة ، بل إنّ الصالح والعادل قد جعل أنّ ذاك نفسَه الذي كان الموت قديماً قد استعبده بالخطايا يعود اليوم من جديد فينتصر ، فخلَّص المِثل بمِثله . وقد كان الأمر مستعصياً ، وكان من شأن الحكمة أن تجد حلاً لائقاً جدًّا للأمور المستعصية .

إعلانُ التدبير الإلهيّ بشأننا : – فإنّ الله الآب قد ارتضى ، والابن الوحيد الجنس ، كلمة الله والإله الكائن في حضن الله الآب [٦] ، المساوي للآب والروح القدس في الأزليّة وعدم الابتداء والكائن في البدء والكائن عند الله الآب – وهو الله وهو في صورة الله [٧] – قد نزل مطأطئاً السماوات ، أي إنّ الذي لا ينخفض قد خفَّض علاه بلا انخفاض وانحدر إلى مستوى عبيده انحداراً يعجز البيان والإدراك . – وهذا ما تعنيه كلمة نزول – . ولمّا كان إلهاً كاملاً ، فقد صار إنساناً كاملاً وتمَّ الأحدثُ من كلّ الحوادث ، بل الحدثُ الفريد تحت الشمس الذي تظهر به قوّة الله التي لا حدَّ لها . فما هو أعظم من أن يصير الله إنساناً؟ وصار الكلمة جسداً بدون استحالة ، ذلك من الروح القدس ومريم القدّيسة الدائمة البتوليّة والدة الإله . والذي هو وحده محبٌّ للبشر قد أضحى وسيطاً بين الله والبشر ، وقد حُبِل به في أحشاء البتول الطاهرة ليس من مشيئة رجل ولا من شهوته ولا من علاقته ، ولم يكن ذلك من ولادة مع لذّة ، بل من الروح القدس وأوّلِ تكوينِ آدم . وبما أنه منّا فقد صار مُطيعاً لأبيه ، وبما أنه على مثالنا فقد صار شافياً معصيتنا ، وصار لنا مثالاً لا نحظى على الخلاص بدونه .

---

(٦) راجع يوحنا ١ :١٨

(٧) فيلبي ٢ :٦

في كيفيّة الحبل بالكلمة وفي التجسّد الإلهيّ

البشارة: – وملاك الربّ قد أُرسل إلى العذراء القديسة المنحدرة من قبيلة داود [٨]، – «لأنه من الواضح أنّ ربّنا خرج من يهوذا، من السبط الذي لم يتقدّم منه أحدٌ قط إلى المذبح» [٩]. وسنتكلّم عن هذا في ما بعد بأكثر تدقيق –. وقال الملاك في تبشيره: «سلام يا ممتلئة نعمةً الربّ معك» [١٠]. أمّا هي فاضطربت لكلامه، وقال لها الملاك: «لا تخافي يا مريم فقد وجدتِ نعمةً لدى الربّ، وتلدين ابناً وتسمّينه يسوع» [١١]. «وهذا يخلّص شعبه من خطاياهم» [١٢]. – ومن هنا فإنّ كلمة **يسوع** تعني **المخلّص**. – أمّا هي فكانت متحيّرة: «كيف يكون لي هذا وأنا لا أعرف رجلاً؟» [١٣]. فقال لها الملاك ثانية: «إنّ الروح القدس يحلُّ عليك وقوّة العليّ تظلّلك. لذا فالمولود منك قدّوس ويدعى ابنَ الله» [١٤]. فقالت له: «ها أنا أَمَةُ الربّ، فليكن لي بحسب قولك» [١٥].

تمَّ التجسُّد الإلهيّ على أثر التبشير. – كيفيّته: – إذاً بعد أن قبلتِ العذراء القدّيسة، حلَّ الروح القدس عليها، على حسب كلام الربّ الذي قاله الملاك. فطهّرها ومنحها أيضاً قوّة استيعاب لاهوت الكلمة مع ولادته. وللحال، ظلّلتها حكمة الله العليّ وقوّته، ابن الله المساوي للآب في الجوهر بمثابة زرع إلهيّ، فاستخلص لذاته من دمائها النقيّة الجزيلة الطهارة جسداً حيّاً، نفسُه ناطقة عاقلة، هو بكر عَجْنتنا، ليس مزروعاً بل معمولاً بفعل الروح القدس، ليس منجزاً شكله بنموٍّ بطيءٍ، بل تمَّ دفعة واحدة، لأنَّ كلمة الله نفسه قد أضحى أقنوماً لجسده. فإنَّ الكلمة الإلهيّ لم يتّحدْ بجسم له أقنومُه قائمٌ في ذاته، بل إنّه – لمّا حلَّ في أحشاء العذراء القدّيسة وهو غير محصورٍ في أقنومه، – قد أقام له جسداً حيّاً ذا نفس ناطقة وعاقلة، وذلك من أنقى دماء الدائمة البتوليّة. فاتّخذ باكورةَ العجنة البشريّة وصار الكلمة نفسه أقنوماً للجسد، حتى إنَّ هذا الجسد كان معاً جسدَ ابن الله وجسداً ذا نفس ناطقة وعاقلة. لذا لسنا نقول بإنسانٍ يتألّه، بل بإله يتجسّد. فإنّ الذي كان بالطبيعة إلهاً كاملاً، قد صار هو نفسه بالطبيعة (البشريّة) إنساناً كاملاً، ولم يُغيِّر طبيعته ولم يتظاهر

(٨) لوقا ١: ٢٦ (٩) راجع عبرا ٧: ١٤ و١٣ (١٠) لوقا ١: ٢٨ (١١) لوقا ١: ٣٠ – ٣١
(١٢) متّى ١: ٢١ (١٣) لوقا ١: ٣٤ (١٤) لوقا ١: ٣٥ (١٥) لوقا ١: ٣٨

بالتدبير ، بل إنّه – في الحبل به من البتول القدّيسة بجسد ذي نفسٍ ناطقة وعاقلة حاصلٍ على وجوده في ذاته – قد اتّحد بأقنومه اتحاداً لا اختلاط فيه ولا تغيير ولا تقسيم ، دون أن يحوِّل طبيعةَ لاهوته إلى جوهر جسده ولا جوهر جسده إلى طبيعة لاهوته ودون أن يؤلّف طبيعةً واحدة مركّبة من طبيعته الإلهيّة وطبيعته البشريّة المتّخذة .

في الطبيعتين، ضد ذوي الطبيعة الواحدة

وإن الطبيعتين قد اتحدتا إحداهما بالأخرى بدون تحويل ولا تغيير، فلا الطبيعة الإلهيّة تزحزحت عن بساطتها الخاصّة ولا الطبيعة البشريّة قد تحوّلت إلى طبيعة اللاهوت أو زالت من الوجود أو أصبح كلاهما طبيعة واحدة مركّبة، فإنّ الطبيعة المركّبة لا يمكنها أن تكون مساويةً في الجوهر لأيّ من الطبيعتين اللتين تركّبت منهما، لأنّ اتحاد طبيعتين مختلفتين يأتي بطبيعة تختلف عن كلٍّ منهما، مثلُها مثل الجسم المركّب من العناصر الأربعة، فهو لا يقال فيه إنّه مساوٍ للنار في الجوهر ولا يسمّى ناراً، ولا يقال فيه إنّه هواء ولا ماء ولا تراب، ولا إنّه مساوٍ لأيٍّ منها في الجوهر. وعليه إذا سلّمنا مع الهراطقة أنَّ المسيح – بعد الإتحاد – قد صارت له طبيعة واحدة مركّبة، فتكون طبيعته البسيطة قد تحوّلت إلى طبيعةٍ مركّبة ولا يظلُّ مساوياً للآب في طبيعته البسيطة، ولا لأُمّه التي ليست مركّبة من لاهوت وناسوت. ومن ثمّ لا يكون في اللاهوت ولا في الناسوت، ولا يُسمّى إلهاً ولا إنساناً، بل المسيح لا غير، وتكون كلمة **مسيح**، لا اسمَ الأقنوم بل اسمُ الطبيعة الواحدة كما يزعمون.

تعليم الكنيسة: – أمّا نحن فنعلّم أن المسيح طبيعته مركّبة، لا على أن شيئاً آخر يصدر من شيئين آخرين كما الإنسان من نفس وجسد أو كما الجسم من العناصر الأربعة، بل أَنَّ الصدورَ من شيئين آخرين والأمور على ما هي عليه. ونعترف بوجود إلهٍ كاملٍ من اللاهوت والناسوت يُقال له هو نفسه إنه من طبيعتين وفي طبيعتين. واسمُ المسيح الذي نُلحقه بالأقنوم ليس مقولاً عنه بصفته الفرديّة، بل على أنه يعني الطبيعتين. لأنه هو نفسه قد مسح ذاته، ذلك أنّه – بصفته إلهاً – قد مسح جسدَه بلاهوته وأصبح ممسوحاً بصفته إنساناً، فهو نفسه إذاً هذا وذاك. ولو كان المسيح ذا طبيعةٍ مركّبة واحدة، لكان مساوياً للآب في الجوهر، ولكان الآب إذاً مركّباً أيضاً ومساوياً للجسد بالجوهر. وهذا مستحيل ومليء بكل كفر!

وكيف تكون الطبيعة الواحدة أيضاً قابلةً اختلافاتٍ جوهريّة متناقضة؟ فكيف يمكن الطبيعة الواحدة نفسها أن تكونَ، في الوقت نفسه، مخلوقةً وغير مخلوقة، مائتة وغير مائتة، محصورة وغير محصورة؟

وإذا قال القائلون بطبيعة واحدة في المسيح بأنَّها بسيطة، فهم إمَّا يعترفون بأنّه إله وحسب – وبذلك يشطّون بمخيّلتهم فينكرون التأنّس – وإمّا يقولون بأنّه إنسان لا غير كما

يزعم نسطوريوس ، وحينئذٍ أين يتحقّق القول بأنّه كاملٌ في لاهوته وكامل في ناسوته؟ ومتى يا تُرى يقولون إنّ في المسيح طبيعتين اثنتين إذا قالوا الآن – بعد الاتحاد – بطبيعة مركّبة واحدة؟ لأنّه واضح جداً أنّه كان للمسيح طبيعةٌ واحدة قبل الاتحاد.

ولكنّ الذي جعل الهراطقة يضلّون هو اعتقادهم بأن الطبيعة هي الأقنوم نفسه. ولمّا نقول بطبيعة واحدة في البشر، علينا أن نعرف أنّنا إنما نقول هذا القول بدون التفات في كلامنا إلى النفس والجسد. لأنّه لا يمكن أن نقول في مقابلة النفس بالجسد إنهما من طبيعة واحدة. ولكن لمّا يكون لدينا كثرةٌ من الناس وكلُّهم تنطبق عليهم كلمة الطبيعة نفسها – لأنهم كلهم مركّبون من نفس وجسد وكلّهم ينعمون بطبيعة النفس وقد حصلوا على جوهر الجسد – فنقول بأنّهم من نوع مشترك في طبيعة واحدة مؤلفة من أشخاص كثيرين ومختلفين. وواضح إذاً أنّ لكل شخص طبيعتين وأنّه يكتمل في طبيعتين، نفس وجسد.

كيفيّة اتحاد الطبيعتين في المسيح: – وإنّ كلمة نوع مشترك لا يمكن استعمالها في التعبير عن ربّنا يسوع المسيح، لأنّه لم يكن قط ولا يكون ولا سوف يكون مسيحٌ آخر من لاهوت وناسوت، هو نفسه إلهٌ كاملٌ وإنسانٌ كامل في لاهوت وناسوت. ولا سبيل للكلام عن طبيعة واحدة في ربّنا يسوع المسيح، بمعنى أنّه كما الفردُ من نفس وجسد كذلك يكون المسيح من لاهوت وناسوت. وإذا كان هناك فردٌ، فالمسيح ليس فرداً وهو لا يُصنَّف في نوع من **مسحاء**. لذا فإنّنا نقول بأن الاتحاد صائرٌ من طبيعتين كاملتين، إلهيّة وإنسانيّة، ليس بشكل انعجان أو اختلاط أو امتزاج كما يقول ديوسكوروس وأوطيخا وساويرس ومَن سارَ سيرهم، ولا بإلفة شخصيّة أو ودّيّة أو على سبيل الرتبة أو وحدة الرأي أو وحدة الكرامة أو وحدة الاسم أو وحدة الرضى كما يقول نسطوريوس وديودورس وثاودورس المفصوصطي وجماعتهم، ولكننا نعترفُ بتركيب هو – في ما يخصّ الأقنوم – بلا تحويل ولا اختلاط ولا تغيير ولا انقسام ولا انفصال، في طبيعتين حاصلتين على كمالها في أقنومٍ هو أقنوم ابن الله المتجسّد، قائلين بأنّ هذا هو أقنومٍ لاهوته وناسوته ومعترفين بأن الطبيعتين تظلاّن سالمتين فيه بعد الاتحاد، دون انفراد كلٍّ منهما بميزتها، بل متّحدتين إحداهما مع الأخرى في الأقنوم الواحد المركَّب. فنقول باتحاد جوهري – أي حقيقيّ لا خياليّ – وجوهريّ، لا بحيث تحصُلُ طبيعة واحدة مركّبة من طبيعتين، بل بحيث تتّحدُ الطبيعتان الواحدة بالأخرى في أقنوم واحد مركّب هو أقنوم ابن الله، ونُحدِّد بأنهما تحتفظان بتباينهما الجوهريّ. فالمخلوق منهما لا يزال مخلوقاً، وغير المخلوق، غيرَ مخلوق. والمائت يبقى مائتاً والخالد، خالداً. والمحصور،

محصوراً. وغير المحصور، غيرَ محصور. والمنظور، منظوراً. وغير المنظور، غيرَ منظور. و «أحدهما يتلألأ بالعجائب والثاني يهوي تحت الإهانات» (البابا لاون الكبير، رسالة ٢٨، رأس ١٤، عدد ٢٩ وما يليه).

تبادل الاختصاصات في المسيح الإله والإنسان: – ويختصّ الكلمة لذاته بشؤون ناسوته – لأنّ ما لجسده المقدّس هو له – ويمنح جسده من خواصّه على سبيل التبادل، بسبب اتصال الطرفين أحدهما بالآخر واتحادهما في أقنومه، و «لأنّه كان واحداً وهو هو نفسه فاعل الإلهيّات والبشريّات على هذا الشكل أو ذاك مع اشتراكه بالآخر» (البابا لاون، المرجع نفسه، عدد ٢٧). لذلك نقول: إنّ ربّ المجد قد صُلب[١٦]، مع أنّ طبيعته الإلهيّة لم تتألم. ونعترف أنّ ابن البشر كان في السماء قبل آلامه، كما قال الربّ نفسه[١٧]، فإنّ ربّ المجد هذا كان هو نفسه ابن البشر أيضاً، بالطبيعة وبالحقيقة، لأنّه صار إنساناً. ونعرف له العجائب والآلام، ولو كان هو نفسه يجترحُ العجائب بطريقة، ويحتمل الآلام بطريقة أخرى. ونفهم ذلك بأنّ وحدة أقنومه تحفظ تباينَ الطبيعتين الجوهريّ سالماً. وكيف يسلم التباين يا ترى إذا لم تَسلمْ صاحبتا التباين؟ لأنّ التباين تباينٌ بين متباينين. فنقول إذاً إنّ السبب الذي لأجله تتباين طبيعتا المسيح إحداهما عن الأخرى – وهو سبب جوهره – يرتبط بالأقاصي. فبالنسبة إلى لاهوته يرتبط بالآب والروح، وبالنسبة إلى ناسوته يرتبط بأمّه وسائر البشر. ولهذا السبب عينه الذي لأجله ترتبط طبيعتاه، نقول بأنّه في تباين مع الآب والروح وأمّه وسائر البشر. فطبيعتاه ترتبطان بأقنومه – لأنّ لهما أقنوم واحد مركّب – يكون به في تباين مع الآب والروح القدس وأمّه ومعنا نحن.

---

(١٦) ١ كور ٢: ٨ (١٧) راجع يوحنّا ٣: ١٣

في كيفيّة تبادل العطاء أو المقايضة

الأسماء العامّة والخاصّة : – لقد سبق وقلنا مرّات عديدة إنّ الجوهر غير الأقنوم ، وإنّ الجوهر يُشير إلى النوع المشترك والعام في الأقانيم المتساويي النوعيّة ، مثلاً : إلهٌ ، إنسانٌ. أمّا الأقنوم فيدلّ على الفرد. كالآب ، والابن ، والروح القدس ، بطرس ، بولس. ومن ثمّ اعلمْ أنّ كلمة لاهوت وناسوت مخصصة للجواهر والطبائع. أمّا كلمة إله وإنسان – مع استعمالها للدلالة على الطبيعة ، كما لو قلنا : إنّ الله جوهر لا يُدرك وإنّ الله واحد – فتستعمل أيضاً للدلالة على الأقانيم كما في باب تخصيص الاسم العام. وقد جاء في الكتاب : «لأجل ذلك مسحك الله إلهك» [١٨]. – إنّ في هذا لدلالةً على الآب والابن –. ويقول الكتاب أيضاً : «وكان رجل في أرض عوص» [١٩]. وبذلك دلالة على أيّوب وحده.

استعمالها في الكلام عن المسيح : – وعليه ، لمّا كنّا نعرف في ربّنا يسوع المسيح طبيعتين وأقنوماً واحداً مركّباً من كلتيهما ، فإنّنا عندما ننظر إلى الطبيعتين نقول بلاهوت وناسوت ، وعندما ننظرُ إلى الأقنوم المركّب من الطبيعتين نُسمِّيه المسيح – الذي هو منهما كليهما – ونُسمِّيه إلهاً وإنساناً معاً ، وإلهاً متجسّداً. وأحياناً نكتفي بتسمية الكلّ باسم البعض ، فنسمّيه إلهاً فقط وابن الله وإنساناً فقط وابنَ الإنسان ، متّخذين اسمه تارةً من جزئه الأسمى فقط ، وتارةً من جزئه الأدنى فقط. وبما أنّ ذاك وهذا في تساوٍ ، فهما واحد ، الأول كائن دوماً من الآب بدون علّة ، والثاني صائرٌ حبّاً بالبشر.

لا محلّ للمقايضة في ما يتعلّق بالطبيعتين ، بل في ما يتعلّق بالأقنوم : – إذاً عندما نتكلّم عن اللاهوت لا نعني خواصّ الناسوت نفسه ولا نقول بلاهوت متألم أو مخلوق. وعندما نتحدّث عن الجسد أو الناسوت لا نعني خواصّ اللاهوت ولا نقول بأنّ الجسدَ أو الناسوت غير مخلوق. أمّا إذا تكلّمنا عن الأقنوم – إذا عنيناه بكلا الطبيعتين معاً أو عنيناه بإحداهما – فإنّنا ننسب إليه خواصّ الطبيعتين كلتيهما ، لأنّ المسيح الذي هو كلاهما معاً يُقال له إلهاً وإنساناً ، ومخلوقاً وغيرَ مخلوق ، ومتألماً وغيرَ متألم. وعندما يُدعى ابن الله والله – من باب

(١٨) مز ٤٤ : ٨ (١٩) أيوب ١ : ١

تسمية الكلّ باسم البعض – يتّخذ خواصّ الطبيعة الموجودة معه أي طبيعة الجسد، فيُسمّى ربّ المجد المصلوب – ليس من حيث هو إله بل من حيث هو نفسه إنسان –. وعندما يُدعى إنساناً وابن الإنسان يتّخذ خواصّ الطبيعة الإلهيّة ومفاخرها: طفلاً قبل الدهور، إنساناً لا بدء له – ليس من حيث هو طفل وإنسان بل من حيث هو إله قبل الدهور، وقد صار إنساناً في آخر الأزمان. وطريقة المقايضة هي هذه: كل طبيعة تقايض الأخرى خواصّها، بسبب وحدة هويّة الأقنوم ونفوذ كل طبيعة منهما في الأخرى. لذلك يمكننا القول عن المسيح: «هذا هو إلهنا... تراءى على الأرض وتردّد بين البشر»[٢٠]. وهذا الإنسان غير مخلوق فلا يتألّم ولا يُحصر.

(٢٠) باروك ٣: ٣٨

في عدد الطبائع

عدد الأقانيم في الله : – وعلى نحو ما نعترف بطبيعة واحدة وثلاثة أقانيم في اللاهوت، قائلين بحقيقة وجودهم وببساطة كلّ ما يتعلّق بالطبيعة والجوهر، فإننا نقرّ بتباين الأقانيم في خواصّهم الثلاث وحدها، في عدم العلّة والأبوّة، وفي العلّة والبنوّة، وفي العلّة والانبثاق. ونثبت أنهم لا يخرجُ واحدهم عن الآخرَيْن ولا ينفصل، بل يظلّون متّحدين بعضهم مع بعض ونافذين بعضهم في بعض بلا اختلاط ومتّحدين بلا امتزاج. فهم ثلاثة ولو متّحدين ومتميّزون بدون انفصال، لأنّ كلّ واحد منهم ولو كان قائماً بذاته – أي له أقنومه الكامل وله امتيازه الخاص أي حاصلٌ على طريقة وجوده المتباينة – غير أنهم متّحدون في الجوهر وفي الخواصّ الطبيعيّة، وفي أنهم لا ينفصلون، وفي عدم الخروج عن الأقنوم الأبويّ، وفي أنهم واحد ويُعرفون بوحدتهم.

عدد الطبائع في المسيح : – على هذا النحو، وبموجب التدبير الإلهي المعجز البيان الذي يفوق كل عقل وإدراك، نحن نعترف لأحد الثالوث، كلمة الله، ربنا يسوع المسيح بطبيعتين اثنتين، إلهيّة وإنسانيّة، مقترنتين الواحدة بالأخرى ومتّحدتين في الأقنوم، وأنّه وحده يؤلف من الطبيعتين أقنوماً متكاملاً مركّباً. ونقول بسلامة الطبيعتين حتى بعد الاتحاد في أقنوم واحد مركّب – أي في المسيح الواحد –، وإنهما موجودتان بالحقيقة مع خواصّهما الطبيعية، رغم اتحادهما بلا اختلاط وتمييزهما بلا انفصال وتَعدادهما.

إتحاد الأقانيم والطبائع لا يُزيل عددها : – وعلى نحو ما يتّحد أقانيم الثالوث الأقدس بلا اختلاط، ويتميّزون بلا انفصال، ويُعدّون – ليس من شأن العدد أن يُجريَ فيهم انقساماً أو انفصالاً أو تغييراً أو قطعاً، لأنّنا نعرف إلهاً واحداً، الآب والابن والروح القدس –، فعلى النحو نفسه تكون طبيعتا المسيح. فإذا اتحدتا فهما تتّحدان بلا اختلاط، وإذا نفذتْ إحداهما في الأخرى فلا يترتّب على ذلك تحويلٌ أو تغيير في كليهما، لأن كلاًّ منهما تحتفظ بخواصّها سالمةً من التغيير. لذلك فهما تُعدّان أيضاً. والعدد لا يُدخل عليهما انفصالاً، فإنّ المسيح واحدٌ وكاملٌ في لاهوته وناسوته. والعددُ لا يكون سبب انفصال أو اتحاد، بل إشارة إلى كميّة المعدودات، أمجموعة كانت أم متفرّقة. فهي تكون مجموعة إذا قلنا مثلاً إنّ في هذا الحائط خمسون حجراً، وتكون متفرّقة إذا قلنا: في هذا السهل خمسون حجراً مطروحاً.

وتكون أيضاً مجموعة إذا قلنا : إنّ في الجمرة طبيعتين : النار والخشب وتكون متفرّقة إذا قلنا : إنّ طبيعة النار غير طبيعة الخشب . ولهذا الجمع والتفريق طُرُق شتى لا دخل فيها للعدد .

إذاً على نحو ما أنّه لا يمكن القول بأن أقانيم اللاهوت الثلاثة – ولو كانوا متّحدين بعضهم في بعض – هم أقنوم واحد ، ذلك لئلا نجعل اختلاطاً وبلبالاً في تباين الأقانيم ، كذلك قُلْ أيضاً عن طبيعتَي المسيح المتّحدتين في الأقنوم ، لأنّه لا يمكن القول بأنهما طبيعة واحدة ، لئلا نجعل تباينهما يؤول إلى البلبال والاختلاط والعدم .

في أنّ الطبيعة الإلهيّة كلَّها ، في أحد أقانيمها ، اتحدت بالطبيعة البشريّة كلّها وليس جزء منها بجزء

الجوهر والطبيعة كلاهما بكاملها في الأقانيم : – إنّ المشترَك والشاملَ يعمُّ الجزئيات الخاضعة له. ومن ثمّ فإنّ الجوهر شيء مشترك لكونه نوعاً ، أمّا الأقنوم فهو جزئيّ. وهو جزئيّ لا لأنّه جزء من الطبيعة ، بل لأنّه جزء بالعدّ وهو فرد فيقال إنّ الأقانيم متباينة بعددها لا بطبيعتها. ويشتمل الجوهر على الأقنوم لأنّ الجوهر كامل في كلّ من الأقانيم المتساوين في النوع. لذلك فالأشخاص لا يتباين بعضهم عن بعض في جوهرهم ، بل في أعراضهم التي هي ميزاتهم الخاصّة ، ميزات الشخص لا الطبيعة. وتحديد الشخص جوهر مع أعراضه. حتى أنّ للشخص ما هو عام مع ما يخصّصه وأنّه يوجد في ذاته. أما الجوهر فهو لا يقوم بذاته بل يشاهَد في الأشخاص. إذاً إذا تألّم أحد الأشخاص يكون الجوهر كلّه متألّماً. وإنّ ذاك الذي يكون متألّماً يقال له متألّماً في أحد أشخاصه. ولكن ليس ضرورياً من ثمّ أن يتألّم أيضاً جميع الأشخاص المساوين في النوعيّة للشخص المتألّم.

في المسيح يتّحد اللاهوت كلّه في الناسوت كلّه. والطبيعة البشريّة المتّخذة هي على مثال تلك المجبولة أوّلاً : – وعليه نعترف بأنّ طبيعة اللاهوت موجودة كلّها بأكملها في كلّ من أقانيمه ، كلّها في الآب وكلّها في الابن وكلّها في الروح القدس. لذلك فإنّ الآب إله كامل والابن إله كامل والروح القدس إله كامل. وهكذا نقول أيضاً إنّ في تأنّس أحد الثالوث الأقدس كلمة الله ، تتّحد كل طبيعة اللاهوت الكاملة في أحد أقانيمها بكلّ الطبيعة البشريّة. وليس جزءٌ بجزء. ويقول الرسول الإلهيّ : «فيه يحلُّ كل ملءِ اللاهوت جسديًّا»[٢١] أي في جسده. ويقول ديونيسيوس تلميذه اللابس الله والجزيل المعرفة بالإلهيّات : «لقد شاركنا مشاركة كليّة في أحد أقانيمه». وليس من ضرورة إلى القول بأنّ جميع الأقانيم – أي الثلاثة – قد اتّحدوا بجميع أشخاص البشريّة بحسب الأقنوم ، أمّا الآب والروح القدس فلم يشتركا بأيّ معنى كان في تجسُّد كلمة الله سوى بمسرّتهما ورضاهما. ونقول إنّ جوهر اللاهوت كلَّه قد اتّحد بطبيعة الناسوت كلّها ، ولم يستثنِ الله الكلمة

---

(٢١) كولوسي ٢ : ٩

شيئاً ممّا غرسه في طبيعتنا لمّا جبلنا في البدء، بل اتّخذ الكلّ: جسداً ونفساً عاقلةً وناطقةً وكل ميزاتها. فان في انتقاص أحدهما حصولاً على حيوان لا إنسان. فإنّ كلّه قد اتّخذني كلّي، وكلّه قد اتّحد بي كلّي، كي يُنعم بالخلاص على الكلّ، لأن لا شفاءَ لما لم يُتَّخذ.

للعقل الرئاسة في الإنسان: – إذاً لقد اتّحد كلمة الله بجسد، بواسطة العقل الذي هو وسط بين صفاء الله وكثافة الجسد، لأنّ للعقل قيادة النفس والجسد. وصفوةُ النفس العقل وصفوة العقل الله. وعندما يخضع عقل المسيح للأفضل يُعلن بذلك رئاسته الخاصة، فينغلب للأفضل ويتبعه ويعمل بما تريده المشيئة الإلهيّة.

وقد صار عقله، في أقنومه، محلّ اتحاد لاهوته به. ومن الواضح أنّ جسده أيضاً كذلك. ولم تصر مساكنة، كما يضلّ تفكير الهراطقة الخبيث بقولهم: إنّ المُدَّ لا يتَّسع لمدّين، معبّرين بذلك تعبيراً جسديًّا عمّا هو منزَّهٌ عن المادة. ومن ثمّ كيف يُقال بأنّ المسيح إله كامل وإنسان كامل، وانه مساوٍ للآب ولنا في الجوهر، اذا اتّحد فيه جزءٌ من طبيعته الإلهيّة بجزء من طبيعته البشريّة؟

الطبيعة البشريّة في المسيح خاصّة، لا عامّة: – ونقول إنّ طبيعتنا قد أُقيمت من بين الأموات وأُصعدت وجلست عن ميامن الآب، لا من حيث إنَّ جميع البشر قد جلسوا عن ميامن الآب، بل من حيث إنّ كلّ طبيعتنا قد جلست في أقنوم المسيح. ويقول الرسول الإلهيّ: «وأقامنا معه وأجلسنا معه في المسيح»[٢٢].

كيف لم تتألّم طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسّدة: – ونقول هذا: إنّ الاتحاد قد صار من جوهرين عامّين. فإنّ كل جوهر يكون عامًّا للأشخاص الذين يشملهم. ولا يمكن إيجاد طبيعة أو جوهر جزئيّ وخاصّ، لئلا نضطرّ إلى القول بأنّ الأشخاص أنفسهم متساوون وغير متساوين معاً في الجوهر، وإلى القول أيضاً بأنّ الثالوث الأقدس – بالنسبة إلى لاهوته – متساوٍ وغير متساوٍ في الجوهر. لذلك نشاهدُ الطبيعة نفسها في كل أشخاصها. وعندما نقول مع اثناسيوس وكيرلّس المغبوطَين إنّ طبيعة الكلمة تجسّدتْ، نعني أنّ اللاهوت يتّحد بجسد. لذلك لا نستطيع القول بأنّ طبيعة الكلمة تألّمت. فإنّ اللاهوت فيه لا يتألّم. ولكن نقول بأنّ المسيح قد تألّم في الطبيعة البشرية، حتى عندما نلفظ **طبيعة الكلمة** نعني الكلمة نفسه. والكلمة حاصل على ما هو عام في الجوهر وعلى ما هو خاصّ في الأقنوم.

(٢٢) أفسس ٢: ٦

في أقنوم كلمة الله الواحد المركّب

أقنوم الكلمة قبل التجسّد وبعده : - نقول بأنّ أقنوم كلمة الله الإلهيّ متقدّم على الزمن والأزل. وهو بسيط وغير مركّب وغير مخلوق ولا جسدَ له ولا يُرى ولا يُمسّ ولا يُحصر. له كل ما للآب - بما أنّه مساوٍ له في الجوهر - ومتباينٌ عن الأقنوم الأبويّ بطريقة الوجود والانتساب. هو كامل الوجود ولا ينفصل البتّة عن الأقنوم الأبويّ. وإنّ الكلمة هذا، في آخر الأيام، - بدون أن يبارح الأحضان الأبوية -، قد حلّ حلولاً غير محصور في أحشاء البتول القديسة، بدون زرع وبطريقة لا تُدرَك، كما شاء هو، واصطنع فيها بذاته لأقنومه الأزليّ جسداً من البتول القديسة.

أقنوم الكلمة البسيط أضحى بالتجسّد مركّباً : - كان إذاً في الكلّ وفوق الكلّ. ولمّا صار في أحشاء أُمّ الله القديسة، بل فيها، بفعل تجسّده، حينئذٍ تجسّد منها فاتخذ باكورة عجنتنا جسداً حيًّا بنفس ناطقة وعاقلة، حتى أنّ هذه الباكورة تحظى بأقنوم للجسد هو أقنوم كلمة الله الذي كان أولاً بسيطاً - لكونه أقنوم الكلمة - وقد صار مركّباً من طبيعتين كاملتين لاهوتٍ وناسوتٍ. ويحمل إليها السمة الخاصة المميّزة، سمةَ بنوّة الله الكلمة التي يتميّز فيها عن الآب والروح، وسماتِ الجسد الخاصّة والمميّزة التي يختلف فيها عن أمّه وسائر البشر، ويحمل أيضاً خصائص الطبيعة الإلهيّة التي يتّحد فيها بالآب والروح وميزات الطبيعة البشريّة التي يتّحد فيها بأمّه وبنا. وأيضاً هو يختلف عن الآب والروح وعن أمّه وعنّا لكونه هو نفسه إلهٌ وإنسان معاً. ونحن نعرف هذا الاختصاص الخاص جداً في أقنوم المسيح.

ولادة المسيح من أمّه لأجلنا تفوقنا : - وعليه نعترف بالمسيح وحده أنّه ابن الله بعد التأنّس أيضاً وأنه هو هو نفسه ابن الإنسان، مسيحٌ واحد وربٌّ واحد، وحده الابن الوحيد وكلمة الله يسوع ربّنا، مكرّمين ولادته المزدوجة : الأولى، من الآب قبل الدهور وفوق العلّة والنطق والزمن والطبيعة. والأُخرى، في آخر الأيام، لأجلنا وعلى مثالنا وبما يفوقنا. فهي لأجلنا، لأنّها صارت لأجل خلاصنا. وهي على مثالنا، لأنّ إنساناً وُلد من امرأة وبمقتضى زمن الحمل. وهي بما يفوقنا، لأنّ الولادة ليست من زرع، بل من الروح القدس ومن مريم البتول القدّيسة بما يفوق شريعة الحمل. فلسنا إذاً نبشّر بإله وحسب، مجرّد

عن الناسوت الذي فينا ، ولا بإنسان وحسب ، نازعين عنه لاهوته ، ولا بكذا وكذا غير ذلك ، بل بواحدٍ هو هو نفسه إلهٌ وإنسان معاً ، إله كامل وإنسان كامل ، كلّه إله وكلّه إنسان ، وهو نفسه كلّه إله حتى مع جسده ، وكلّه إنسان حتى مع لاهوته السامي . وبقولنا إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً ، نُعلن ملء الطبيعتين وعدم انتقاصهما . وبقولنا كلّه إلهاً وكلّه إنساناً ، ندلّ على وحدة الأقنوم وعدم انقسامه .

طبيعة كلمة الله الواحدة والمتجسّدة : – ونعترف بأنّ طبيعة الله الواحدة قد تجسّدت . وبقولنا **تجسّدت** نعني مع المغبوط كيرلّس **جوهر الجسد** . وعليه إنّ الكلمة قد تجسّد ولم يتخلَّ عن **لاماديّته** الخاصة . وقد تجسّد كلّه وكلّه غير محصور . **فهو** جسديًّا يصغر ويتقلّص ، وهو إلهيًّا غير محصور ، فلا يتّسع جسده للاهوته غير المحصور .

إذاً هو كلُّه إله كامل – لا الكلّ إله – فإنّ الله ليس وحده بل هناك إنسانٌ أيضاً . والإنسان كلّه كامل – لا الكلّ إنسان – لأنّ الإنسان ليس وحده بل هناك الله . فإنّ لفظة **الكلّ** دليل على الطبيعة ، ولفظة **كلّه** ، على الأقنوم . كما أنّ لفظة **الغير** دليل على الطبيعة ولفظة **غيره** ، على الأقنوم .

نفوذ الطبيعتين فيه من قبل اللاهوت : – واعلمْ أنّنا ، إذا كنّا نقول بنفوذ طبيعتَي الربّ إحداهما في الأخرى ، فإنّنا نعتقد بأنّ النفوذ واقع من قبل الطبيعة الإلهيّة ، لأنّ لهذه أن تَعبُرَ في الكلّ كما تشاء ولا يمكنْ شيئاً أن ينفذ فيها . وإنما هي أيضاً تمنح الجسد مفاخرها الخاصّة وتلبث هي بلا انفعال ، غير متأثّرة بآلام الجسد . فإذا كانت الشمس – وهي تمنحنا قواها الخاصة – تبقى دون أن تشاركنا تأثرنا ، فكم بالأحرى صانع الشمس وربّها !

ردّ على القائلين : – في تحديد عدد الطبائع ، هل يعتبر اتصالها أم انفصالها؟

ان ساويرس في برهانه يتجاوز الهدف : – إذا تساءَلَ أحدُهم عن طبيعتَي الربّ ، هل عددهما يعتبر بالنسبة إلى اتصالها أم بالنسبة إلى انفصالها ، فنجيب بأنّ طبيعتَي الرب ليستا جسماً واحداً ولا سطحاً واحداً ولا خطّ مساحةٍ واحداً ولا زماناً ولا مكاناً ، لكي تخضعا للكميّة المتّصلة ، لأنّ هذه هي كل المعدودات عدًّا متّصلاً .

واعلمْ أنّ العدّ يكون للأشياء المختلفة ، ولا يمكنُ عدُّ الأشياء التي لا اختلاف فيها . خذ مثلاً بطرس وبولس ، فهما – من حيث يتّحدان – لا يُعدّان ، لأنهما يتّحدان نظراً إلى جوهرهما ، ولا يمكن القول بأنهما طبيعتان . ولكن – فلأنهما يختلفان من حيث الشخصيّة – يقالُ بأنهما شخصان ، حتى أنه لا عدّ بدون اختلاف ، وعلى نحو ما يقوم الاختلاف يكون العدّ .

التمييز في طبيعتَي المسيح : – إذاً فإنّ طبيعتَي المسيح متّحدتان في أقنومه بلا اختلاط ، ومتميّزتان بلا انفصال بمعنى اختلافها ونوعه . وهما تُعدّان نظراً إلى تمييزهما ، لأنّ طبيعتَي المسيح اثنتان بمعنى اختلافها ونوعه وهما متّحدتان في الأقنوم . ولمّا كان لها النفوذ احداهما في الأخرى بلا اختلاط فهما متّحدتان ومحتفظةٌ كلٌّ منهما باختلافها الطبيعيّ الخاصّ . ومن ثمّ فنظراً إلى خلافها وإليه وحده هما تُعدّان وتقدّر بذلك كميّة تمييزهما .

كيف السجود لجسد المسيح : – إذاً إنّ المسيح واحد وهو إله كامل وإنسان كامل . ونحن نسجد له مع الآب والروح بسجدة واحدة مع جسده الطاهر ، ولسنا نقول بعدم السجود لجسده لأنّ السجود حاصل في أقنوم الكلمة الواحد الذي صار أقنومه نفسه . ومن ثمّ لسنا بساجدين لخليقة ، فإنّنا لسنا نسجد له على أنه مجرّد جسدٍ ، بل على أنه متّحد باللاهوت ، في وجه واحد وفي أقنوم كلمة الله الواحد المتواجد بطبيعتين اثنتين .

أنا أخشى أن أمسّ الجمرة لتواجد النار فيها ، وأنا أسجد للمسيح بما فيه من ازدواج ، لأنّ لاهوته متّحد بجسده . إذاً أنا لستُ بواضع وجهاً رابعاً في الثالوث . حاشى ! بل أنا أعترف بوجه كلمة الله الواحد وبجسده . والثالوث يبقى ثالوثاً حتى بعد تجسُّد الكلمة .

ردّ على من يسأل إذا كان ثمّة طبيعةٌ خاليةٌ من شخص

إذا لم يكن ثمّةً من طبيعة خالية من شخص – أو جوهر خالياً من وجه – لأنّ الطبيعة أو الجوهر يُشاهَدان في الأشخاص أو الوجوه ، بيد أنه ليس من ضرورة – في حال اتحاد طبيعتين إحداهما بالأخرى في أقنوم – أن تحصل كلّ منهما على أقنومها الخاصّ بها ، لأنه يمكنهما – في حال تلاقيهما في أقنوم واحد – أن لا تكونا خاليتين من أقنوم ولا حاصلتين كلٌّ منهما على أقنوم خاص ، بل أن يكون لهما أقنوم واحد هو هو نفسه لكلتيهما . فإنّ الكلمة قد صار أقنوماً لكلا الطبيعتين ، لا من حيث اتّفق أن تظلّ إحداهما بلا أقنوم ولا من حيث أن حدث شذوذ وذلك بأن تكون الطبيعتان متباينتَي الشخصية في ما بينهما ، ولا من حيث أن يكون الأقنوم تارةً لهذه وأخرى لتلك ، بل ظلّ هو أقنومَ هذه وأقنوم تلك بلا تمييز ولا انفصال ، بلا تقسيم ولا تبديد ، جزءٌ منه هنا لهذه وجزء منه هناك لتلك ، بل كلّه لهذه وكلّه لتلك ، باقٍ بلا انقسام وباقٍ بكامله . فلم يتقنّم جسد كلمة الله تقنيماً خاصاً ، ولم يكن أقنومٌ آخر غير أقنوم كلمة الله الذي يتقنّم فيه ، وبالأحرى يصير فيه أقنوماً . ولم يكن في حدّ ذاته أقنوماً قائماً بذاته . لذلك فإنّ المسيح لم يخلُ قط من أقنوم ، ولم يُدخِل في الثالوث أقنوماً آخر .

في النشيد المثلّث التقديس

الإضافة المنسوبة إلى بطرس القصار : – فنقرّر من ثمّ بأنَّ الإضافة التي ألحقها الغبيّ بطرس القصار بالنشيد المثلّث التقديس كفرٌ ، لأنها تأتينا بأقنوم رابع ، **فتضع ابن الله وقوّة** الآب الأقنوميّة من جهة ، والمصلوب من جهة أخرى على أنه غير القويّ . أو هي تُمجّد الثالوث الأقدس المتألّم ، صالبة الآب والروح القدس مع الابن . فبُعداً لهذا الكفر وهذا الهذيان !

الأسماء الإلهيّة العامّة : – أمّا نحن فننسب لفظة **قدّوس الله** إلى الآب ، غير فارزين اسم اللاهوت له وحده ، بل مدركين أنّ الابن إله والروح القدس كذلك . ولفظة **قدُّوس القويّ** نجعلها للابن ، غير نازعين القوّة عن الآب والروح القدس . **ولفظة قدّوس الذي لا يموت** نخصّصها للروح القدس ، غير تاركين الآب والابن بمعزل عن الخلود ، بل ناسبين إلى كلّ من الأقانيم كلّ الأسماء الإلهيّة نسبةً بسيطة وعامّة ، مقتدين بالرسول الإلهيّ القائل : «لنا إله واحد الآب الذي منه كلُّ شيء ونحن إليه ، وربّ واحد يسوع المسيح الذي به كلّ شيء ونحن به» [٢٣] . ومتشبّهين بغريغوريوس اللاهوتيّ الذي هو ليس بأقلّ من الرسول في تعبيره حيث يقول : «ولنا ربّ واحدٌ الآب الذي منه كل شيء وربّ واحد يسوع المسيح الذي به كلّ شيء وروح قدّوس واحد فيه كلّ شيء» . فلفظة منه وبه وفيه ليس من شأنها أن تفصل الطبائع – لأنّ على حروف الجرّ هذه أن لا تتبدّل أو على الكلمات أن لا يتغيّر ترتيبها – بل هي لتمييز خصائص الطبيعة الواحدة بدون تشويش . وهذا واضح من أنّ الحروف هذه تعود فترجع إلى واحدٍ لدى قراءة ذلك بتأنٍّ في الرسول نفسه القائل : «كل شيء منه وبه وإليه . فله المجد مدى الدهور . آمين» [٢٤] .

النشيد المثلّث التقديس موجّه إلى الثالوث الأقدس لا إلى الإبن وحده : – يشهد الأحبار الإلهيّون أثناسيوس وباسيليوس وغريغوريوس وكلّ خورس الآباء اللابسيّ الله أنّ النشيد المثلّث التقديس لا يُقال في الابن فحسب ، بل في الثالوث الأقدس . فإنّ السارافيم

---

(٢٣) ١ كور ٨ : ٦ (٢٤) رومة ١١ : ٣٦

القدّيسين في تقديسهم المثلّث يُظهرون لنا الأقانيم الثلاثة للاهوت الفائق الجوهر، ويعرّفوننا بوحدة السيادة ووحدة المُلك لرئاسة الثالوث الإلهيّ. وعليه يقول غريغوريوس اللاهوتيّ: «وهكذا إذاً، فإنّ أقداس الأقداس التي هي محجوبة عن السارافيم أيضاً وتتلقّى التمجيد بتقديسات مثلّثة تجتمع في سيادة واحدة ولاهوت واحد. وهذا ما قد استنتجه أيضاً مَن كانوا قبلنا من السلف الصالح وذلك بأقوال أكثر جمالاً وأعلى سموًّا».

تقليد الكنيسة/عن هذا النشيد، في عهد بروكلُس الحبر: – وعليه، فقد أجمع المؤرّخون الكنسيّون على القول بأنّ الشعب القسطنطيني، في عهد رئيس الأساقفة بروكلس، فيمَا كان يقوم بابتهال لإبعاد محنة إلهيّة، وإذا بطفلٍ من الشعب قد اختُطف بالروح وتلقّن – بتعليم ملائكي – النشيد المثلّث التقديس على النحو التالي: «قدّوس الله. قدّوس القويّ. قدّوس الذي لا يموت. ارحمنا». ولمّا عاد الصبيّ إلى وعيه، أخبر بما تعلّم. فأخذ الجمهور كلّه يترنّم بالنشيد فتوقّفت المحنة للحال. وفي المجمع المقدّس العظيم المسكونيّ الرابع، أعني الخلقيدوني، قد تمَّ تسليم النشيد المثلّث التقديس كما هو للترنيم، وعلى هذا النحو قد صار تدوينه في أعمال المجمع المقدّس المذكور. إنها إذاً لسخريّة مضحكة حقاً أنّ النشيد المثلّث التقديس الذي أشار به الملائكة وتحقّق بوحي من إرشادهم وتثبّت رسميًّا في مجمع آباءٍ جزيلٌ عددهم وكان قبلاً قد ترنّم به السارافيم، على أنه يوضح أقانيم اللاهوت الثلاثة، ينتهي به الأمر إلى أن يوطَأَ بتفكير سخيف من القصار، ومن ثمّ يكون عرضةً لإصلاحه من مغالاة السارافيم! فيا للاعتداد بالذات، حتى لا أقول: يا للغباوة! – أمّا نحن فإننا نتابع الهتاف هكذا، ولو خَزِي الشياطين، ونقول: «قدّوس الله. قدّوس القويّ. قدّوس الذي لا يموت. ارحمنا».

في الطبيعة ، نظراً إلى النوع وإلى الفرد . وفي الفرق بين الاتحاد والتجسُّد . وفي مفهوم «طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسّدة»

معاني الطبيعة ثلاثة : - تُفهم الطبيعة إمّا بنظرة تجريد - وهي لا قوام لها في ذاتها - وإمّا بنظرةٍ تشمل جميع الأشخاص المتساوين في النوع - ويُقال لها طبيعةٌ منظورة في نوعها - وإمّا بنظرة كليّة مأخوذة مع الأعراض في شخص واحد - ويقال لها طبيعةٌ منظورة في فرد - وهي أيضاً منظورة في نوعها . إذاً إنّ الله لم يتّخذ في تجسّده طبيعة بمعنى نظرة تجريد ، لأنّ هذا ليس تجسّداً . إنْ هو إلاّ إيهامُ تجسّد وخداع . ولم يتّخذ أيضاً طبيعةً منظورة في نوعها ، لأنه لم يتّخذها موجودة في كل الأشخاص ، بل اتخذها فريدة في نوعها وهي باكورةُ عجنتنا وغير قائمة بذاتها ، ولا كانت أولاً فرداً ثم اتخذها على ما هي عليه ، بل هي اتخذت وجودها في أقنومه ، لأنّ أقنوم كلمة الله نفسه قد صار أقنوماً للجسد . وبهذا المعنى **صار الكلمة جسداً** بدون استحالة ، وصار الجسدُ الكلمة بدون تغيير ، وصار الله إنساناً . فإنّ الكلمة إله ، والإنسان إله - بسبب اتحادهما في الأقنوم - . ومن ثمّ يمكن القول بأنّ طبيعة الكلمة هي هي الطبيعة في الفرد . وإنّ هذا وحده يوضح الفرد أو الأقنوم إيضاحاً حقيقياً ، لا ما هو عامّ في الأشخاص ، بل الطبيعة العامة في أحد أشخاصها منظورة وممحَّصة .

الفرق بين الاتحاد والتجسُّد : - الاتحاد إذاً شيءٌ والتجسُّد شيء آخر . والاتحاد يدلّ على الارتباط وحده . أمّا ما هو هذا الارتباط فغير وارد . أمّا التجسُّد - وهو نفسه يقال له التأنّس - فيوضح الارتباط بجسد أو بإنسان ، مثلما تدلُّ حرارة الحديد على اتحاده بالنار .

إيضاح لكيرلّس نفسه عن «طبيعة الكلمة الواحدة المتجسّدة» : - وعليه إنّ المغبوط كيرلّس ، في رسالته الثانية إلى صوكنصين ، يقول هكذا ، وهو يفسّر عبارة «طبيعة كلمة الله الواحدة المتجسّدة» **Μία φύσις τοῦ θεοῦ Λόγου σεσαρκωμένη** :

«لو كنّا قلنا : **طبيعة الكلمة الواحدة** وصمتنا ، غير مُضيفين إليها **المتجسّدة** ، بل أعرضنا بذلك عن التدبير ، ربما كان لمن يحاجّون بسؤالاتهم كلامٌ أيضاً غير مستنكر ، وإذا كان الكلّ طبيعة واحدة ، فأين الكمال في الناسوت؟ أو كيف حصل الجوهر الذي هو على مثالنا؟ ولكن بما أنّ الكمال في الناسوت وإيضاح الجوهر الذي هو على مثالنا قد حصلا

بقولنا **المتجسّدة**، فليكفّ إذاً هؤلاء عن وضع قضيب من قصب مكانهما ! ». – إنّ كيرلّس إذاً يستعمل هنا **طبيعة الكلمة** بدل الطبيعة. فلو كان قد استعمل **الأقنوم** بدل الطبيعة، لما كان مستنكراً أن يقول ما قاله بمعزل عن **المتجسّدة**. وإننا لا نتردّد في قولنا جازمين. **أقنوم كلمة الله الواحد**. وكذلك فإنّ لاونديوس البيزنطي أيضاً قد فهم بأنّ ما يُقال عن **الطبيعة** ليس بمضادّ لما يُقال عن **الأقنوم**. والمغبوط كيرلّس – في احتجاجه على تفنيد ثاودوريتوس بشأن الحرم الثاني – يقول هكذا : «إنّ طبيعة الكلمة أي الأقنوم، وهو الكلمة نفسه». لذلك فإنّ المقولِ بطبيعة الكلمة لا يعني الأقنوم وحده ولا ما هو عام للأقانيم، بل الطبيعة العامة في أقنوم الكلمة باعتبارها ككلّ.

نخبة من التعابير المعتاد سماعها والمقبولة : – إذاً إنها لعبارةٌ تُقال **بأنّ طبيعة الكلمة قد تجسّدت** أو **أنّها اتحدت بجسد**. ولم نسمع قطّ حتى الآن أنّ طبيعة الكلمة تألّمت بالجسد. لكننا تعلّمنا **أنّ المسيح تألّم بالجسد**. ونستنتجُ من هذا أنه لا يبدو أنّ القول بطبيعة الكلمة يعني الأقنوم. بقي إذاً أن نقول **بأنّ التجسّد هو الاتحاد بجسده، وإنّ الكلمة يصير جسداً** هو **أنّ أقنوم الكلمة نفسه يصير جسداً بدون استحالة**. – وإنّه يقال **بأنّ الله صار إنساناً وصار الإنسان إلهاً**. لأنه لمّا كان الكلمة إلهاً فقد صار إنساناً بدون تغيير. أمّا أن يقال بأنّ **اللاهوت** صار إنساناً أو أنه تجسّد أو أنه تأنّس فلم نسمعه قط. وقد تعلّمنا بأنّ **اللاهوت قد اتحد بالناسوت في أحد أقانيمه**. ويقال **إنّ الله يتنكّر** أو **يتجوهر بالغريب** أو **بما هو على مثالنا**. فإنّ كلمة **الله** تصحّ في كل الأقانيم، أمّا كلمة **لاهوت** فلا يمكننا قولها عن **أقنوم** لأنّنا لم نسمع بأنّ كلمة **لاهوت** تُقال في الآب وحده ولا في الابن وحده ولا في الروح القدس وحده. لأنّ اللاهوت يدلّ على الطبيعة والآب يدلّ على الأقنوم كما يدلّ الناسوت على الطبيعة وبطرس على الشخص. وإنّ كلمة **الله** تعني ما هو عام في الطبيعة وتدلّ بالتساوي على كل الأقانيم، وكذلك كلمة **إنسان**. فإنّه هو الله ذاك الذي يحصل على طبيعة إلهيّة، وهو إنسان ذلك الحاصل على الناسوت.

واعلمْ أنّه في كل ما تقدّم بحثه لم يشترك الآب والروح القدس في التجسّد في حال من الأحوال، ما عدا المعجزات والمسرّة والرضى أيضاً.

في أنّ البتول القدّيسة والدةُ الله ، خلافاً للنساطرة

القدّيسة مريم في الحقيقة والحقّ والدة الإله – ضد فالنتينوس وغيره – **لأنّ جسد المسيح متّخذ من مريم** . – إنّنا نُذيع في أنّ البتول القديسة هي حقًّا وحقيقةً والدة الإله . لأنّ المولود منها إله حقيقيّ . ولعمري إنها في الحقيقة والدة الإله تلك التي ولدت الإله الحقيقي المتجسّد منها ، ليس على أنّ لاهوت الكلمة قد أخذَ بدءَ وجوده منها ، بل على أنّ كلمة الله نفسه – بصفته مولوداً من الآب ولادةً أزليّة قبل الدهور وبصفته كائناً لا بدءَ له منذ الأزل مع الآب والروح – قد سكن في أحشائها في آخر الأيام لأجل خلاصنا وتجسّد منها بغير استحالة وولد . فلم تلد البتول مجرّد إنسان بل إلهاً حقيقيًّا ، لا بسيطاً بل متجسّداً ، لا متّخذاً جسمه من السماء ومارًّا بها كما بقناة بل متّخذاً منها جسداً مساوياً لنا في الجوهر ومتقنّماً فيه . فلو كان الجسد قد أُوتي به من السماء ولم يُتَّخذ من طبيعة على مثالنا ، فما هي الفائدة من التأنّس؟ لأنّ التأنّس قد جرى لهذا السبب وهو أنّ الطبيعة نفسها التي أخطأتْ وسقطتْ وفسدتْ ، هي هي نفسها تغلبُ المتسلّطَ الخدّاع وتتحرَّرُ بذلك من الفساد ، على ما يقول الرسول الإلهيّ : « بما أنّ الموت بإنسانٍ ، فبإنسانٍ أيضاً قيامة الأموات » [٢٥] . وعليه لمّا كان الشطر الأول صادقاً ، فيكون الثاني كذلك .

وإذا كان الرسول يقول أيضاً : «آدم الأول من الأرض أرضيّ ، وآدم الثاني من السماء سماويّ» [٢٦] ، فهو لا يقول بأنّ جسد آدم الثاني من السماء ، بل واضح أنه ليس إنساناً بسيطاً ، فهوذا يسمّيه **آدم** ويسمّيه **ربًّا** ، دالاًّ على طبيعتيه كلتيهما ، لأنّ كلمة **آدم** معناها **أرضيّ** – وواضح أنّ طبيعة الإنسان أرضيّة وهي التي قد جُبلت من تراب – . أمّا كلمة **ربّ** فدليل على جوهره الإلهيّ .

جسد المسيح قد تكوّن من مريم : – ويقول الرسول أيضاً : «قد أرسل الله ابنه الوحيد مولوداً من امرأة» [٢٧] . فهو لم يقل **بامرأة** بل **من امرأة** . فقد أشار إذاً الرسول الإلهيّ إلى أن الإله ابن الله الوحيد الجنس هو نفسه قد صار إنساناً من البتول وأن المولود من البتول هو

---

(٢٥) ١ كور ١٥ : ٢١ (٢٦) ١ كور ١٥ : ٤٧ (٢٧) غلا ٤ : ٤

نفسه إله ابن الله وهو قد وُلد ولادة جسديّة على قدر ما صار إنساناً ، ليس ساكناً في إنسان سبق تكوينه كسكناه في نبيّ ، بل هو نفسه قد صار إنساناً في الجوهر والحقيقة ، أي أنّه قَنَّمَ في أقنومه جسداً حيًّا بنفس ناطقة وعاقلة فصار هو نفسه أقنوماً له . فإنّ هذا هو معنى **مولود من امرأة** . وكيف يا تُرى قد صار كلمة الله نفسه تحت الناموس إذا لم يكن قد صار إنساناً مساوياً لنا في الجوهر ؟

تسمية مريم والدة الإله توضح السرّ بكامله : – ومن ثمّ فإنه لعدل وحقّ أن نسمّي القديسة مريم **والدة الإله** Θεοτόκος ، لأنّ هذا الاسم يوطّد سرّ التدبير كلّه ، فإذا كانت الوالدة والدة الإله ، فالمولود منها إلهٌ بكامله وإنسانٌ أيضاً بكامله . وإلاّ كيف قد وُلد من امرأة الإله الذي له الوجود قبل الدهور ، إذا لم يكن إنساناً ؟ وإنه لواضح أنّ ابن الإنسان إنسان . وإذا كان المولود من امرأة هو نفسه إله فتتضح وحدة المولود من الله الآب بحسب الجوهر الإلهيّ والأزليّ والمولود في آخر الأيام من البتول بحسب الجوهر الذي بدؤه في الزمن أي الناسوت . وهذا مما يدلّ على أقنوم واحد وطبيعتين وولادتين في ربّنا يسوع المسيح .

تجنّب الآباءُ تسميتها «والدة المسيح» : – وإننا لا نُسمّي أبداً البتول القديسة والدةَ المسيح Χριστοτόκος . والسبب في ذلك أنّ نسطوريوس ، لكي يمحو كلمة **والدة الإله** ويحطَّ من كرامة مَن هي حقاً والدة الإله وكريمةٌ فوق الخليقة كلها ، استنبط هذا اللقب ، احتقاراً لها . فإنّ داود الملك أيضاً مسيحٌ وهٰرون رئيسُ الكهنة كذلك . ويُطلق هذا اللقب على الملك والكاهن ، بل إنّ كل إنسان لابسَ الله Θεοφόρος يمكن تسميته مسيحاً ، ما عدا مَن هو الله بالطبيعة وقد ولدته العذراء الذي تجاسر نسطوريوس وسمّاه لابس الله . أمّا نحن ، فحاشا لنا أن نسمّيه لابسَ الله ، حتى إنّنا لا نفكّر بذلك بل نسمّيه إلهاً متجسّداً .

في أثناء الحبَل به اتحدت الطبيعة البشريّة بالكلمة : – وقد صار الكلمة نفسه جسداً ، إذ لمّا حُبِل به من البتول ، أقبل الإله مع اتخاذ طبيعتنا ، فكانت تتألّه به حالما كانت تخرج إلى الوجود ، حتى إنّ أموراً ثلاثة كانت تتمّ معاً بفعل الكلمة : الاتخاذ والتكوين والتأليه . وبذلك يمكننا أن نفهم ثم نقول إنّ البتول القدّيسة هي والدة الإله ، ليس بسبب طبيعة الكلمة الإلهيّة فحسب ، بل أيضاً بسبب تألّه الناسوت وإنه حالما صار الحبل به تمّت أعجوبة التكوين ، ذلك أنّ الحبل بالكلمة ووجود الجسد في الكلمة نفسه قد حصلا فيما

كانت أُمّ الله نفسها – بما يفوق الطبيعة – تقدّم للجابل ما ينجبل به ، ولله صانع الكلّ ما يتأنّس به ، مؤلّهاً ما اتخذه له ، مع محافظته على اتحاد المتّحدَين كما كانا عليه وهما يتّحدان. ولستُ أقول ذلك عن اللاهوت فحسب ، بل عن ناسوت المسيح أيضاً – عمّا فيه يفوقُنا وعمّا فيه على مثالنا –. فإنّ المسيح لم يكن أولاً على مثالنا ثم صار على ما يفوقنا ، بل كان دائماً – ومنذ تكوينه – الاثنين معاً. لأنه منذ بدء الحبل به كان حاصلاً على وجوده في الكلمة نفسه. فهو إذاً بشرٌ بموجب طبيعته الخاصّة وإلهيّ بالله بما يفوق الطبيعة. وكان له علاوةً على ذلك ميزات الجسد الحيّ وكان قد اتخذها الكلمة له – في منطق تدبيره – مخلوقة خلقاً طبيعيًّا بالحقيقة و بمقتضى المجرى الطبيعي.

في خصائص الطبيعتين

في أنّ في المسيح مشيئتين وفعلين : – فيمَا نعترف بأنّ ربّنا يسوع المسيح هو نفسه إله كامل وإنسان كامل ، نقول بأنّ له هو نفسه كلّ ما للآب ما عدا عدم الولادة ، وأنّ له كلّ ما لآدم الأول ما عدا الخطيئة وحدها ، ذلك أنّ له جسداً ونفساً ناطقةً وعاقلة ، فإنّ له هو هو نفسه – في مقابل الطبيعتين الاثنتين – الخواصّ الطبيعيّة لكلّ من الطبيعتين الاثنتين : أي مشيئتين طبيعيّتين اثنتين ، إلهيّة وإنسانيّة . وفعلين طبيعيين اثنين ، إلهي وإنساني . وحريّتين طبيعيّتين اثنتين ، إلهيّة وإنسانيّة . وحكمةً ومعرفةً إلهيّتين وانسانيّتين . فهو مساوٍ لله الآب في الجوهر ويشاء ويفعل بحريّة الله . وبما أنه مساوٍ للانسان في الجوهر ، فهو يشاء ويفعل بحريّة كالإنسان نفسه . فالعجائب عجائبه والآلام آلامه .

في ازدواجيّة مشيئة ربّنا يسوع المسيح وحرّيّة تصرّفه

لكل جوهر إرادته وفعله: - إذاً بما أنّ للمسيح طبيعتين فإنَّ له أيضاً مشيئتين طبيعيّتين وفعلين طبيعيّين، وبما أنّ أقنوم طبيعتيه واحدٌ، فنقول بأنّ المسيح ربّنا واحدٌ أيضاً وهو الذي يشاءُ ويفعل طبيعيًّا كلّ ما يشاؤه ويفعله بحسب كلتا الطبيعتين وانطلاقاً منهما وفيهما. فهو يشاء ويفعل في كلّ من الصورتين بمشاركة الأُخرى، وعلى ما يكون جوهرُ الأشياء نفسه تكون مشيئة الأشياء ويكون فعلها أيضاً. وعلى ما يكون تباينُ جوهر الأشياء يكون تباينُ الإرادة والفعل. وبعكس ذلك، على ما هي الإرادة وعلى ما هو الفعل يكون الجوهر نفسه. وعلى ما هو تباين الإرادة والفعل يكون تباين الجوهر نفسه.

لذلك فإننا نعرف في الآب والابن والروح القدس هويّةَ الطبيعةِ نفسها من هويّةِ الفعل والمشيئة نفسها. وإنّنا نعرف تباين الطبيعتين في التدبير الإلهيّ من تباين الفعلَين والمشيئتين. وإذا ما فهمنا تباينَ الطبيعتين فنعترف أيضاً بتباين المشيئتين والفعلين. وكما أنّ عدد الطبيعتين في المسيح الواحد نفسه - إذا ما فُهم بروح التقوى وبُشِّر به - لا يُقسم المسيحُ الواحد بل هو يركّز أيضاً تباينَ الطبيعتين تركيزاً سالماً في الاتحاد، كذلك أيضاً عدد المشيئتين والفعلين المتواجد تواجداً جوهريًّا في طبيعتيه. فقد كان لكلتا الطبيعتين نصيبٌ في خلاصنا - إنْ بالمشيئة وإنْ بالفعل - ولم يُدخل ذلك انقساماً. حاشا. لكنّ هذا يدلّ فقط على حفظهما وسلامتهما في الاتحاد. وإننا نعني بذلك المشيئتين والفعلين في الطبيعتين لا في الأقانيم. وأقول بأنّ القوّة التي تشاء وتفعل هي نفسها التي بموجبها يشاءُ ويفعل من يشاء ويفعل. لأنّنا إذا سلّمنا بذلك للأقانيم، نُضطرُّ إلى القول بتباين في أقانيم الثالوث الأقدس من حيث المشيئة والفعل.

مردُّ المشيئة والفعل، تجريداً، للطبيعة وبالواقع، للأقنوم: - واعلمْ أنّ الإرادة وكيفيّة الإرادة ليستا شيئاً واحداً. فإنّ الإرادة مردُّها للطبيعة على نحوِ ما هو النظرُ الذي ينعمُ به جميعُ البشر. أمّا كيفيّة الإرادة فليس مردُّها للطبيعة، بل لحكمنا، على نحو ما هي كيفيّة النظر، حسنة أم رديئة. فليس كلّ الناس متساوين في الإرادة وليس كلّهم متساوين في النظر. وهذا ما نسلّم به بشأن الأفعال أيضاً. فإنّ كيفيّة الإرادة وكيفيّة النظر وكيفيّة الفعل

هي طريقة استعمال الإرادة والنظر والفعل المتاحة لمستعملها وحده وهي تميّزه عن غيره على مقتضى التباين المنطقيّ عموماً.

معاني المشيئة ومشتقّاتها: - يُقال إذاً للمشيئة بالتجريد إرادة أو القوّة المُريدة لأنّ تحديدَها المشيئة الطبيعيّة. أمّا كيفيّة المشيئة أو الواقع تحت المشيئة فيسمّى المراد أو الإرادة الحاكمة، وهي قدرةٌ مريدةٌ للإرادة الغريزيّة، مثلاً الطبيعةُ الإلهيّة هي قدرة مريدة وكذلك الطبيعة البشريّة. والمستعمِلُ الإرادة هو مُريد وهو الشخص، مثلاً بطرس.

المشيئة في المسيح مزدوجة. أمّا كيفيّتها فواحدة: - وعليه لمّا كان المسيحُ واحداً وكان أقنومه واحداً، فهو نفسه واحد وهو يريد بإرادته الإلهيّة وإرادته البشريّة. ولمّا كانت له طبيعتان مُريدتان وعاقلتان - لكونهما ناطقتين، فإنّ كل مُريد عاقل هو حرّ - فنقول فيه بأنّ له إرادتين. وهما إرادتان طبيعيّتان. لأنه هو نفسه مريد عاقل بحسب طبيعتيه كلتيهما. فقد اتّخذ القوّة المريدة العاقلة الموجودة طبيعياً فينا. و بما أنّ المسيح واحد وأنه هو نفسه المريدُ في كلٍّ من الطبيعتين، فإننا نقول فيه بأنّ مراده هو هو نفسه، لا على أنه يريد فقط ما يريده طبيعياً بصفته إلهاً - فإنّ ليس من شأن اللاهوت أن يريد الأكل والشرب وما شاكلها... - بل إنه يريد أيضاً مقوّمات الطبيعة البشريّة - ليس بمجرّد معارضة حكم - بل في مشاركة الطبيعتين. وحينئذٍ يكون قد أراد هذه الأمور إرادةً طبيعيّة، إذا ما شاءت مشيئته الإلهيّة وأتاحت للجسد أن ينفعل ويَعمل ما يختصّ به.

الإرادة طبيعيّة في الإنسان: - ومن ثمّ يتّضح أنّ الإرادة متواجدةٌ في الإنسان طبيعياً. وإذا استثنينا الإلهيّة، فهناك ثلاثة أنواع من الحياة: النامية والشاعرة والعاقلة. وميزة النامية حركة التغذية والنموّ والولادة. ويختصّ بالشاعرة الاندفاع إلى الحركة. وميزة الناطقة والعاقلة الحريّة. إذاً فإذا كان بموجب الطبيعة أنّ الغاذية تتواجد في النامية، والاندفاع إلى الحركة يتواجد في الشاعرة، كم بالأحرى إذاً أنه بموجب الطبيعة أيضاً أنْ تتواجد الحريّة في الناطقة والعاقلة. والحريّة ليست سوى الإرادة. وعليه لمّا صار الكلمة جسداً حيًّا عاقلاً وحرًّا، صار أيضاً ذا إرادة.

زدْ على ذلك أن الأمور الطبيعية ليست موضوعاً للتعليم، فإنه ليس مَن يحاورُ في تعليم الإنسان أن يحيا أو أن يجوع أو أن يعطش أو أن ينام. وكذلك لا نتعلّم بأن نريد لأنه طبيعيّ أن نريد.

وأيضاً إذا كانت العجماوات تُسيِّرها الطبيعة، فإنّ الإنسان تسيِّره حريته بدافع من إرادته. فالإنسان إذاً مريد بالطبع.

ما الحريّة إلاّ الإرادة نفسها: - وأيضاً، لمّا كان الإنسان قد خُلق على صورة اللاهوت السعيد الفائق الجوهر، ولمّا كانت الطبيعة الإلهيّة حرّة بالطبع ومريدة، فإن الإنسان إذاً - بما أنه على صورته - هو أيضاً حرّ ومريد بالطبع. والآباء قد حدّدوا الحريّة بأنها الإرادة.

وأيضاً إذا كان لكل الناس أن يريدوا، وليس فيهم مَن له هذا وفيهم مَن ليس له، وأنّ ما يُشاهد عموماً في الجميع من شأنه أن يرسم الطبيعة التي هي في الأفراد الخاضعين له، إذاً فإنّ الإنسان مريد طبعاً.

زدْ على ذلك أنه لمّا كان معنى الطبيعة لا يحتمل الزيادة والنقصان، وبالمثل لمّا كان في استطاعة الجميع أن يريدوا وأن يريدوا فحسب - ليس هؤلاء أكثر وأولئك أقلّ - فإنّ الإنسان إذاً مريدٌ بالطبع. وفي النتيجة، إذا كان الإنسان مريداً بالطبع، فإنّ الربّ أيضاً كذلك، هو مريد بالطبع ليس فقط من حيث هو إله بل أيضاً من حيث إنه قد صار إنساناً، لأنه على نحو ما اتخذ طبيعتنا فقد اتخذ كذلك مشيئتنا. وقد قال الآباء في ذلك: إنه قد رسم مشيئتنا في ذاته.

وإذا لم تكن المشيئة طبيعيّةً فهي إمّا أقنوميّة وإمّا خارجة عن الطبيعة. لكن في حال أنها أقنوميّة يكون الابن مغايراً للآب في إرادته - لأن ما كان أقنومياً فهو لا يختصّ إلاّ بأقنوم واحد -. وفي حال أنها خارجة عن الطبيعة فتكون المشيئة سقوطاً خارج الطبيعة، لأنّ ما هو خارج الطبيعة يكون مفسداً لِما هو بحسب الطبيعة.

إنّ الآب إلهُ الكلّ يشاء، إمّا من حيث هو إله وإمّا من حيث هو الآب. فإذا كان يشاء من حيث هو الآب فتكون مشيئته غير مشيئة الابن - لأنّ الابن ليس آباً -. وإذا كان يشاء من حيث هو الله والإبن هو الله والروح القدس هو الله، إذاً فالمشيئة من الطبيعة وهي طبيعيّة.

أيضاً - وكما يقول الآباء -: لو كانت مشيئة المسيح واحدة لكان الجوهران واحداً ولكانت مشيئة لاهوت المسيح واحدة مع مشيئة ناسوته. إذاً لكان أيضاً جوهرهما نفسه واحداً.

وأيضاً - وكما يقول الآباء -: لو لم يظهر تباين الطبيعة في المشيئة الواحدة لوجب على

القائلين بمشيئة واحدة أن لا يقولوا بتباين طبيعيّ، أو، إذا قالوا بتباين طبيعي، أن لا يقولوا بمشيئة واحدة.

أضف إلى ذلك أنه – كما يقول الإنجيل الإلهيّ – إذا كان الربّ «ذهب إلى تخوم صور وصيدا ودخل بيتاً ولم يرد أن يعلم به أحد فلم يقدر أن يستتر»[٢٨]، ذلك أنه لو كانت مشيئته الإلهيّة لكان قادراً على كل شيء، ولكن – بما أنه شاء أن يستتر ولم يقدرْ – فيتحتّم أنه، من حيث هو إنسان، شاء ولم يقدر، وأنه هو مريدٌ أيضاً من حيث هو إنسان.

ويقول الإنجيل أيضاً: – «ولمّا بلغوا به إلى المكان...، قال: أنا عطشان»[٢٩]. «فأعطَوه خمراً ممزوجة بمرارة فذاق ولم يرد أن يشرب»[٣٠]. إذاً، لو أنه عطش بصفته إلهاً وذاق ولم يرد أن يشرب لكان حتماً عرضة أيضاً للألم بصفته إلهاً. فإنّ العطش انفعال وكذلك الذوق أيضاً. أمّا إذا لم يكن ذلك بصفته إلهاً، لكنه عطش بصفته إنساناً، فقد كان مريداً أيضاً بصفته إنساناً.

طاعةُ المسيح دليلٌ على إرادته وخضوعه: – ويقول المغبوط بولس: «وصار مطيعاً، ومطيعاً حتى الموت، موت الصليب»[٣١]. فالطاعة هي الانقياد التام أو غير التام. والذي لا نطقَ له ليس مطيعاً، ولا يدخل في عداد المطيعين. وقد كان الربّ مطيعاً للآب، ليس بصفته إلهاً بل بصفته إنساناً. فهو – بصفته إلهاً – ليس مطيعاً ولا غيرَ مطيع. وعلى ما قاله غريغوريوس اللابس الله: «إنّ هذه الأمور تختصّ بمن هم تحت يد غيرهم». فالمسيح إذاً مريدٌ بصفته إنساناً.

الإرادةُ الطبيعيّة حرةٌ: – وبقولنا **إرادة طبيعيّة** لا نعني بأنها مسيَّرة بل هي حرّة، لأنها لمّا كانت ناطقة فهي حتماً حرّة. فليست الطبيعة الإلهيّة غير المخلوقة فقط غير مسيّرة، ولا كذلك الطبيعة المخلوقة. وهذا واضح. فكون الله صالحاً بالطبع وخالقاً بالطبع وإلهاً بالطبع، هذا كلّه ليس بالاضطرار. ومَن يا ترى يكون مسيِّرُ الاضطرار؟

الحريّة في الله شيءٌ وفي الملائكة شيءٌ آخر وفي البشر شيءٌ آخر: – واعلمْ بأنّ الحريّة متساوية إسماً ومختلفة فعلاً. فهي في الله غيرُها في الملائكة وغيرُها في البشر. هي في الله تفوق الجوهر وهي في الملائكة تجاري سرعتهم التنفيذيّة التي لا يتخلّلها زمن مطلقاً. و بما أنّ الحريّة

---

(٢٨) مرقس ٧: ٢٤ (٢٩) يوحنّا ١٩: ٢٨ (٣٠) متّى ٢٧: ٣٤ (٣١) فيلبي ٢: ٨

طبيعيةٌ فيهم ، فهم يمارسونها بلا عرقلة لا من نفور الجسد ولا من مقاومته . أمّا في البشر فسرعة تنفيذ الحريّة تتطلّب وقتاً للتفكير ، لأنّ الإنسان حرّ والحريّة فيه طبيعية وفيه أيضاً دافعٌ من الشيطان وفيه حركة الجسم . فإذاً بسبب هذا الدافع وبطء الجسد يتأخّر التنفيذ عادة .

لماذا وجب أن يتّخذ الكلمة الإرادة البشرية الحرّة : - إذا كان آدم قد شاء فأطاع وقد شاء فأكل ، فيكون إذاً بدءُ الداء فينا من المشيئة . وإذا كانت المشيئة هي المتألّمة الأولى فينا وكان الكلمة - في تجسده - لم يتخذْها مع الطبيعة ، نكون نحن إذاً لم نصر في معزل عن الخطيئة .

وأيضاً إذا كانت قوّة الطبيعة الحرّة عمله ، وهو لم يتّخذْها ، فيكون ذلك إمّا لأنّه راذلٌ صنعه الخاص ، على أنه غير حسن ، وإمّا أنه - حسداً منه على شفائنا منها - حرمنا من الشفاء التامّ ، مظهراً ذاته أنه تحت الانفعال ، على أنه لم يرد أو لم يستطع أن يخلّصنا خلاصاً كاملاً .

لا يمكن تأليف مشيئة تكون إلهيّة وبشريّة معاً - لا يمكن الكلام عن شيء واحد يكون مركّباً من مشيئتين ويشابه أقنوماً مركّباً من طبيعتين ، ذلك أولاً لأنّ التركيب يصير من كائنات قائمة في ذاتها ، وليس ممّا هي تشاهد في غيرها ، لا في ذاتها . ثانياً إذا تكلّمنا عن تركيب في المشيئتين والفعلين ، فنضطرّ إلى التكلّم عن تركيب في كلّ من الخواصّ الطبيعية : في غير المخلوق والمخلوق ، في غير المنظور والمنظور ، وما شاكل ذلك ... وكيف يا ترى نُسمّي المشيئة المركّبة من مشيئتين؟ ... فإنّنا لا يمكنّا أن نطلق عليها اسم ما هو مركّب منهما ! وإلاّ فإننا نحمل أيضاً بذلك على تسمية المركّب من طبيعتين : **طبيعة ولا أقنوم** ! أمّا إذا قلنا أيضاً بمركّبٍ واحدٍ في المسيح ، فنحن نفصله بذلك عن مشيئة الآب ، لأنّ مشيئة الآب ليست مركّبة . بقي علينا إذاً أن نقول بأنّ أقنوم المسيح وحده مركّبٌ ومشاعٌ لطبيعتَيه ولخواصّها الطبيعيّة .

في المسيح ، لا عزم ولا اختيار سابقان ، بالمعنى الحصريّ : - لا يمكنُ الكلام عن عزم واختيار سابقين في المسيح ، إذا أردنا أن نتكلّم بحصر المعنى . فإنّ العزمَ هو جزم بعد البحث عن المجهول والرغبة فيه أو هو بعد مشورة وحكم في موضوع الحكم . ويأتي بعده الاختيار السابق ، القائم بتفضيل شيء واتخاذه بدل شيء آخر . أمّا الربُّ فليس هو مجرّد إنسان ، بل هو الله أيضاً . وليس هو بحاجة إلى تروٍّ وبحثٍ ومشورة وتمييز ، وكان له من طبيعته الخير

اختصاصاً وعن الشرّ بعادٌ. وهذا ما قاله أشعيا النبيّ: «لأنه قبل أن يعرف الصبيُّ أن يرذل الشرّ ويختار الخير، أي قبل أن يعرف الصبيّ الخير والشرّ، يبتعد عن الشرّ ويختار الخير»[٣٢] فإنّ لفظة «**قبل أن**» تدلّ على أنه لا يبحث ويقرّر على طريقتنا، لكن، بما أنه إلهٌ، فهو يمنح إلهيًّا التقنّم للجسد. وهذا يعني أنه يتّحد في الجسد بأقنومه. وهو حاصل على الخير بكيانه ذاته وعلى المعرفة كلّها. فإنّ الفضائل كلّها طبيعية وهي على التساوي في الجميع – ولو كان الجميع لا يفعلون بالتساوي ما هو من الطبيعة –، لأنّنا بالمخالفة قد سقطنا مما هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضد الطبيعة. والربُّ قد قادنا ممّا هو ضدّ الطبيعة إلى ما هو بمقتضى الطبيعة. وهذا هو معنى «على صورته كمثاله»[٣٣]. ومفهوم التقشّف ومشقاته ليس لأجل اقتناء فضيلة دخيلة من خارج، بل لأجل نزع الشرّ الذي هو الدخيل وهو ضدّ الطبيعة. مَثَلُ ذلك مثل الصدإ في الحديد– وهو ليس فيه طبيعيًّا –لكن إذا تعبنا في نزع ما حصل عليه من جرّاء الإهمال، فنعيد إليه نضارة الحديد الطبيعيّة.

واعلم أنّ كلمة (γνώμη = عزم) كثيرة الاستعمال وكثيرة المعاني وهي تدلّ حيناً على التحريض كما قال الرسول الإلهيّ: «أمّا البتوليّة فليس عندي فيها وصيّة من الربّ، لكني أفيدكم فيها **مشورة**»[٣٤]، وحيناً على مكيدة، كما هو لمّا يقول داود النبيّ: «على شعبك ائتمروا **كيداً**»[٣٥]، وحيناً على حكم، كما جاء في دانيال: «لِمَ هذا **القضاء** الشديد؟»[٣٦]، وحيناً على الإيمان أو الرأي أو العاطفة. وبالاختصار إنّ لهذه الكلمة ثمانية وعشرين معنىً في التداول.

---

(٣٢) أشعيا ٧: ١٥ (٣٣) تكوين ١: ٢٦ (٣٤) ١ كور ٧: ٢٥ (٣٥) مز ٨٢: ٤
(٣٦) دانيال ٢: ١٥

١٠٤٥ - ١٠٦١ * الرأس الخامس عشر * المقالة التاسعة والخمسون

في أنّ في ربّنا يسوع المسيح فعلين

فعلُ المسيح مزدوجٌ طبعاً : – نقول بأنّ في ربّنا يسوع المسيح فعلين ، لأنّ له على التساوي – بصفته إلهاً مساوياً للآب في الجوهر – ، الفعل الإلهي ، وله – بصفته إنساناً مساوياً لنا في الجوهر – فعلَ الطبيعة البشريّة .

تحديد الفعل ومشتقّاته : – واعلمْ أنّ الفعل بالقوّة ἐνεργεία شيءٌ والفعلَ الفعّال ἐνεργητικόν شيءٌ آخر ، والمفعول ἐνέργημα شيءٌ آخر ، والفاعل ὁ ἐνεργῶν شيءٌ آخر . فالفعل بالقوّة هو حركة الطبيعة الفاعلة الجوهرية ، والفعلَ الفعّال هو الطبيعة التي يصدر منها الفعل ، والمفعول هو حصيلة الفعل ، والفاعل هو الذي يفعل الفعل أو الأقنوم . ويقال أيضاً للفعل مفعولاً وللمفعول فعلاً ، مثلاً : يقال للمخلوق خَلْقاً فنقول هكذا : كلُّ الخلقِ ونعني المخلوقات .

واعلمْ أنّ الفعل حركة ، وهو يُفعَل به أكثر مما يَفعل ، كما يقول غريغوريوس اللاهوتي في كلامه عن الروح القدس : «ومذ يكون الفعل يكون الانفعال – ذلك واضح – وينتهي مع الانفعال» .

ويجب أن تعلم أنّ الحياة ذاتها فعلٌ ، بل هي الفعل الأول للحيّ ، بل هي تدبير الحيّ كلّه ، للتغذية كان أم للنموّ ، ذلك في الميدان الطبيعيّ . وهي الحركة في الاندفاع أي في الإحساس ، وهي الحركة العاقلة والحرّة . والفعل كمال القوّة . فإذا شاهدنا هذه الأمور كلها في المسيح نقول حينئذٍ بفعل بشريّ فيه .

أنواع الفعل الأخرى نظراً إلى الاتحاد الحاصل في المسيح : – إنّ الهجس الأول الذي يقوم فينا يُسمّى فعلاً . وهو فعلٌ بسيط وبدون ارتباط ، ذلك عندما يُطلِق العقلُ في ذاته هواجسه الخاصة بلا وضوح وهو بدونها لا يستحقّ أن يسمّى عقلاً . ويسمّى أيضاً فعلاً تبيانُ الكلام بلفظه وإيضاح معانيه ، وهو ليس بعدُ بدون ارتباط وبسيطاً ، بل هو ظاهرٌ في ارتباطه مركباً من هجس وكلمة . وأيضاً الارتباط نفسه هو للعامل على أن يكونَ الحدث هو أيضاً فعل . والشيء نفسه الذي يتمّ يُقال له فعلاً ، أَكان الإتمام مختصًّا بالنفس وحدها أو كان مختصًّا بالنفس في استعمالها الجسد أو كان مختصًّا بالجسد العائش في حياة عقليّة ، لأنّ

العقل – في نظره إلى ما سيكون – يفعل ذلك بواسطة الجسد. وعليه فإنّ السيطرة هي للنفس تستعمل الجسد بمثابة آلة لتسييره وتقويمه. أمّا فعل الجسد – الذي تدفعه النفس وتحركه – فهو غير ذلك، فإنّ الإتمام – بالنسبة إلى الجسد – لمسٌ وضبطٌ وكأنما هو استملاك، بينما هو – بالنسبة إلى النفس – شبهُ تصويرٍ وتصميم لما سيصير. والفعل في ربّنا يسوع المسيح هو على هذا النحو. فإنّ فعل العجائب هو لقوّة لاهوته. أمّا العمل بالأيدي والمشيئة والقول: «شئتُ فاطهر»[٣٧] هو فعل ناسوته. ومن أفعال ناسوته، كسر الخبزات وإسماع الأبرص: «شئتُ». أمّا من أفعال لاهوته، فتكثير الخبزات وشفاءُ الأبرص، فإنه بتفاعل النفس والجسد المتبادل قد اتّضح الفعل الإلهي بأنه واحدٌ وأنه هو هو في مصدره وأنه متساوٍ. فكما نعرف أنّ الطبيعتين متّحدتان، وأنّ لها النفوذ إحداهما في الأخرى، وأننا لا ننكر تباينهما، بل نعدّهما ونعرفُها غير منقسمتين، كذلك أيضاً نعرف ارتباط المشيئتين والفعلين ونقرّ بتباينهما ونَعدّهما ولا نُدخل فيهما انقساماً. فعلى نحو ما قد تألّه جسده ولم ينل طبيعتَه تغييرٌ، فعلى هذا النحو ذاته، إنّ المشيئة والفعلَ قد تألّها ولم يَخرجا عن حدودهما، لأنَّ هذا وذاك واحدٌ ولأنه هو نفسه الذي يشاء ويفعل على هذا النحو وعلى ذاك النحو أي إلهيًّا وبشريًّا.

نتيجة الطبيعتين تمييزُ الأفعال: – يتحتّم إذاً علينا أن نتكلّم عن فعلين في المسيح بسبب تثنية الطبيعة. فمَن كانت طبيعتُهم مختلفة يكون فعلهم أيضاً مختلفاً. ومَن كان فعلُهم مختلفاً تكون طبيعتهم مختلفة. وبعكس ذلك، من كانت طبيعتهم هي هي، يكون فعلهم واحداً، ومن كان فعلهم واحداً يكون جوهرهم واحداً، على ما جاء في الآباء المتكلّمين بالله. وعليه يجب اختيار واحد من اثنين: إمّا أنّ القائلين بفعل واحد في المسيح يقولون بالجوهر الواحد أيضاً، وإمّا – وإذا بحثنا عن الحقيقة – نعترفُ مع الإنجيل والآباء بالجوهرين، متّبعينهم في إجماعهم على الاعتراف بالفعلين المناسبين لها. فمن كان مساوياً لله الآب في الجوهر يكون مساوياً له بالفعل أيضاً، وهو نفسه لمّا كان مساوياً لنا في الناسوت، فهو مساوٍ لنا بالفعل. ويقول المغبوط غريغوريوس أسقف نيصص: «من كان فعلُهم واحداً حتماً تكون قوّتهم نفسها متساويةً». لأنّ كلّ فعل نتيجة قوّة، ولا يمكن وجود طبيعة واحدة أو قوّة واحدة أو فعل واحد من طبيعة غير مخلوقة ومخلوقة. وإذا قلنا بفعل واحد في المسيح، فننسب للاهوت المسيح آلام نفسه العاقلة أعني الخوف والحزن والنزاع.

---

(٣٧) متّى ٨: ٣

اعتراضات الأخصام والردّ عليها : – وإذا قالوا بأنّ الآباء القدّيسين – في جدالهم في الثالوث الأقدس – قد أعلنوا : «إنّ الذين جوهرُهم واحد يكون فعلهم أيضاً واحداً ، والذين جوهرهم متباينٌ يكون فعلهم أيضاً متبايناً» ، وإنه لا يجوز أن ننقل إلى التدبير ما يختصّ بعلم اللاهوت ، فنجيب : لو كانت أقوال الآباء في اللاهوت وحسب ، ولو كان فعل الابن – بعد التجسّد – ليس فعل الآب نفسه ، لكان جوهره أيضاً ليس جوهر الآب نفسه. ولمن إذاً ننسب هذا القول : «إنّ أبي حتى الآن يعمل وأنا أيضاً أعمل» [٣٨] ، وأيضاً : «ما يَرى الآب يعملُه... فهذا يعمله الابن أيضاً على مثاله» [٣٩] ، وأيضاً : «إذا لم تؤمنوا بي فآمنوا بأعمالي» [٤٠] ، وأيضاً : «الأعمال التي أنا أعملها تشهد لي» [٤١] ، وأيضاً : «لأنه كما أنّ الآب يُقيم الموتى ويحييهم كذلك الإبن يحيي مَن يشاء» [٤٢]. فان هذه كلّها ليستْ تُظهرُ – بعد تجسده – تساويه للآب في الجوهر فحسب ، بل هي تُظهر فعله أيضاً.

وأيضاً لمّا كانت العناية بالكائنات – بعد التجسّد – لا تختصّ بالآب والروح فحسب ، بل هي تختصّ أيضاً بالابن ، وبما أنّ – بعد التجسّد – هذا أيضاً فعلٌ ، فإنّ فعلَ الابن هو فعل الآب أيضاً.

وإذا كنّا نعرف من عجائب المسيح أنه مساوٍ للآب في الجوهر ، وكانت العجائب فعل الله ، إذاً فإنّ فعل المسيح – بعد تجسّده – هو فعل الآب.

لو كان فعل لاهوته وفعل جسده واحداً لكان هذا الفعل مركّباً ، ولكان للآب فعلٌ آخر أو كان الفعل مركّباً. ولو كان فعل الآب مركّباً لكانت طبيعته أيضاً كذلك ! ! !

وإذا زعموا بأنّ الأقنوم يُستنتجُ من الفعل فنجيب : – لو كان الأقنوم يُستنتج من الفعل لكان – بموجب المنطق السليم – يُستنتج الفعل أيضاً من الأقنوم. وحينئذٍ ، كما أنّ وجوه الثالوث الأقدس أو أقانيمه ثلاثة ، تكون كذلك الأفعال ثلاثة ، أو كما أن الفعل واحد يكون الفعل أو الأقنوم كذلك واحداً. لكنّ الآباء القدّيسين قد قالوا بصوت واحد : – إن كان جوهرُهم واحداً فيكون فعلهم واحداً.

وأيضاً ، لو أنّ الأقنوم يُستنتج من الفعل لكانت الأحكام القاضية بالسكوت عن فعل أو فعلين في المسيح لا تحدّد القول بأقنوم أو أقنومين.

---

(٣٨) يوحنّا ٥ :١٧ (٣٩) يوحنّا ٥ :١٩ (٤٠) يوحنّا ١٠ :٣٨ (٤١) يوحنّا ١٠ :٢٥
(٤٢) يوحنّا ٥ :٢١

مثلٌ مألوف لدى باسيليوس وغيره : – وكما تُصان طبيعتا النار والحديد في السكّين المحمّاة كذلك فعلاهما أيضاً ونتائجها . لأنَّ الحديد يبقى له قطعُه والنار حرقُها . والقطع نتيجة فعل الحديد ، والحرق نتيجة فعل النار . ويسلم تباينهما في القطع الحارّ وفي الحرق القاطع ، حتى أنه – بعد الاتحاد – لا يكون حرقٌ بدون قطع ولا قطعٌ بدون حرق . ومع ذلك فإننا لا نقول بسكّينين حارقتين بسبب ازدواج الفعل الطبيعي ، ولا نعمل على خلط فارقهما الجوهريّ بسبب وحدة السكين الحارقة . وهذا هو الحاصل أيضاً في المسيح . لأنّ فعله الإلهي القدير يعود إلى لاهوته وفعله الذي هو على مثالنا يعود إلى ناسوته . ونتيجة الناسوت بأن أمسك بيد الصبيّة وأنهضها . ونتيجة اللاهوت أن أحياها [٤٣] ، فإنّ هذا الفعل شيء وذاك شيء آخر ، وإن كان الفعلان لا يفترقان أحدهما عن الآخر في تصرّف **الرجل – الإله**.فلو كان أنه بسبب أن أقنوم الرب واحد كان فعله واحداً ، لكان أيضاً أنه بسبب وحدة الأقنوم أنّ الجوهر أيضاً واحد .

وأيضاً إذا قلنا بفعل واحد في المسيح نضطرُّ إلى القول بأنه إلهيّ أو بأنه بشريّ أو بأنه لا هذا ولا ذاك . فإذا قلناه إلهيًّا نعترف بأنّ المسيح إلهٌ فقط مجردٌ عن الناسوت الذي هو فينا . وإذا قلناه بشريًّا نكفر بقولنا إنه مجرّد إنسان . وإذا قلناه لا إلهيًّا ولا بشريًّا ، أي لا إلهاً ولا إنساناً فلا يكون مساوياً في الجوهر لا لله الآب ولا لنا . – إنّ هويّة المسيح قد تكوّنت من اتحاده في أقنومه بالجسد ، ولم يزل تباينُ الطبيعتين باقياً . ومن الواضح أنه ، بسلامة تباين الطبيعتين ، سلُم فعلاهما أيضاً ، لأن لا طبيعة بلا فعل .

الفعلُ الطبيعيُّ دليلٌ على الطبيعة : – لو كان فعل المسيح واحداً لكان إمّا مخلوقاً أو غير مخلوق ، ولا ثالث بينهما ، وكذلك قُلْ عن الطبيعة . فإنّ القول بأنه مخلوقٌ يوضح الطبيعة المخلوقة وحدها ، والقولَ بأنه غير مخلوق يُميّز الجوهر غير المخلوق وحده ، لأنه يتحتّم على الطبيعيّات أن تتجاوب مع الطبائع ، فلا يمكن أن يكون وجودٌ لطبيعة ناقصة . والفعل الذي هو بحسب الطبيعة لا يكون من خارج . وواضح أَن الطبيعة لا يمكنها أَن تكون ولا أن تُعرَف بدون الفعل الذي هو بحسب الطبيعة . ومن ثمّ كلٌّ تتأكّد طبيعته من فعله . وهذا لا مهرب منه .

ولو كانَ فعلُ المسيح واحداً لكان هو نفسه صانعَ الإلهيّات والبشريّات . ولكن لا يمكن

---

(٤٣) راجع لوقا ٨ : ٥٤ – ٥٥

أحد الكائنات – مع بقائه في مستوى طبيعته – أن يصنع المتناقضات. فإنّ النار لا تبرِّد وتسخِّن، ولا الماءُ ييبِّس ويرطِّب. فكيف إذاً مَن هو إله طبعاً وصار إنساناً طبيعة يمكنه أن يصنع المعجزات وأن يحتمل الآلام بفعل واحد؟

وعليه، إذا كان المسيح قد اتّخذ عقلاً بشريًّا – أي نفساً عاقلة وناطقة – فإنه يعقل حتماً ويعقل دوماً. وفعل العقل التفكير. فالمسيح إذاً يعمل بصفته إنساناً ويعمل دوماً.

آلام المسيح فعلٌ: – إن القدّيس العظيم يوحنا الذهبيّ الفم الجزيل الحكمة – في العظة الثانية من تفسيره أعمال الرسل – يقول هكذا: «لا يخطأُ من يسمّي آلام المسيح عملاً. لأنّ المسيح، في احتمالها كلها، قد أنجز ذلك الصنيع العظيم العجيب بتحطيمه الموت وصنعه الأشياء الأخرى كلّها».

مردُّ أفعال المسيح عموماً إلى الصورتين كلتيهما: – لمّا كان التقليدُ لدى الأرباب في الموضوع أنّ كل فعل هو الحركة الجوهريّة لطبيعةٍ ما، فأينَ رأى أحدٌ قط طبيعةً بلا حركة، أو بدون فاعليّة البتة، أو أين وجدَ فعلاً خالياً من حركة قوّته الطبيعيّة؟ فأَنْ يكونَ فعلُ الله الطبيعيّ وفعل خليقته واحداً لا يسلّم به ذو المنطق السليم، على ما قاله كيرلّس المغبوط. فإنّ الطبيعة البشريّة لم تمنح الحياة لألعازر، والقدرة الإلهيّة لا تبكي، لأنّ الدمع خاصّ بالناسوت، والحياة هي من اختصاص الحياة الأقنوميّة. لكنّ كلاًّ من هذه وتلك في الاشتراك معاً بسبب وحدة هوية الأقنوم. فإنّ المسيح واحدٌ وواحدٌ هو وجهه أو أقنومه. لكنه مع ذلك حاصلٌ على طبيعتين، لاهوته وناسوته. فمن اللاهوت إذاً يصدرُ المجد صدوراً طبيعياً، ويشملها كلتيهما بسبب وحدة هويّة الأقنوم، ومن الجسد تصدر الضعة التي تشملها كلتيهما أيضاً. ولأنّ هذا وذاك نفسيهما واحدٌ أيضاً – أي الإله والإنسان – فيخصّ هذا الواحد – ما للاهوت وما للناسوت. فمن جهة يعمل اللاهوت المعجزات، ولكن ليس من دون الجسد، ومن جهة أخرى يعمل الجسد الأمور الوضيعة، ولكن ليس بمعزل عن اللاهوت. فإنّ اللاهوت الذي استمرّ لا يتألّم كان متّحداً بالجسد المتألّم، والآلام أنجزت الأعمال الخلاصية. وكان العقل المقدّس الناظر إلى ما يحدث والمدرِك لها يعمل متّحداً بلاهوت الكلمة.

فإنّ اللاهوت كان يطفو بمفاخره الخاصة على الجسد ويبقى هو نفسه منزَّهاً عن آلام الجسد. فليس كما كان يفعل اللاهوت بالجسد كان كذلك جسده يتألّم بلاهوته، لأنّ

الجسد هو بمثابة آلة للاّهوت. وعليه، إذا كان المسيح منذ بدء الحبل به غير منفصلٍ البتة من كلتا الصورتين، بل كانت أعماله – في المدّة كلّها – صادرةً من شخص واحد بموجب كلتا الصورتين، فإننا مع ذلك لا نخلط في حال من الأحوال ما قد صار بلا انفصال، بل نشعر – من صفة الأعمال – ما هي ومن أية صورة هي.

كان الناسوت يفعل بمبادرة من اللاهوت: – وعليه فإنّ المسيح كان يفعل بحسب كلٍّ من طبيعتيه وكانت تفعل كل طبيعة بالاشتراك مع الأخرى. وكانت المبادرة للكلمة في عملٍ ما يختصُّ بالكلمة وكان الأمر والسلطة للاهوته في كل ما هو سيطرةٌ وتملُّك. أمّا الجسد فكان يعمل بأمر الكلمة المتّحد هو به – وقد أصبح هو شيئاً خاصاً به، فلم ينطلق من ذاته إلى الآلام الطبيعيّة ولا كان له من ذاته النفور والاستنجاد من المحزنات أو ممّا داهمه من خارج، بل سار في مساق الطبيعة حين شاء الكلمة وأطلق له – بحسب تدبيره – أن يتألّم ويعمل ما يختصّ به، لكي تفوز الحقيقة بالثقة بواسطة أعمال طبيعته.

كان المسيح ينجز البشريّات بطريقة إلهيّة، والإلهيّات بطريقة بشريّة: – وكما تجوهر – في الحبل به – تجوهراً يفوق الجوهر، كذلك كان يعمل أعمال البشر بما يفوق الإنسان. فقد مشى على الماء السائل بأقدامٍ ترابيّة – والماء باقٍ على حالته غير الترابيّة – لكنه انتصب واقفاً بقوّة لاهوته الفائقة الطبيعةً على ما قد تجمّد من ماء، دون أن يهوي تحت ثقل قدميه المادّيّتين. فلم يكن يعمل الأعمال البشريّة على الطريقة البشريّة، لأنه لم يكن إنساناً فحسب، بل إلهاً أيضاً. ولذا فقد كانت آلامه محيية وخلاصيّة. ولم يكن يعمل الإلهيّات على طريقة الله، لأنه لم يكن إلهاً فحسب، بل إنساناً أيضاً. ولذا فباللمس والكلام وغيرهما كان يصنع المعجزات.

جواب ذوي المشيئة الواحدة: – وإذا قالوا بأننا لسنا نقول بفعلٍ واحدٍ في المسيح لإزالة الفعل البشريّ، بل ذلك لأنه مسلّمٌ به أنّ الفعل البشريّ انفعالٌ يتناقض مع الفعل الإلهيّ، فبهذا المعنى نقول بفعل واحد في المسيح. ونحن نجيبُهم على حسب منطقهم هذا: – إنّ القائلين بطبيعةٍ واحدة هم أيضاً لا يقولون بها لإزالة الطبيعة البشريّة، بل ذلك لأنّ الطبيعة البشريّة في تناقض مع الطبيعة الإلهيّة المقولِ فيها بأنها منفعلة. أمّا نحن فحاشا لنا أن ندعو الحركة البشريّة انفعالاً لبُعادها عن الفعل الإلهي، بل نقول، على الإطلاق، بأنه ليس من وجود يُعرف ويحدّد بالمقابلة أو بالمعارضة مع غيره لأنّ بذلك تصبح الأعمال الكائنة نسبيّة العلّة. فإذا كان، بسبب أنّ الحركة الإلهيّة فعل، تكون الحركة البشريّة انفعالاً، فللسبب

نفسه تكون أيضاً الطبيعة الإلهيّة حتماً صالحة، وتكون الطبيعة البشريّة طالحة. وبموجب قاعدة العكس بالعكس، لسبب أنّ الحركة البشريّة تُسمّى انفعالاً، تسمّى الحركة الإلهيّة فعلاً. ولذلك تكون الطبيعة البشريّة طالحةً والطبيعة الإلهيّة صالحة. وهكذا تكون كل المخلوقات طالحة، ويكذب القائل: «ورأى الله جميع ما صنعه، فاذا هو حسن جداً» (٤٤).

الأسماء المختلفة الدالّة على الفعل البشريّ: – ونحن نقول بأنّ الآباء القدّيسين قد سمّوا الحركة البشرية تسميات كثيرة المظاهر بالنظر إلى ما لديهم من اعتبارات. فقد سمَّوها قوةً وفعلاً وتبايناً وحركةً واختصاصاً وصفةً وانفعالاً. وهي قوّة، لا على أنها نقيض القوّة الإلهيّة، بل على أنها طاقةٌ مستمرّة لا تتغيّر. وهي فعلٌ لأنها تميّز وتُظهر في ذاتها اللاتغيير الحاصل في جميع مماثليها. وهي تباينٌ، لأنها تمييز وهي حركة لأنها تشهير. وهي اختصاص، لأنها لذاتها وحدها وليس لغيرها. وهي صفة، لأنها تدليل على ذاتها. وهي انفعال لأنها متحركة. فإنّ كل ما هو من الله وبعد الله ينفعل لأنه محرّك، ذلك لأنّ حركته ليست في ذاته ولا قوّته منه. وهي ليست حتماً من تمييز، كما قيل، بل هي بسبب العلّة المنظّمة الكل التي صنعته ووضعتها فيه. ولذا فإنّ الآباء القدّيسين – بعد أن تكلّموا عن الفعل الإلهيّ – سمَّوا هذه الحركة فعلاً، لأن القائل: وتفعل كل صورة منها بالاشتراك مع الأخرى، لم يقل سوى ما قاله غيره: «فصام أربعين يوماً، وأخيراً جاع» (٤٥). لأنّ المسيح – حين شاء – أعطى للطبيعة أن تفعل ما يختصّ بها. أو قال بعضهم: «إنّ في المسيح فعلاً مختلفاً» أو «فعلاً مزدوجاً» أو «فعلاً وفعلاً». وكل هذا يدلّ باختلاف الاسم إلى فعلين اثنين، وكثيراً ما يعرف العدد باختلاف التسمية وبالقول «إلهيًّا وبشريًّا» فإنّ الخلاف خلافٌ مختلفين. أمّا غير الموجودات فكيف تختلف؟

---

(٤٤) تكوين ١ :٣١ (٤٥) متّى ٤ :٢

الردّ على من إذا قالوا بطبيعتين وفعلين في الإنسان، يجب القول بثلاث طبائع وكذلك بثلاثة أفعال في المسيح

كيف الإنسان هو من طبيعتين: - أجل، إنّ الإنسان، في كل شيء، مركَّبٌ من طبيعتين هما النفس والجسد وهما فيه لا يتغيّران ويُدعيان بحق طبيعتين. وتحتفظ كلٌّ منهما - بعد الاتحاد أيضاً - بخاصّتها الطبيعيّة. فإنّ الجسد ليس خالداً بل فاسد، ولا النفس مائتة بل خالدة. فليس الجسد غير منظور ولا النفس منظورة بالأعين الجسديّة. لكنّ هذه ناطقة وعاقلة ولاجسميّة، وذاك كثيفٌ ومنظورٌ وحيوانيّ. والمتميّزون في جوهرهم ليسوا من طبيعة واحدة. إذاً فإنّ النفس والجسد ليسا من جوهر واحد.

أضف إلى ذلك أنه إذا كان كل إنسان حيواناً ناطقاً ومائتاً، وإذا كان كل تحديد يُبيِّنُ الطبائع الدفينة وإذا كان - على حسب مفهوم الطبيعة - ليس الناطق شيئاً واحداً مع المائت، إذاً فإنّ الإنسان ليس من طبيعة واحدة، بحكم شريعة التحديد المألوف.

كل البشر من طبيعة واحدة أي من نوع واحد. وكلّ المخلوقات كذلك. أمّا المسيح فليس البتّة من طبيعة واحدة: - وإذا قيل أحياناً إنَّ للإنسان طبيعةً واحدةً، فإنّ كلمة **طبيعة** تؤخذ هنا بمعنى كلمة **نوع**، عندما نقول بأنّ الإنسان لا يختلف عن أي إنسان آخر بفارق من طبيعته، فإنّ لجميع الناس البنيةُ نفسها، وهم مركَّبون من نفس وجسد، وكلّ منهم متكامل بطبيعتين ويلتقون كلهم في تحديد واحد. ولسنا نغالي بهذا الكلام إذ «إنّ لكلّ المخلوقات - من حيث هي مخلوقة - طبيعةً واحدة»، كما قال الكاهن القدّيس أثناسيوس في خطابه ضدّ المجدّفين على الروح القدس. وقد تابع كلامه قائلاً: «وإنّ الروح القدس فوق الخليقة، وله غير طبيعة المبروءات، وله أيضاً أن يسبُر ما هو خاصٌّ باللاهوت». فإنّ كل ما يُرى شاملاً الكثيرين بدون زيادة في هذا ولا نقصان في ذاك يدعى جوهراً. إذاً، ولما كان كل إنسان مركّباً من نفس وجسد، فبناءً على ذلك يُقال بأن طبيعة البشر واحدة. أمّا في أقنوم الربّ، فلا نستطيع القول بطبيعة واحدة، أولاً، لأنّ - بعد الاتحاد أيضاً - كلاً من الطبيعتين تحتفظ باختصاصاتها الطبيعيّة. ثانياً، لأنه لا يمكن أن يوجد نوع من مسحاء، فإنه لم يكن مسيحٌ آخر من لاهوت وناسوت هو نفسه إلهٌ وإنسان.

أضف إلى ذلك أنه ليس شيئاً واحداً الفردُ في نوع الإنسان والفرد في جوهر النفس والجسد. فإنّ الفرد في نوع الإنسان هو ما لا يتغيّر في جميع البشر. أمّا الفرد في جوهرٍ من نفس وجسد فيزول وجودهما نفسه بدفعهما تماماً إلى اللاوجود، ذلك بأنّ الفرد يستحيل إلى جوهر غيره أو هما يصيران من شيئين شيئاً آخر فينصهران كلاهما أو في حال بقائهما على حدّيهما الخاصّين يكونان طبيعتين اثنتين. فإنّ الجسم – على مستوى الجوهر – ليس هو واللاجسمُ شيئاً واحداً. إذاً ليس من ضرورة لمن يقولون بطبيعة واحدة في الإنسان – وذلك ليس لأنّ صفة النفس والجسد الجوهريّة هي هي ذاتها، بل لوجود ما لا يتغيّر في الأفراد الواقعين تحت النوعيّة – أن يقولوا بطبيعة واحدة في المسيح، حيث ليس ثمّةَ نوعٌ يشمل أقانيم كثيرة.

وإنّ كلّ تركيب، على ما يقال أيضاً، يتركّب من مركّباته المباشرة، فلسنا نقول بأنّ البيت يتركّب من تراب وماء، بل من آجرّ وخشب، وذلك لئلا نضطر إلى القول بأن الإنسان مصنوع أقلّه من خمس طبائع هي العناصر الأربعة والنفس. وكذلك أيضاً في ربّنا يسوع المسيح. فإنّنا لا ننظُر إلى أجزاء أجزائه، بل إلى مركّبَيه المباشرين اللاهوت والناسوت.

إذا كنّا نحن من طبيعتين، فإنّ المسيح هو من ثلاث طبائع: – وإذا قلنا أيضاً بطبيعتين في الإنسان، فنضطرّ إلى القول بثلاث طبائع في المسيح. ونحن عندما نقول إنّ الإنسان من طبيعتين، نعتقد أنّ المسيح من ثلاث طبائع. وكذلك قلْ عن الأفعال، لأنه من الضرورة أن يكون لكلّ طبيعة فعلُها. و «الإنسان يُقال له وهو من طبيعتين – يشهد بذلك ويثبته غريغوريوس اللاهوتيّ قائلاً: والطبيعتان هما الإله والإنسان –، النفس والجسد». ويقول في كلامه في المعمودية: «لمّا كنّا مزدوجين، نفساً وجسداً، من طبيعة غير منظورة وطبيعة منظورة، فإنّ التنقية هي أيضاً مزدوجة، بالماء والروح».

في تألُّه طبيعة جسد الربّ ومشيئته

في تألُّه جسد المسيح: – واعلمْ أنّه يُقال بأنّ جسد الربّ قد تألّه وصار مساوياً لله وصار إلهاً، ليس أنه تعرّض لتبديل في الطبيعة أو تحويل أو تغيير أو تبلبل، بل ذلك – كما يقول غريغوريوس اللاهوتيّ – «إنّ أحدَهما قد أَلَّهَ والآخر قد تألَّهَ، وكلاهما متساويان في اللاهوت والماسح صار إنساناً والممسوح إلهاً». ذلك، ليس بتبديل طبيعة، بل باتحاد تدبيريّ، أعني الإتحاد في الأقنوم الذي به اتحد الجسد بلا انفصال بالله والكلمة والذي هو نفوذ كلٍّ من الطبيعتين في الأخرى، على نحو ما نتكلّم أيضاً عن نفوذ النار في الحديد. وكما نعترف أنّ التأنُّس قد حصل بمعزلٍ عن التبديل والتحويل، نعتقد أيضاً أنّ تألُّه الجسد قد حصل كذلك، لأنّ الكلمة – ولو صار جسداً – فهو لم يبتعد قط عن أرجاء لاهوته الخاص ولا عن مفاخره المرتبطة بلاهوته عن جدارة. والجسد كذلك – لمّا تألَّه – لم يتحوّل عن طبيعته الخاصة أو عن اختصاصاته الطبيعيّة. فإنّ طبيعتَي المسيح قد بقيتا – بعد الاتحاد أيضاً – غير منصهرتين، وخواصّها غير مثلومة، لأن جسد الربّ قد اكتسب الأفعال الإلهيّة بسبب اتحاده الأطهر بالكلمة – أي في الأقنوم – دون أن يتخلّى البتّة عن خواصّ طبيعته من جرّاء تأقنمه. فهو يفعل الإلهيّات، لا بموجب النشاط الخاص به، بل بسبب الكلمة المتّحد هو به. كما أنّ الحديد المُحمّى بالنار يحرقُ، لا لأنه حاصل من جرّاء طبيعته على قوّة الحرق، بل لأنه قد اكتسب ذلك من اتحاده بالنار.

في أنَّ المشيئة البشريّة قد تألّهت أيضاً: – إذاً فإنّ الجسد نفسه الذي كان مائتاً في ذاته، قد أضحى محيياً من جرّاء اتحاده أقنومياً بالكلمة. وبالمثل نقول أيضاً: إنّ تألّه المشيئة لم يكن عن تبديلٍ في حركتها الطبيعية، بل كان ذلك لأنها اتحدت بمشيئة الكلمة الإلهيّة الكاملة القدرة، فأصبحت مشيئة الإله المتأنّس. ومن ثم لمّا أراد المسيح مرة أن يتنكّر، لم يستطع ذلك من ذاته، فقد سُرَّ كلمة الله حينئذٍ أن يُظهر ضعف المشيئة البشريّة الكامن فيه (٤٦) وأنجز مرة أخرى تطهير الأبرص بسبب اتحاده بالمشيئة الإلهيّة (٤٧).

---

(٤٦) راجع مرقس ٧: ٢٤

(٤٧) راجع متّى ٨: ٣

واعلمْ أَنَّ تأليه الطبيعة والمشيئة لدليل و برهان ساطعان على أنّ الطبيعتين إثنتان والمشيئتين إثنتان. فكما أَنَّ الإحماء لا يُحوّل طبيعة الشيء المحمَّى إلى طبيعة النار، بل هو يدل على المحمَّى والمحمِّي، ولا يدلُّ على واحد لا غير، بل على شيئين اثنين، كذلك التأليه أيضاً، فهو لا يؤلّف طبيعة مركّبة واحدة، بل اثنتين وذلك باتحادهما في الأقنوم. لذلك يقول غريغوريوس اللاهوتيّ: «إنّ واحداً منهما يؤلّه والآخر يتألَّه». وبقوله «**منهما**» يظهر بأنهما اثنان: **الواحد والآخر**.

عودة إلى الكلام عن المشيئتين والاستطاعتين والعقلين والمعرفتين والحكمتين

إنّ الطبيعة البشريّة - وقد اتخذها المسيح - قد أضحت هي المنتصرة على الشيطان: - لمّا كنّا نقول بأنّ المسيح إلهٌ كاملٌ وإنسانٌ كاملٌ، فيتحتّم علينا أن نسلّم تسليماً تاماً بأنّ له من القوى الطبيعيّة كلّ ما هو للآب ولأمّه. فإنّ المسيح قد صار إنساناً لكي ينتصر ما كان مقهوراً. والذي هو قادرٌ على كل شيء لم يكن عاجزاً - نظراً إلى مطلق حريّته وقدرته - أن ينتصر بذاته للإنسان من الطاغية. ولكنَّ ذلك يكون عرضة لاحتجاج الطاغية على أنه - وقد كان المنتصر على الإنسان - قد أصبحت الغلبة لله. إذاً فلكي يُظهر الله المغلوب منتصراً، فقد شاء برأفته ومحبته للبشر أن يصير إنساناً ليُصلح المثل بالمثل.

إنّ للمسيح نفساً وعقلاً، خلافاً لقول الأبوليناريّين: - وليس ثمّةَ من يعترض على أنّ الإنسان حيوانٌ ناطق وعاقل. - إذاً كيف يكون المسيح إنساناً، إذا كان قد اتخذ جسداً بلا نفس أو نفساً غير عاقلة؟... - إنّ من كان هكذا فليس هو إنساناً! - وماذا نربح من تأنُّس المسيح إذا كان أول المتألّمين لم يخلصْ ولم يتجدّد ويتقوَّ بارتباطه باللاهوت؟ فإنه ليس من شفاء لمن لم يتخذْه المسيح! وعليه، فقد اتخذ المسيح الإنسان كلَّه مع أجمل ما فيه، ولو ساقطاً تحت الضعف - لكي يَهَبَهُ الخلاص كله. وإنه لم يكن قط عقلٌ بلا حكمة وخالٍ من المعرفة. فإذا كان العقل بلا نشاط ولا حركة فهو غير موجود البتّة.

العقلُ في الإنسان المخلوق على صورة الله وسطٌ بين كلمة الله والجسد: - إذاً لمّا أراد الله الكلمة أن يجدِّد فينا صورة الله، صار إنساناً. - وما هي يا ترى صورة الله سوى العقل؟... إذاً أيكون الكلمة قد أعرض عن الأفضل واتخذ الأدنى؟... فإنّ العقل في وسط بين الله والجسد. ونسبته إلى الجسد أنه ساكنٌ فيه. أمّا نسبته إلى الله فهو على صورته. إذاً فإنّ العقل يختلط بالعقل ويقف في الوسط بين صفاء الله وكثافة الجسد. فلو كان الربّ قد اتخذ نفساً غير عاقلة، لكان اتخذ نفسَ حيوان بلا نطق!

جوابٌ من الكتاب المقدّس على اعتراض الأبوليناريّين: - إذا كان الإنجيليّ قد قال بأنّ «الكلمة صار جسداً»، فليكن معلوماً أنه يُقال في الكتاب المقدّس عن الإنسان تارة **نفساً** - كما ورد في سفر التكوين، وكرّره كتاب الأعمال: «وأرسل يوسف فاستدعى

يعقوب أباه وجميع عشيرته خمسةً وسبعين **نفساً**»[٤٨]. – وتارة **جسداً** – كما جاء في أشعيا[٤٩] ولوقا: «ويعاين كل **جسد** خلاص الله»[٥٠]. فلم يصر الربُّ إذاً جسداً بلا نفس وبلا عقل، بل صار إنساناً. وهو نفسه يقول: «تطلبون قتلي وأنا **إنسانٌ** قد كلّمتكم بالحق»[٥١]) إذاً فإنّ المسيح قد اتخذ جسداً حيًّا بنفس ناطقة وعاقلة، هي تقود الجسد ويقودها لاهوت الكلمة.

إرادة المسيح البشرية خاضعةٌ لإرادته الإلهيّة: – كانت إذاً للمسيح الإرادة الطبيعيّة، إنْ بصفته إلهاً وإنْ بصفته إنساناً. وكانت البشريّات فيه تسير بقيادة إرادته الإلهيّة، غير مدفوعة بنزعة خاصة، بل مريدة ما كانت تشاؤه إرادته الإلهيّة. فلمّا أطلقت لها المشيئة الإلهيّة السبيل، تألّمت هي تألُّماً طبيعيًّا في حدود ما يختصّ بها. ولمّا استعفى الرب من الموت كان ذلك استعفاءً طبيعياً، بإرادةٍ وسماحٍ من مشيئته الإلهيّة. فاستعفى إذاً من الموت ونازع وجزع. ولمّا أرادت مشيئته الإلهيّة أن تقبلَ الموت مشيئتُه البشرية، كانت الآلام برضىً منها. فإنّ المسيح لم يسلّم ذاته للموت طوعاً، على أنه إلهٌ فحسب، بل كان ذلك على أنه إنسانٌ أيضاً. وقد منحنا أن نتشجَّع نحن أيضاً تجاه الموت وهو القائل قبل آلامه الخلاصيّة هكذا: «يا أبتِ، إنْ كان يُستطاع فلتعبُرْ عنّي هذه الكأس»[٥٢]. فمن الواضح إذاً أنه كان سيشرب الكأس بصفته إنساناً وليس بصفته إلهاً. فهو إذاً، بصفته إنساناً، قد أراد أن تبتعد عنه الكأس. وكانت هذه الكلمات عن فزع طبيعيّ. و «لكن لا تكن مشيئتي» – أي مشيئتي البشريّة المغايرة لمشيئتك في الجوهر –، «بل مشيئتُك» – أي الإلهيّة المساوية طبيعياً في الجوهر لمشيئتي[٥٣] –. في الحقيقة إنها لكلمات صادرة عن شجاعة فضلى، فإنّ نفس المسيح قد اُمتحنت أولاً في ضعفها الطبيعيّ، في شعورها بالخروج من الجسد، مع تعلّقها الطبيعي به، وقد كان الربُّ قد صار إنساناً بالحقيقة عن رضىً منه، ثم تقوّى تجاه الموت معتصماً بالإرادة الإلهيّة. لذلك فقد كان هو إلهاً كاملاً مع تأنُّسه، وإنساناً كاملاً مع لاهوته. وهو نفسه – كإنسان – قد أخضع فيه وبه الإرادة البشريّة لله الآب، باذلاً ذاته مثالاً أسمى، وصار خاضعاً للآب.

لا قيمة لعقل الإنسان إذا خلا من الإرادة: – وإنّ الربّ قد شاء مشيئةً حرّة بإرادتيه الإلهيّة والبشريّة، لأنّ الإرادة الحرّة قد زُرعت عموماً في كل طبيعة ناطقة. وما الفائدة

---

(٤٨) أعمال ٧: ١٤ (٤٩) أشعيا ٤٠: ٥ (٥٠) لوقا ٣: ٦ (٥١) يوحنا ٨: ٤٠
(٥٢) متى ٢٦: ٣٩ (٥٣) لوقا ٢٢: ٤٢

يا تُرى من النطق إذا لم تكن الطبيعة الناطقة حرّة؟... فمن حيث إنَّ الخالق قد بذر في الحيوانات العجم نزعةً طبيعيّة تقودها حتماً إلى قيام طبيعتها الخاصة، وهي، لخلوّها من النطق، لا تستطيع القيادة، لكنّ النزعة الطبيعيّة تقودُها. لذلك، فمع وجود النزعة، يحصل الاندفاع فوراً نحو الإنجاز. وهو يتمّ بدون نطقٍ ما أو مشورة أو تبصُّر أو حكم. ومن ثمّ فهي لا تُمتدح ولا تُطوَّب لفضيلة سعتْ إليها، ولا تُعاقب لشرّ اقترفته. أمّا الطبيعة الناطقة فهي أيضاً لها نزعتها الطبيعية تحركها ولكنّ المنطق يقودها وينظّمها على ما يحفظ ما هو بموجب الطبيعة، لأنّ ميزة النطق هي هذه: المشيئة الحرّة التي نسمّيها في المنطق الحركة الطبيعيّة. لذلك فهي تُمتدح وتُطوَّب في سعيها إلى الفضيلة وتُذمّ في سعيها إلى الشرّ.

التمييز في المسيح بين الإرادتين الإلهيّة والبشريّة: - فمن ثمّ لقد كانت نفس المسيح تشاء مسيَّرة تسييراً حراً، أي كانت تشاء لأنّ مشيئتها الإلهيّة قد كانت تشاؤها أن تشاء، لأنّ جسد المسيح لم يكن يتحرّك بإشارة من الكلمة. وموسى وسائر القديسين كانوا يتحركون بالإشارة الإلهيّة. لكنّ المسيح وحده - لكونه إلهاً وإنساناً - كان يُصدرُ مشيئته بموجب طبيعتيه الإلهيّة والإنسانيّة. لذلك، فإنّ مشيئتي الربّ لا تختلفان الواحدة عن الأخرى في رأيهما، بل في قوّتهما الطبيعتين. فقد كانت مشيئته الإلهيّة بلا بدءٍ وقادرة على كل شيء مع قوّة مناسبة لقدرتها ودون انفعال. أما مشيئته البشريّة فقد ابتدأت في الزمن وهي نفسها قد قاست الآلام الطبيعية البريئة. ولم تكن بطبيعتها قادرة على كل شيء. ولكن - وقد أصبحت بالطبيعة وبالحقيقة إرادة كلمة الله - فقد صارت قادرة على كل شيء.

في الفعل الإلهيّ – البشريّ

شرحُ تعبير القديس ديونيسيوس في هذا الباب : – إنّ السعيد ديونيسيوس – في كلامه عن المسيح الذي استوطن بيننا – لم ينكر عليه أفعاله الطبيعيّة ، لكنه قال فيه بفعلٍ ما جديد إلهي وبشري ، حصيلة طبيعتَيه الإلهية والإنسانية . وبهذا المعنى ، يمكننا القول معه بطبيعة واحدة جديدة حاصلة من طبيعته الإلهيّة وطبيعته البشريّة ، لأنَّ مَن لهم فعلٌ واحدٌ ، على حسب رأي الآباء ، لهم أيضاً طبيعة واحدة . لكنّ السعيد ديونيسيوس قد أراد بذلك أن يُظهر الطريقة الجديدة المعجزة البيان التي بموجبها صار ظهور أفعال المسيح الطبيعيّة نظراً إلى الطريقة المعجزة البيان – طريقة نفوذ طبيعتَي المسيح كل منهما في الأخرى بالمبادلة – بما هو غريبٌ ومناقض للعرف البشري وتجهله طبيعة الكائنات وهو الطريقة المعجزة البيان في الاتحاد بتبادل العطاء الذاتيّ . فإننا لسنا نقول بفعلين منفصلين ولا بطبيعتين تعملان منفصلتين ، بل إنّ كلاًّ منهما تَشترك بالاتحاد مع الأخرى لتعمل ما هو من اختصاصها . فلم يكن المسيح يعمل البشريّات بشرياً ، لأنه لم يكن إنساناً بسيطاً ، ولم يكن يعمل الإلهيّات بصفته إلهاً فحسب ، لأنه لم يكن مجرَّد إله ، بل كان إلهاً وإنساناً معاً . وكما نعرف اتحاد الطبيعتين والفارق الطبيعيّ بينهما ، كذلك نعرف طبيعة المشيئتين وفعلها .

فاعلمْ إذاً بأنّنا لمّا نتحدّث عن ربّنا يسوع المسيح ، يجري الكلام تارة عن طبيعتين وتارةً عن شخص واحد . وهذا وذاك مردُّهما إلى فكرة واحدة ، لأنّ الطبيعتين مسيحٌ واحدٌ والمسيح الواحد طبيعتان : إذاً فسيّان أن يُقال بأنّ المسيح يعمل في كل من طبيعتيه أو أن يُقال كل طبيعة في المسيح تعمل بالاشتراك مع الأخرى . فمن جهة إذاً تشترك الطبيعة الإلهيّة في فعل الجسد ، ذلك بارتضاء المشيئة الإلهيّة أن تسمح له بأن يتألّم ويعمل ما يختصّ به وبأن يكون فعل الجسد دائماً خلاصياً ، فإنّ ذلك ليس من الفعل البشريّ ، بل الإلهي . والجسم من جهته يشترك في فعل لاهوت الكلمة ، كأنما الجسم آلة تنجزُ الأفعال الإلهيّة ، ولأنّ الفاعل هو واحد يعمل معاً الإلهيّات والبشريّات .

عقل المسيح البشريّ بالنسبة إلى اشتراكه بالكلمة : – واعلمْ أنّ عقل المسيح الأقدس – فيمَا هو يفعل أفعاله الطبيعية – يفطن ويعرف أنه هو عقل الله ، وأنّ الخليقة كلها تسجد

له ، فهو يذكر تصرّفاته على الأرض وآلامه وهو يشترك في أعمال لاهوت الكلمة الذي يُدبِّرُ ويسوس الكلّ. وتفكيره ومعرفته وتدبيره ليستْ كما يفعل عقل إنسانٍ بسيطٍ ، بل بصفته متحداً أقنوميًّا بالله ، قد أصبح عقله عقلَ الله.

فعلُ المسيح الإلهيّ – البشريُّ : – إذاً هذا ما يُظهره الفعل الإلهي – البشري وهو أنّ الله – وقد تأنّس أي حلّ في إنسان – فعلُه البشريّ كان إلهيًّا أي متألّهاً وذلك ليس بمعزل عن فعله الإلهي ، وفعله الإلهي ليس بمعزل عن فعله البشري ، بل يُشاهَد كل منهما مع الآخر. وتسمى هذه الطريقة تعريضاً في الكلام ، ذلك عندما يجعل أحدُنا لفظتين بلفظة واحدة. فكما نقول عن السيف المحمَّى بالنار أن حرقه قاطع وقطعه مُحرق ، مع أننا نميّز بين فعل القطع وفعل الحرق ناسبين هذا لطبيعة وذاك لأخرى – الحرق للنار والقطع للحديد – ، كذلك عندما نقول فعلاً واحداً في المسيح إلهيًّا – إنسانيًّا ، نفطن لفعليْ طبيعتَيه ، فعلِه الإلهي للاهوته ، وفعلِه الإنساني لناسوته.

في الآلام الطبيعيّة والبريئة

لقد اتخذ المسيح آلامنا البريئة. – ما هي الآلام البشريّة الطبيعيّة التي لا ملامة فيها:
– ونعترف أنّ المسيح قد اتخذ كل آلام الإنسان الطبيعيّة والبريئة، لأنه قد اتخذ الإنسان كلّه، وكلّ ما يختصّ بالإنسان، ما عدا الخطيئة. فإنّ هذه ليست طبيعيّة والخالق لم يزرعها فينا، لكنّها من زرع الشيطان. وهي مثبّتة فينا باختيارنا طوعاً، لا اقتحاماً بالقوّة. أمّا الآلام الطبيعيّة والبريئة فهي تلك التي ليست منوطة بنا وهي كلها قد دخلت في الحياة البشرية من جرّاء الحكم بالمخالفة وهي الجوع والعطش والتعب والوجع والبكاء والانحلال والاستغاثة من الموت والفزع والنزاع حتى تصبّب العرق وقطرات الدم والاستعانة بالملائكة بسبب ضعف الطبيعة وما شاكل ذلك ممّا هو موجودٌ طبعاً في كل البشر.

وقد اتخذ إذاً المسيح كل هذا لكي يقدّسه كله؛ إنّه جُرِّبَ وانتصر لكي يحقّق لنا الانتصار ويُعطي طبيعتنا قوةً بأن تغلِبَ العدوّ، حتى إنّ الطبيعة المغلوبة قديماً، تغلب المنتصرَ قديماً بواسطة الرشقات نفسها التي كان قد غلبها بها.

كانت تجربة المسيح بدون نزعة داخليّة: – إذاً فإنّ الشرير قد جرَّبَ المسيح تجربةً خارجيّة بدون إيحاءات، ذلك كما فعل بآدم، لأنّ آدم قد جُرِّبَ ليس بإيحاءات، بل بالحيّة. لكنّ الرب قد صدَّ الهجوم وبدَّده كالدخان، حتى إنّ الانفعالات، وقد صدّها هو وهزمها، تصبح هي تحت سيطرتنا، وبذلك يُنقِذُ آدمُ الجديد آدمَ القديم.

إنّ آلامنا هي في المسيح طبيعيّة وفوق الطبيعة: – لا شكّ في أنّ الآلام التي هي فينا بحسب الطبيعة، كانت أيضاً في المسيح فوق الطبيعة. فقد كانت بحسب الطبيعة لمَّا أطلق لجسده أن يتألم في ما هو من اختصاصه، وكانت فوق الطبيعة، لأنّ الآلام الطبيعيّة في المسيح لم تسبق قط مشيئته، فلم يوجد قط إكراه في تصرّفاته، بل كانت كلها طوعيّة. فقد أراد فجاع وأراد فعطش وأراد فخاف وأراد فمات.

المقالة الخامسة والستّون * الرأس الحادي والعشرون * ١٠٨٤ – ١٠٨٥

في الجهل والعبوديّة

إنّ نفس المسيح – نتيجة لاتحادها بلاهوت الكلمة – قد تحرَّرت من كل جهل :
– واعلمْ أنّ الكلمة قد اتخذ طبيعتنا الجاهلة والمستعبَدَة . لأنّ طبيعة الإنسان عبدةٌ لله صانعها وليس لها معرفة المستقبلات . إذاً فعلى حسب قول غريغوريوس اللاهوتي ، إذا فصلتَ المنظور عن المعقول ، نعتَّ الجسد حينئذٍ بالعبوديّة والجهل . أمّا نفس المسيح فبسبب وحدة هويّتها مع الأقنوم واتحادها به اتحاداً يستحيل فصله ، فقد اكتسبت معرفة المستقبلات كما اكتسبت المقدرة على صُنع سائر الآيات الإلهيّة . فكما أنّ جسد البشر ليس محيياً بحسب طبيعته الخاصة ، وجسد الربّ المتّحد أقنومياً بالله الكلمة – من جهة ، وبحسب طبيعته ليس معصوماً عن الموت ، ومن جهة ، قد صار محيياً بسبب اتحاده أقنومياً بالكلمة – لا يمكن القول بأنه لم يكن ولا يزال دائماً محيياً ، كذلك النفس البشريّة ، فمن جهة هي في جوهرها لا تملك معرفة المستقبلات ، أمّا نفس المسيح فبسبب اتحادها بالله الكلمة نفسه ، قد اكتسبتْ ، كما قلنا ، معرفة المستقبلات أيضاً مع صنع سائر الآيات الإلهيّة .

لا يمكن القول بأنّ المسيح عبدٌ . – رغم أنّ الطبيعة التي اتخذها عبدةٌ بحدّ ذاتها .

والقولُ بأنّ المسيحَ عبدٌ هرطقة نسطوريّة : – واعلمْ بأننا لا نستطيع تسميةَ المسيح عبداً ، لأنّ كلمتَي عبوديّة وتسلّط ليستا تعريفاً لطبيعة ، بل لنسبةٍ . وشأنهما شأن الأُبوَّة والبنوَّة . فإنّ هذا لا يدلّ على جوهر بل على حالة . إذاً ، فعلى نحو ما قلناه عن الجهل ، إذا أمكنك الفصل فيه بين المخلوق وغير المخلوق باجتهادات سامية وتصوّرات عقلٍ دقيقة ، يكون جسد المسيح عبداً لو لم يكن متّحداً بالله الكلمة . أمّا الذي اتحد دفعةً واحدة في الأقنوم ، فكيف يكون عبداً؟ – لأنّ المسيح لمّا كان واحداً ، فلا يمكنه أن يكون عبدَ ذاته وربًّا . وهذه ألفاظ لا تصحُّ عمّن كيانهم مستقلّ ، بل عمّن ينتسبون إلى غيرهم . إذاً فالمسيح عبدُ مَن يكون؟ – هل يكون عبد الآب ؟ – بالحقيقة كلاَّ ! وإلاّ لما كان كلّ ما هو للآب هو للابن ، اذا كان عبداً للآب ، ولا يمكن أن يكون عبداً لنفسه . ثم كيف يقول الرسول عنّا : «لستَ بعدُ عبداً بل ابن» (٥٤) ، نحن الذين صرنا به بنين ، إذا كان هو عبداً؟ – إذاً فإنّ اسم

(٥٤) غلاطية ٤ :٧

عبد يُطلق على المسيح، ليس لأنه هو نفسه كذلك، بل لأنه اتخذ لأجلنا صورة عبدٍ يسمّى عبداً معنا. ورغم أنه غير قابلٍ الآلام، فقد استسلم للآلام وصار خادمَ خلاصنا. والذين يُسمّون الرب عبداً يشطرون المسيح الواحد إلى اثنين، على نحو ما فعل نسطوريوس. أمّا نحن فنعلن بأنه المتسلّط، رب الخليقة كلّها، المسيح الواحد، الإله والإنسان معاً والعالِم بكل شيء، «المكنونُ فيه جميع كنوز الحكمة والعلم»[٥٥].

(٥٥) كولوسي ٢: ٣

في التقدّم (في المسيح)

أجل، إنه لوارد القول بإنّ المسيح «كان يتقدّم بالحكمة والسنّ والنعمة»[٥٦]. ذلك أنه فيمَا كان ربنا يزداد سنًّا، كان – وهو يزداد سنًّا – يكشف كشفاً تدريجيًّا الحكمة المكنونة فيه والتقدّم أيضاً الذي هو للناس في الحكمة والنعمة مع تتميمه مسرّةَ أبيه أي المعرفة الإلهيّة وخلاص البشر، محقّقاً في ذلك تقدّمه الخاص ومختصًّا لذاته في كل شيء بما هو لنا. أما الذين يقولون بأنّ تقدّمه في الحكمة والنعمة قائم بتقبّله زيادة إضافية منها، فهم لا يقولون بأنّ الاتحاد كان منذ بدء وجود الجسد، ولا يعتقدون بالاتحاد في أقنوم، بل أَظنُّهم يشعوذون مع نسطوريوس الباطل، بقولهم باتحاد شكليّ ومجرّد مساكنة، «وهم لا يفهمون ما يقولون ولا ما يثبتون»[٥٧]. فإذا كان الجسد قد اتحد حقاً بالله الكلمة منذ بدء وجوده، بل إنه قد ابتدأ فيه ونال فيه وحدة هويّته الأقنوميّة، فكيف هو لم يستملك استملاكاً تاماً كلّ حكمة ونعمة؟ والأمر ليس أنّ هذا الجسد قد اشترك بالنعمة أو حظي على نعمة مما هو للكلمة، بل بالأحرى – بسبب الاتحاد في أقنوم – قد صارت البشريات والإلهيّات مسيحاً واحداً. وعليه، فإنّ ذاك نفسه الذي كان إلهاً وإنساناً معاً، كان جسده ينبع النعمة والحكمة ويفيض الخيرات للعالم.

---

(٥٦) لوقا ٢: ٥٢ (٥٧) ١ تيموثاوس ١: ٧

خوف المسيح

الخوف نوعان : الخوف الطبيعيّ ، كما هو في المسيح : - لكلمة خوفٍ مفهومان . أولهما الخوف الطبيعيّ وهو يكون عندما لا تشاء النفس الانفصال عن الجسد ، لأنّ الخالق قد وضع بينها وبينه منذُ البدء تعلّقاً ودالّة طبيعيّين. لذلك فهي تخشى الموت خشيةً طبيعيّة وتأباه بجزع . وإليك تحديد الخوف : إنه قوةٌ في الطبيعة ترمي إلى المحافظة على سلامة الكائن . ولمّا كان الخالق قد أوجد الكلّ من العدم إلى الوجود ، فإنّ في الكل ميلٌ طبيعي إلى الوجود وليس إلى عدم الوجود . ونزعة الجميع إلى البقاء هي بموجب الطبيعة الخاصة لكل منهم . فإنّ الله الكلمة إذاً ، لمّا صار إنساناً ، كان له هذا الميل وكان يظهر الرغبة في بقاء طبيعته بالأكل والشرب والاستسلام للنوم ، وكانت له طبيعيًّا خبرة هذه الأمور . ومن جهة أُخرى ، كان له النفور من المهلكات ، كما حدث من مقاومته الموت في وقت آلامه الطوعيّة . وإذا كانت الأمور قد أخذت مجراها بموجب الناموس الطبيعيّ ، لكنها لم تجرِ جرياً حتميًّا على مثالنا . فإنّ المسيح قد تقبّل بإرادته الأمور الطبيعيّة تقبّلاً طوعياً . حتى إنّ الخوف نفسه والجزع والنزاع هي أيضاً كانت لديه انفعالات بريئة لا يتخلّلها خطأ .

الخوف غير الطبيعيّ الذي لم يرتضِ به المسيح : - وهناك أيضاً خوفٌ ناتجٌ من تصوّرات خيانة وخداع وتوقّع ساعة الموت ، على نحو ما نشعر ليلاً بخوف من مداهمة أحد . وهذا ضدّ الطبيعة ونقول في تحديده : الخوف ضدّ الطبيعة هو الفزع الخارج عن سيطرة العقل . وإنّ الربّ لم يشعر بهذا الفزع . لذلك فهو لم يفزع قط سوى في حين آلامه ، ولو كان قد تجنّبها مرّات كثيرة ، كما كان يقتضيه تدبير خلاصنا . لأنه لم يكن يجهل الوقت المحدّد لذلك .

أمّا أن يكون المسيح قد خاف حقاً ، فاسمع ما يقوله القديس اثناسيوس ضدّ أبوليناريوس : «لذلك يقول الرب : الآن نفسي قد اضطربت [٥٨] . فإنّ كلمة **الآن** تعني عندما كان يريد (الموت) ، كما لو كان يدلّ على وجوده . فإنه لم يتكلّم عن غير الموجود كأنه حاضرٌ ، على نحو ما يحدث أن يُظَنّ بالمقولات أنها وقائع ، لأنّ كل شيء كان يتمُّ طبعاً

(٥٨) يوحنّا ١٢ : ٢٧

وحقيقةً». ويقول في مقطع آخر: «لم يرتضِ اللاهوت قط بالآلام دون أن يكون التألّم للجسد، ولم يظهر الاضطراب والحزن دون أن تحزن النفس وتضطرب، ولم يقلق ويصلِّ، دون أن يقلقَ التفكير ويصلّي. ولكن على الأقلّ إنّ هذه الأمور لم تحدث لضعف في الطبيعة، إنما كانت لإثبات وجود». فيتّضح أن الأمور لم تحدث لضعف في الطبيعة لكونها لم تكن قسريّة.

١٠٨٩ – ١٠٩٣ * الرأس الرابع والعشرون * المقالة الثامنة والستّون

في صلاة الربّ

ما هي الصلاة. وما معنى أنّ المسيح قد صلّى : –الصلاة ارتفاع العقل إلى الله أو هي التماس احتياجاتنا منه تعالى. فكيف إذاً قد صلّى الرب بشأن لعازر وفي وقت آلامه؟ لأنّ عقله الأقدس لم يكن بحاجة إلى الارتفاع إلى الله، فإنه كان متحداً دفعة واحدة في أقنومه بالله الكلمة، ولم يكن بحاجة إلى الالتماس من الله، لأنه واحدٌ معه تعالى. لكنّ المسيح – باختصاصه بشخصنا وبصيرورته مثالاً لنا وبجعله ذاته رسماً لنا – قد علّمنا أن نلتمس من الله وأن نتوقَ إليه، طارقاً لنا بعقله الأقدس للارتقاء إلى الله. وكما أنه احتمل الآلام فقوّانا للانتصار عليها كذلك قد صلّى أيضاً، طارقاً لنا، كما قلنا، للارتقاء إلى الله، متمِّماً بذلك كل عدل لأجلنا، كما قال هو نفسه ليوحنا. واستعطف أباه نحونا، مكرّماً إيّاه على أنه مبدأُه وعلّته، فأظهر لنا بذلك أنه ليس مقاوماً لله. فهو عندما قال بخصوص لعازر: «يا أبتِ، أشكرك لأنك سمعت لي. وقد علمتُ أنك تسمع لي في كل حين. لكن قلت هذا لأجل الجمع الواقف حولي ليؤمنوا أنك أنت أرسلتني» [٥٩]، أَليس واضحاً للجميع كالزلال أنه بقوله هذا يُكرّم أباه بصفته علّته، ويعلن أنه ليس مقاوماً لله؟

ولمّا قال: «يا أبتِ، إن كان يُستطاع فلتعبر عني هذه الكأس. لكن ليس كمشيئتي بل كمشيئتك» [٦٠] أليس واضحاً هنا أنه يعلّمنا بأن نستغيث في المحن بالله وحده، وأن نفضّل المشيئة الإلهيّة على مشيئتنا، معلناً بذلك أنه بالحقيقة اختصّ لذاته ما هو لطبيعتنا، ذلك أنّ له مشيئتين بالحقيقة وهما طبيعيتان، واحدة لكلٍّ من طبيعتيه، وهما فيه لا تتنافران؟ – وقد قال: **يا أبتِ**، لأنه مساوٍ للآب في الجوهر. وقال: **إن كان يُستطاع**، ذلك ليس لأنه يجهل ما يستطيعه الله، بل ليروّضنا على إخضاع مشيئتنا لمشيئة الله. فإنّ غير المستطاع هو وحده ما لا يُريده الله ولا يسمح به. وقال أخيراً: **لكن ليس كمشيئتي بل كمشيئتك**. فبما أنّ المسيح إلهٌ، مشيئته هي مشيئة الآب نفسها. أما بما أنه إنسان فتظهر مشيئة ناسوته ظهوراً طبيعيًّا وهي ترفض الموت رفضاً طبيعياً.

---

(٥٩) يوحنّا ١١: ٤١ وما يليها

(٦٠) متّى ٢٦: ٣٩

أمّا قول المسيح : «إلهي إلهي لماذا تركتَني ؟» ، فمعناه أن المسيح قد اختصّ شخصنا ، فإنّ الآب لا يكون إلهَه إلاّ إذا فصلَ العقل بتصوّرات دقيقة بين ما يُرى وما يُعقل جاعلاً المسيح معنا في صفّنا دون أن يفصله البتّة عن لاهوته الخاص ، لكننا كنا نحن المهمَلين والمنسيّين ، حتى إنه وقد اختصّ شخصنا صلّى الصلاة المذكورة .

الاختصاص

الاختصاص على نوعين : – إعلمْ أنّ الاختصاص على نوعين : الأول طبيعي وجوهري والثاني تمثيلي وشكلي . فالطبيعي والجوهري هو الذي بموجبه اتخذ الله بتعطّفه طبيعتَنا وكل خواصّنا الطبيعية ، صائراً إنساناً بالطبيعة والحقيقة وممارساً خواصّنا الطبيعيّة . أمّا الاختصاص التمثيلي والشكلي فهو عندما يظهر أحدهم شكلاً بوجهٍ غير وجهه (قلْ إنّ ذلك رأفــة منه أو محبة) ويصطنع أقوالاً بدلاً من ذاك ولصالحه وهي لا تُنسبُ إليه هو . فبمثل هذا الاختصاص اختصّ الربّ لذاته لعنتَنا وخذلاننا رغم أنّ هذا لم يكن طبيعيًّا وأنه هو لم يكن قط ولا صار كذلك . لكنه اتخذ شكلنا واصطفّ إلى جانبنا . (وهذا هو معنى «إنه صار لعنة لأجلنا») [٦١] .

---

(٦١) غلاطية ٣ : ١٣

في آلام جسد الربّ وعدم آلام لاهوته

إذاً فإنّ كلمة الله نفسه قد احتمل كل الآلام في جسده ، بينما طبيعتُه الإلهيّة – التي لا تتألّم – ظلّت وحدَها عديمة التألّم . لأنّ المسيح الواحد المركَّب من لاهوتٍ وناسوتٍ ، وهو في لاهوتٍ وناسوتٍ ، قد تألّم . والذي فيه قابلُ التألُّم – لمّا كان طبعاً يتألّم – فقد تألّم . أمّا الذي فيه لا يتألّم فلم يشاركْه الآلام . فإنّ النفسَ التي هي قابلةُ الآلامَ عندما يُجرح الجسد ، ولو كانت هي لا تُجرحُ ، فهي تشارك الجسد أوجاعَه وآلامه .

واعلم بأننا نقول إنّ الله يتألّم في الجسد ولا نقول أبداً إنّ اللاهوت يتألّم في الجسد أو إنّ الإله يتألّم في الجسد . لأنه إذا كانت الشمس تضيءُ شجرةً وقطعتِ الفأسُ الشجرة تبقى الشمس دون ما انثلام ولا تألّم ، فكم بالأحرى يبقى لاهوت الكلمة المتّحد بالجسد في الأقنوم دون ما تألّم إذا تألّم الجسد؟ وعلى نحو ما إذا صبَّ أحدُهم ماءً على حديد محميٍّ ، فإنّ الذي هو من طبعه أن يتأثّر بالماء – أعني النار – ينطفىءُ ويبقى الحديد سالماً ، لأنه ليس من طبع الحديد أن يتأثر بالماء ، فكم بالأحرى عندما يتألّم الجسد ، فإنّ اللاهوت وحدَه الذي لا ينفعلُ لا يبلغ إليه الألم ، رغم بقائه مع الجسد بلا انفصال؟ وليس من ضرورة أن تكون الأمثال مطابقةً للواقع حتى النهاية ، لأنه من الضرورة أن نجد في الأمثال ما هو مطابقٌ للواقع وما هو مخالفٌ له ، وإلاّ فليس المثلُ مثلاً ، لأنّ المساويَ في كل شيء يكون هو هو نفسه ، وليس مثلاً ، لا سيّما في الإلهيّات . فلا يمكن إيجاد مثلٍ يكون مساوياً في كل شيء ، إن في علم اللاهوت وإن في التدبير .

في بقاء لاهوت الكلمة غير منفصل عن النفس والجسد حتى في موت الربّ وفي بقاء الأقنوم واحداً

لمّا كان ربنا يسوع المسيح منزّهاً عن الخطإ، - لأنّ «رافع خطيئة العالم»(٦٢) لم يفعل الخطيئة و «لم يوجدْ في فمه مكر»(٦٣) - فهو لم يكنْ خاضعاً للموت، إذ إنّ الموت قد دخل العالمَ بالخطيئة. إذاً، فإنّ الذي ارتضى بالموت لأجلنا يموت ويُقرّب ذاته للآب ذبيحة من أجلنا، فإننا قد أخطأنا نحوه وأصبح هو بحاجة إلى أن يقدّم ذاته فدية عنا، وبذلك يحلّنا من الحكم علينا. ولكن حاشا أن يكون دم الربّ قد تقرّب للطاغية! فإنّ هذا لمّا أسرع لابتلاع طعم الجسد جُرح بصنّارة اللاهوت إذ ذاق الجسدَ المنزَّه عن الخطإ والمحيي. وحينذاك قد تعطّل وردَّ جميع الذين كان قد ابتلعهم قديماً. وكما أنّ الظلام يتبدّد بإشراقة النور كذلك يضمحلُّ الفساد بهجوم الحياة. لأنّ الحياة تعمُّ الجميع والفساد يعود إلى المفسِد.

أقنومُ المسيح واحدٌ، وليس بحدّ ذاته ورغم تجزئته: - إذاً فإنّ المسيح، ولو كان قد مات بصفته إنساناً وكانت نفسه المقدّسة قد انفصلت عن جسده الأطهر، لكنَّ اللاهوت ظلَّ بلا انفصال عن كليهما، لا عن النفس ولا عن الجسد. وأقنومه الواحد لم ينقسم بذلك إلى أقنومين. لأنّ الجسد والنفس - منذ ابتدائهما - قد نالا الوجود في أقنوم الكلمة بالطريقة نفسها، وفي انفصال أحدهما عن الآخر بالموت، ظلَّ كل منهما حاصلاً على أقنوم الكلمة الواحد، حتى إنّ أقنوم الكلمة الواحد ظلّ أقنوم الكلمة والنفس والجسد. فإنّ النفس والجسد لم يحظيا قط بأقنوم خاص لكل منهما خارجاً عن أقنوم الكلمة، وإنّ أقنوم الكلمة ظل دائماً واحداً ولم يكن قط اثنين، حتى إنّ أقنوم المسيح هو دائماً واحد. وإذا كانت النفس قد انفصلت عن الجسد انفصالاً مكانيًّا، فقد ظلّت متّحدة به اتحاداً أقنومياً بواسطة الكلمة.

---

(٦٢) يوحنّا ١: ٢٩

(٦٣) أشعيا ٥٣: ٩

في البلى والفساد

لكلمة **بلى** معنيان : إنها تعني هذه الانفعالات البشرية كلها : الجوع والعطش والتعب وثقب المسامير والموت أو انفصال النفس عن الجسد وما شاكلها . وبهذا المعنى نقول بأنّ جسد الربّ قابلٌ للبلى ، لأنّ المسيح ارتضى أن يتقبّلها كلها . ويعني البلى أيضاً انحلال الجسد بكامله إلى العناصر المركّب هو منها وزواله وهذا هو بالأحرى ما يدعوه الكثيرون فساداً . أما جسد الرب فلم تُصبه هذه المحنة ، على ما يقوله النبيّ داود : «لأنك لا تترك نفسي في الجحيم ولا تدع قدّوسك يرى فساداً» (٦٤) .

هرطقة يوليانوس وغايوس : - إنه إذاً لكفرُ القول - على نحو يوليانوس وغايوس الغبيّين - بأنّ جسد الربّ منزّه عن البلى بالمعنى الأول لهذه الكلمة وذلك قبل قيامته . لأنه لو كان منزّهاً عن البلى ، فهو ليس مساوياً لنا ، بل إنما ظُنَّ به كذلك ، وإنه بالحقيقة لم يحدثْ له كما يقول الإنجيلي إنه حدث من جوعٍ وعطشٍ ومسامير وطعنة جنبه والموت . وإذا كان هذا بالظنّ ، فإنّ سرَّ تدبير خلاصِنا وهمٌ وخداع ، وإنه صار إنساناً بالظنّ ، لا بالحقيقة . وقد نلنا الخلاص بالظنّ لا بالحقيقة . ولكن حاشا أن يكونَ ذلك . والذين يتشدّقون بهذه الأقوال فليُحرموا من الخلاص ! ... أمّا نحن فقد حظينا بالخلاص الحقيقي وسنحظى به . أمّا إذا أُخذَ البلى بمعناه الثاني ، فنحن نعترف بأنّ جسد الربّ منزّهٌ عن البلى أو أنه غيرُ قابلٍ البلى ، كما تسلّمنا ذلك من الآباء اللابسيّ الله . ومن ثمَّ نقول إن بعد قيامة المخلّص من بين الأموات ، قد أصبح جسدُ الربّ منزّهاً عن البلى حتى بمعناه الأول . وقد أعطى الرب لجسدنا - بواسطة جسده الخاص - القيامة ثم عدم البلى ، لأنه صار لنا بدءَ القيامة وعدمَ البلى وعدمَ التألّم . ويقول الرسول الإلهيّ : «إنه لا بدَّ لهذا الفاسد من أن يلبس عدم الفساد» (٦٥) .

---

(٦٤) مز ١٥ : ١٠ (٦٥) ١ كور ١٥ : ٥٣

في انحدار المخلِّص إلى الجحيم

إنّ نفس المخلص المتألّهة قد انحدرت إلى الجحيم، حتى إنه، كما أشرقتْ شمس العدل على الذين على الأرض، يغمرُ النور بالمثل المتسكّعين تحت الأرض في الظلمة وظلال الموت. وكما بشَّر المخلص الذين على الأرض بالسلام وبالنجاة للأسرى وبالنظر للعميان، وصار للمؤمنين علَّةَ خلاصٍ أبديّ، ولغير المؤمنين توبيخاً لعصيانهم، كذلك فعل للذين في الجحيم، «لكي تجثو باسم يسوع كل ركبةٍ مما في السماوات وعلى الأرض وتحت الأرض»[٦٦]. وبعد أن حلَّ هكذا المعتقلين منذ الدهر، عاد ثانيةً من بين الأموت طارقاً لنا سبيل القيامة.

---

(٦٦) فيلبي ٢: ١٠

الكتاب الرابع :

من ثمار التدبير الإلهي ومُلحقاته



الانحدار إلى الجحيم
(إيقونة روسيّة من القرن ١٦)

في ما تجدّد بعد القيامة

ملحقاتُ القيامة : لا يتألّم المسيح بعد القيامة . كيف اتخذ طعاماً بعد القيامة

كل البشريّات متضمّنة فيه : – وبعد قيامة المسيح من بين الأموات ، زالت عنه كل الانفعالات . أعني بذلك البلى الذي هو جوعٌ وعطشٌ ، نومٌ وتعب ، وما شاكل ذلك . وإذا كان قد ذاق طعاماً بعد قيامته ، ذلك ليس بموجب حاجة الطبيعة . فإنه لم يكن عرضةً للجوع ، بل كان ذلك في سبيل تدبير خلاصنا ليُثبت لنا حقيقة قيامته ، ذلك أن الجسد الذي تألّم هو نفسه قد قام ، وأنه لم يُهمل جزءًا من أجزاء طبيعته ، لا جسده ولا نفسه ، بل قد حافظ على جسده ونفسه الناطقة والعاقلة ، المريدة والفاعلة . وقد جلس – على هذه الصورة – عن يمين الآب ، وهو يريد خلاصنا بإرادته الإلهيّة – البشريّة ، ويعمل ، من جهة ، بفعله الإلهيّ على العناية بالجميع وحفظهم وسياستهم ، ويعمل ، من جهة أخرى ، بفعله البشري على ذكر جميع العائشين على أرضه ، ناظراً وعارفاً أنّ الخليقة العقليّة كلها تسجد له ، لأنّ نفسه القدوسة تعرف أنها متّحدة بالله الكلمة في أقنومه وأنه يُسجدُ لها معه بصفتها نفس الله ، وأنها ليست مجرّدَ نفس فحسب . والصعود من الأرض إلى السماء والانحدار منها ثانية إنما ذلك يختصّ بجسد محدود . وقد قيل عنه : «هذا الذي ارتفع عنكم إلى السماء سيأتي هكذا كما عاينتموه منطلقاً إلى السماء»[1] .

---

(١) أعمال ١ : ١١

في جلوس المسيح عن ميامن الآب

ونقول بأنّ المسيح قد جلس بجسده عن ميامن الله الآب، ولا نقول بيمين مكانيّة. فكيف تكون يمينٌ مكانيّة لمن لا يُحصر؟ واليمين واليسار تختصّان بالأجسام المحدودة. لكننا نعني بيمين الآب مجدَ لاهوته وكرامته اللذَين يقيم فيهما ابن الله قبل الدهور، بصفته إلهاً، مساوياً للآب في الجوهر، ثمّ بصفته قد تجسّد، هو يجلس بالجسد لِيُشرِكَ معه جسدَه، فتسجدُ له الخليقةُ كلها بسجدة واحدة مع جسده.

ردّ على القائلين : – لو كان للمسيح طبيعتان لكنتم تسجدون للخليقة بسجودكم لطبيعته المخلوقة ، أو تقولون بالسجود لطبيعة واحدة وعدم السجود للأخرى

السجود لجسد المسيح إنما هو لاتحاده في المسيح وليس ذلك بحدّ ذاته : – إننا نسجد لابن الله مع أبيه وروحه القدّوس ، اللاجسمي قبل تأنّسه والمتجسّد الآن والصائر إنساناً مع كونه إلهاً . وعليه ، فإنّ جسدَ الربّ ، على مستوى طبيعته ، إذا أمكنكَ باجتهاداتٍ دقيقةٍ أن تفصل فيه المنظورَ من المعقول ، فهو لا يُسجد له ، على أنه مخلوق . أمّا وقد اتحد بالله الكلمة ، فهو يُسجد له بسبب الكلمة وفي الكلمة . وعلى هذا المنوال يُركَع للملك عارياً كان أم لابساً . والثوبُ الأرجوانيُّ – بصفته مجرّد ثوب ارجوانيّ – يمكنك أن تدوسه وترميه خارجاً . أمّا وقد صار الرداءَ الملكيّ ، فيحقُّ له الإكرام والتمجيد ، وإذا احتقره محتقرٌ ، يُحكم عليه أغلب الأحيان بالموت . وعلى هذا النحو قلْ عن أيّ عودٍ طبيعيّ ، فهو ليس ببعيد المنال واللمس . ولكنه متى ألقي في النار وأصبح جمراً ، يصير بعيدَ المنال – ليس بحدٍّ ذاته بل لاتحاده بالنار . ولم يكن العود من طبعه صعبَ المنال ، لكنَّ ذلك هو الجمرُ أو العود المشتعل . كذلك الجسد . فهو بحسب طبيعته لا يستحقُّ السجودَ له ، لكنه يُسجدُ له في الله الكلمة المتجسِّد ، لا لذاته بل لاتحاده أقنومياً بالله الكلمة . فلسنا نقول بالسجود لمجرّد جسد ، بل لجسد الله ، أو الله المتجسّد .

لماذا صار إبن الله إنساناً وليس الآب ولا الروح؟ وماذا أصلحَ الابنُ بتأنُّسه؟

إنّ الآب آبٌ وليس الابن. والابنُ ابنٌ وليس الآب. والروح روحٌ قدسٌ وليس الآب ولا الابن. فإنّ الاختصاص ثابت لا يخضع للحركة. وإلاّ فكيف يبقى الاختصاص إذا كان متحركاً ومنتقلاً إلى الغير؟... لأجل ذلك فقد صار ابن الله ابن الإنسان لكي يبقى اختصاصه غيرَ متحرِّك، لأن الابن كان ابن الله وصار ابن الإنسان بتجسّده من العذراء القدّيسة ولم يزل اختصاصه بالبنوّة الإلهيّة قائماً.

صفات الطبيعة الإلهيّة وميزاتها. – لماذا تجسّد الابن: – وقد تأنّس ابن الله لكي يُعيد الإنسان إلى ما كان عليه قبلاً. فقد كان خلقه على صورته، عاقلاً وحرًّا، وكمثاله، أي كامل الفضائل على مقدور طبيعة الإنسان. وهذه الصفات هي بمثابة سماتٍ للطبيعة الإلهيّة وهي التنزُّه عن الهمّ والاضطراب والتشويش مع الصلاح والحكمة والعدل والتحرّر من كل شرّ. وعليه كان الله قد أقام الإنسان في شركته – فإنّه لمّا خلقَهُ بمعزل عن الفساد قد اجتذبه بشركته إلى عدم الفساد – ولكننا بتجاوزنا الوصيّة سوّدنا سمات الصورة الإلهيّة ومحوناها. ولمّا آلت بنا الحال إلى الشرّ، تجرّدنا من الشركة الإلهيّة، لأنه «أية شركة للنور مع الظلمة»[٢]؟... ولمّا صرنا خارج الحياة سقطنا في فساد الموت. ولمّا كان المسيح قد أشركنا بما هو أفضل ولم نحتفظ به، اتخذ هو الأدنى – أعني طبيعتنا – حتى يُعيدَ بذاته وفي ذاته تجديد ما كان على صورته وكمثاله وأرشدنا إلى السيرة الفاضلة، جاعلاً إيّاها في ذاته سهلة المنال لنا. وأعتقنا من الفساد بشركة الحياة إذ صار هو بدءَ قيامتنا، وجدَّد فينا الإناءَ المهملَ والمتصدِّع لينقذنا من طغيان إبليس بدعوته إيّانا إلى المعرفة الإلهيّة ويقوّينا ويهذّبنا بالثبات والاتّضاع لنغلب الطاغية.

حصيلةُ التجسُّد – قوّة الصليب: – وعليه فإنّ عبادةَ الأصنام قد زالت، والخليقةَ تقدّستْ بالدم الإلهيّ، وهياكلَ الأصنام ومعابدَها قد انهدمتْ، وانغرست المعرفة الإلهيّة بالثالوث المتساوي الجوهر، وقامتْ العبادة للاهوت غير المخلوق، لله الواحد الحقيقي. وإنّ الشياطين يرتجفون من الناس الذين كانوا قديماً تحت حوزتهم. والعجيبُ في الأمر أنّ هذا

(٢) ٢ كور ٦: ١٤

الإصلاح كلّه قد تمَّ بصليبِ المسيح وآلامه وموته. والبشارة بالمعرفة الإلهيّة قد انتشرت في الأرض كلّها، لا بحربٍ ولا بسلاحٍ ولا بجيوشٍ مدرَّبةٍ لمقاتلة العدوّ، بل بشرذمة من أناس عراة، محتقَرين، أُميِّين، مشرَّدين ومضطهدين ومحكومٍ عليهم بالموت وهم يُبشّرون بمن صلب بالجسد وحكم عليه بالموت. وقد انتصروا على الحكماء والمقتدرين، لأنّ قدرةَ الصليب - وهي الأقوى - كانت تتبعهم. والموت الذي كان قديماً الموضوعَ الأكبر للخوف والحذر والكراهية، قد أضحى اليوم أفضل من الحياة. وهذه هي الإصلاحات الناتجة من مجيءْ المسيح وهذه هي الأدلّة على قوّته، فإنه لم يفعل الآن - كما بموسى - أن فلق بحراً فأنقذ شعباً واحداً من مصر ومن عبوديّة فرعون، بل بالأحرى إنه قد انتشل البشريّة من فساد الموت ومن المغتصب العاتيّ ومن الخطيئة. وهو في ذلك لم يغتصبْ اغتصاباً إلى الفضيلة، فلم يوارِ الخطأة في الثرى، ولا أحرقهم بالنار ولا رجمهم بالحجارة. لكنه - بوداعته ورحابة صدره - قد جذب الناس إلى الفضيلة فصاروا يتسابقون إلى الأتعاب في سبيلها ويستلذّونها. وقد كان الخطأة قديماً يعاقَبون ويستمرّون في خطيئتهم وكانت لهم الخطيئة بمثابة إله. أما اليوم ففي سبيل التقوى والفضيلة يتكبّدون الأعذبة والعقوبات والموت.

فشكراً لك أيها المسيح كلمة الله وحكمته وقوّته والإله القدير! ماذا نقرّب لك نحن البائسين عن هذه الإحسانات كلها؟ فإنّ الكلّ لك وأنت لا تطلب منّا سوى خلاصك، مع علمك أنك - في صلاحك المعجز البيان - وفيمَا أنت تهب هذا الخلاص، تشكر لمن يتقبّلونه. فلك الشكر يا مَن أعطانا الوجود وأعطانا حسن الوجود وأعادنا إليه بعد سقطتنا في تنازله المعجز البيان.

ردّ على مَن يسألون إذا كان أقنوم المسيح مخلوقاً أو غير مخلوق

لقد كان أقنوم كلمة الله – قبل تجسّده – بسيطاً وغير مركّب ولا جسميًّا وغير مخلوق. ولمّا تجسّد، أصبح أقنومَ الجسد فصار مركّباً من لاهوت – كان له دائماً – ومن لحم اختصّه هو لذاته. فهو يحمل اختصاصات الطبيعتين ويعرف بطبيعتيه الإثنتين، حتى إنّ أقنومه الواحد نفسه هو غير مخلوق في لاهوته ومخلوق في ناسوته. وهو يرى ولا يُرى. وعلى الافتراض أننا أُقحمنا إلى القول بأن الأقانيم اثنان، فإمّا نقسم المسيح الواحد وإمّا ننكر الاختلاف بين الطبيعتين فنُدخِل إليهما التحويل والتشويش.

متى دُعيَ هذا الأقنوم مسيحاً

إنه ليس كما يزعم البعض زوراً أنّ العقل قد اتحد بالله الكلمة قبل التجسّد من العذراء، ودُعي منذئذٍ المسيح. فإنّ هذه خرافةٌ من تخرّصات أوريجينيس المدّعي بأسبقيّة وجود النفوس. أمّا نحن فنقول بأنّ الابن كلمة الله قد صار مسيحاً منذ أن حلّ في أحشاء القديسة الدائمة البتوليّة وصار جسداً دون استحالةٍ ومسحَ اللحمَ باللاهوت. فإنّ هذه هي مسحة الناسوت، كما يقول غريغوريوس اللاهوتيّ. وقد كتب كيرلّس الإسكندري الفائق القداسة إلى ثاودوسيوس الملك يقول هذا: «أما أنا فأقول إنه ينبغي ألاّ نسمّي المسيح يسوعَ كلمة الله بدون التأنّس ولا بالأحرى الهيكل المولود من امرأة بمعزلٍ عن اتحاده بالكلمة». «فإنّ المفهوم بالمسيح الكلمة الصادر من الله والمجتمع بالناسوت اجتماعاً يفوق الوصف في الاتحاد لسرّ التدبير». وقد كتب هكذا للملكات: «يقول بعضهم إنّ اسم المسيح لا يليقُ إلاّ بالكلمة المولود من الله الآب وحده المفهوم والموجود في ذاته. أما نحن فلم نتعلّم أن نفكّر ولا أن نقول هكذا. بل نقول إنّ الكلمة لمّا صار جسداً سمِّيَ يسوع المسيح. وحينئذٍ مسحه الله الآب بدهن البهجة أي بالروح [٣]. لذلك سُمِّي **المسيح**. أمّا أن تكون للمسحة علاقة بالناسوت، فلا يرتاب أحد في ذلك ممن اعتادوا التفكير القويم». وأثناسيوس أيضاً الشهير قاطبةً يقول في محلّ ما من حديثه عن الظهور الإلهيّ هكذا: «إنّ الله السابق الوجود، قبل مجيئه في جسدٍ، لم يكن إنساناً، لكنّه كان عند الله بصفته إلهاً لا يُرى ولا ينفعل. ولما صار إنساناً اسمُه المسيحُ عاش بالجسد وحينئذٍ التحق باسمه الألم والموت».

وإذا كان الكتاب الإلهيّ يقول: «لذلك مسحكَ الله إلهك بدهن البهجة» [٤]، فاعلم أنّ الكتاب الإلهيّ كثيراً ما يستعملُ الماضي بدل المستقبل كقوله: «وبعد ذلك تراءى على الأرض وتردّد بين البشر» [٥]. والحال أنّ الله لم يكن قط قد تراءى وتردّد بين البشر، عندما قيل هذا القول. وكقوله: «على أنهار بابل هناك جلسنا فبكينا» [٦]. والحال أنّ هذه لم تكن قد حدثت قط.

---

(٣) عبرا ١:٩ (٤) مز ٤٤:٨ (٥) باروك ٣:٣٨ (٦) مز ١٣٦:١

ردّ على السائلين: – هل والدة الله القدّيسة ولدت طبيعتين، وهل الطبيعتان عُلِّقتا على الصليب؟

حلّ اعتراض ساويروس: الولادة من اختصاص الأقنوم لا الطبيعة: – إنّ الشيء غير الصائر والصائر، المكتوبَ باليونانية بنون واحدة (٧): τό ἀγένητον و γενητόν ومعنـاه غير مخلوق ومخلوق هو من اختصاص الطبيعة. أمّا الشيء غير المولود والمولود المكتوب باليونانيّة بنون مشدّدة (٧٧)، τό ἀγέννητον و γεννητόν فهو من اختصاص الأقنوم لا الطبيعة. وعليه فإنّ الطبيعة الإلهيّة غير صائرة أي غير مخلوقة وكل ما سوى الطبيعة الإلهيّة هو صائر أي مخلوق. ويُلاحظ من ثمّ في الطبيعة الإلهيّة غير المخلوقة عدمُ الولادة في الآب والولادة في الابن – لأنه وُلد من الآب ولادةً أزليّة – والإنبثاق في الروح القدس. وإنّ الأوائل من كلّ نوعٍ من الحيوانات غيرُ مولودة، لكنها ليست غير مخلوقة لأنّ الخالق قد كوّنها ولم تولد من أمثالها، لأنّ التكوين هو الخلق. أما الولادة لدى الله فهي من الآب وحده، وهي طريقة ولادة الابن المساوي له في الجوهر. وأما ولادة الأجساد – وتصير من جماع الذكر والأنثى – فهي طريقة تساوي الأشخاص في الجوهر. ومن هنا نعلم أنّ الولادة لا تختصّ بالطبيعة بل بالأقنوم. ولو كان ذلك من اختصاص الطبيعة لما كنّا نُشاهد في الطبيعة ما هو مولود وما هو غير مولود. وعليه فإنّ والدة الله القديسة قد ولدت أقنوماً معروفاً في طبيعتيه الإثنتين اللاهوت – وهو المولود بمعزل عن الزمن – ثم في آخر الأيام وفي الزمن، وقد تجسّد منها – قد وُلد بالجسد.

في المسيح طبيعتان. وهو قد تألّم في تلك التي هي قابلةٌ التألّم: – واذا تابع سائلونا قائلين: إذاً إنّ المولود من والدة الله القديسة هو طبيعتان، فنجيبهم: نعم هو طبيعتان وهو إلهٌ وإنسان معاً. وهو كذلك في صَلْبه وقيامته وصعوده، لأنّ هذه لا تختصّ بطبيعته بل بأقنومه. إذاً فإنّ المسيح الذي هو في طبيعتين قد تألّم في طبيعته القابلة التألّم، وقد صلب لأنه عُلِّق على الصليب بالجسد لا باللاهوت. وعندما يكرّرون السؤال قائلين: هل الطبيعتان قد صُلبتا؟ فنجيبهم: – كلاً! فإنّ الطبيعتين لم تُصلبا مطلقاً، بل إنّ المسيح هو الذي ولد – أي الكلمة الإلهيّ قد تجسد فولد في جسد، ثم صُلب في جسد، ثم تألّم في جسد ثم مات في جسد وبقي لاهوته منزّهاً عن الألم.

كيف ابن الله الوحيد يدعى بكراً

إنّ البكر هو المولود الأول. وهو يكون ابناً وحيداً أو أيضاً المولود قبل إخوته الآخرين. وعليه فإذا قلنا بأنه ابن الله البكر، ولم نقل بأنه الابن الوحيد، يمكن أن نتخيّله بكرَ الخلائق، على أنه خليقةٌ. ولمّا كنّا نقول فيه بكراً وابناً وحيداً، فعلينا الاحتفاظ بهما كليهما في كلامنا عنه. والسبب في أننا نقول فيه: «إنه بكر الخليقة كلها» (٧)، لأنه هو من الله والخليقة أيضاً من الله، لكنه هو من جوهر الله الآب مولودٌ وحده بمعزلٍ عن الزمن، ابناً بالحقيقة وحيداً وبكراً. وهو لا يُقال فيه المخلوق أولاً، لأنّ الخليقة ليست من جوهر الآب، بل انتقلتْ بمشيئته من العدم إلى الوجود. وهو «بكر ما بين إخوة كثيرين» (٨)، لأنه ابن وحيد لأمّه أيضاً. وقد اشترك بالدم واللحم على مثالنا وصار إنساناً، وصرنا نحن أيضاً به أبناء الله، أبناءً بالوضع بالمعمودية. فإن ابن الله بالطبيعة نفسه قد صار البكر فينا نحن الصائرين بالوضع أبناء الله بالنعمة والمدعوّين إخوته. لذلك فقد قال: «أصعد إلى أبي وأبيكم» (٩)، ولم يقل **إلى أبينا**، بل **إلى أبي**، أعني بالطبيعة **وأبيكم** بالنعمة. وقد أضاف: **إلهي وإلهكم**، ولم يقل **إلهنا** حتى إذا ما حللتَ مضمون المفاهيم، منظورها ومعقولها، تفطن أنّ كلمة **وإلهكم** تعني **الربّ الخالق**.

(٧) كولوسي ١: ١٥ (٨) رومة ٨: ٢٩ (٩) يوحنا ٢٠: ١٧

في الإيمان والمعمودية

مفعول المعموديّة. – المعموديّة واحدة. – ضرورة استدعاء الثالوث الأقدس في المعموديّة. لماذا التغطيسات الثلاث. – ما معنى المعموديّة في المسيح. – الافخارستيا والمعموديّة ينبعان من جنب المخلّص. – الازدواجيّة في المعموديّة على مثال تركيب الإنسان.

ونعترف بمعمودية واحدة لمغفرة الخطايا وللحياة الأبديّة. فإنّ المعمودية دليلٌ على موت الربّ. ونحن نُدفَن مع الربّ في المعمودية، كما يقول الرسول الإلهيّ[١٠]. فكما أنّ موت الرب قد تمَّ مرةً واحدة، يجب أن تصيرَ المعمودية كذلك مرةً واحدة، معتمدين على حسب كلام الرب، باسم الآب والابن والروح القدس[١١]، فنتعلّم الاعتراف بالآب والابن والروح القدس. وعليه، إنّ كل الذين اعتمدوا بالآب والابن والروح القدس فصاروا عارفين طبيعة اللاهوت الواحدة في ثلاثة أقانيم، إذا ما اصطُبغوا ثانية، فهم يجدّدون صلبَ المسيح، كما يقول الرسول الإلهيّ: «إنّ الذين قد أُنيروا مرة الخ... ثم سقطوا، فلا يمكنهم أن يتجدّدوا ثانية للتوبة صالبين لأنفسهم المسيح ثانية ومشهّرين إيّاه»[١٢]. أمّا الذين لم يعتمدوا في الثالوث الأقدس، فينبغي لهؤلاء أن يعتمدوا ثانية، لأنه ولو قال الرسول الإلهي أيضاً: «بأننا قد اصطبغنا في المسيح وفي موته»[١٣]، فهو لا يقول بأنه يجب أن يكون استدعاءُ المعمودية على هذا المنوال، بل إنّ المعمودية إنما هي رمز لموت المسيح، لأنّ المعمودية – بواسطة التغطيسات الثلاث – تعني الأيام الثلاثة لدفن المسيح. إذاً فإنّ المعمودية بالمسيح تعني معمودية المؤمنين به، ولا يمكنّا الإيمان بالمسيح دون أن نتعلّم الاعتراف بالآب والابن والروح القدس، لأنّ المسيح هو «ابن الله الحيّ»[١٤]، وقد مسحه الآب بالروح القدس[١٥]، كما يقول داود الإلهيّ: «لذلك مسحَكَ الله إلهك بدهن البهجة أفضل من شركائك»[١٦]. وقد قال أشعيا ممثّلاً الرب: «إنّ روح السيّد الرب عليّ. لأجل هذا مسحني»[١٧]. وقد علّم الرب تلاميذه الأخصّاء هذا الاستدعاء قائلاً: «معمّدين إياهم باسم الآب والابن والروح القدس»[١٨]. ولمّا كان الله قد صنعنا في عدم الفساد،

---

(١٠) كولوسي ٢: ١٢ (١١) متى ٢٨: ١٩ (١٢) عبرا ٦: ٤ – ٦ (١٣) رومة ٦: ٣

(١٤) متى ١٦: ١٦ (١٥) أعمال ١٠: ٣٨ (١٦) مز ٤٤: ٨ (١٧) أشعيا ٦١: ١

(١٨) متى ٢٨: ١٩

وكنا نحن قد تجاوزنا وصيّته الخلاصية وحُكم علينا بفساد الموت ، فلكي لا يستمرَّ الشرُّ قائماً ، انعطف هو نحو عبيده – وهو الرحيم – وصار على مثالنا . فأنقذنا من الفساد بآلامه الخاصة وأفاض علينا من جنبه الأقدس والطاهر ينبوعَ الغفران ، ماءً لإعادة الولادة ورحض الخطيئة والفساد ، ودماً ، مشروباً صالحاً للحياة الأبديّة . وأعطانا وصايا لنتجدّد بالماء والروح ، بواسطة الصلاة والاستدعاء ، بحلول الروح القدس على الماء . ولما كان الإنسان مزدوجاً ، من نفس وجسد ، فقد أعطانا تنقيةً مزدوجة ، بالماء والروح . فبالروح يجدّد فينا ما كان على صورة الله وعلى مثاله ، أما بالماء فيُنقّي فينا الجسد من الخطيئة بنعمة الروح القدس ، ويحرّره من الفساد . إن الماء يحقّق فينا صورة الموت والروح يمنحنا عربون الحياة .

قوة الماء التطهيريّة : – إنه منذ البدء « كان روح الله يرفّ على وجه المياه » [١٩] . ومنذئذٍ أخذ الكتاب يشهد للماء بالتطهير . ففي أيام نوح غرّق الله خطيئة العالم بالماء [٢٠] ، « وكل نجس على مقتضى الشريعة ، يطهّر بالماء » [٢١] ، حتى الثياب نفسها إذا ما غسلت بالماء . وقد « أظهر إيليّا نعمةَ الروح ممزوجةً بالماء لمّا أحرق الضحيّة بالماء » [٢٢] . وكل شيء تقريباً يطهّر بالماء بموجب الشريعة ، لأنّ المنظورات رموز للمعقولات . وتجديد الولادة يصيرُ في النفس ، والإيمان من شأنه أن يجعل صاحبه – بفعل الروح – ابناً لله بالوضع ، على الرغم من أننا خلائق ، فيقودنا إلى السعادة القديمة .

نعمة العماد على قدر استعداد مقتبلها ونقاوته : – إذاً فالمعمودية يمنح غفران الخطايا للجميع بالتّساوي . أمّا النعمة فتكون على قدر إيمان المعتمد وقابليّته للتنقية . إذاً فإننا ننال الآن بالمعموديّة باكورةَ الروح القدس ، فتَصير لنا إعادةُ الولادة بدءَ حياة أخرى وختماً لها وضماناً وإنارة .

وعلينا أن نثبت بكلّ قوّتنا في حفظ ذواتنا أنقياء من الأعمال الدنسة ، ولا نعود إليها ثانية « كما الكلب إلى قيئه » [٢٣] ، فنجعل ذواتنا من جديد عبيداً للخطيئة ، لأنّ الإيمان بدون أعمال ميت ، وكذلك الأعمال بدون إيمان ، لأن الإيمان الصادق يُختبر بالأعمال .

لماذا نعتمد في الثالوث : – ونحن نعتمد في الثالوث الأقدس لأنّ المعتمدين في حاجة إلى الثالوث الأقدس لقيامهم وثباتهم . وإنه لا يمكن عزل الأقانيم الثلاثة بعضهم عن بعض ، لأن الثالوث الأقدس غير منفصل .

---

(١٩) تكوين ١ : ٢ (٢٠) تكوين ٦ : ١٧ (٢١) راجع أحبار ١٥ : ١٠
(٢٢) راجع ٣ ملوك ١٨ : ٣٤ (٢٣) ٢ بطرس ٢ : ٢٢

أنواع المعموديّة : – تختلف معموديّة يوحنا عن معموديّة المسيح . – معموديّة التوبة . – معموديّة الشهداء ، وهي الأسمى . – ومعموديّة المصلوب إلى الأبد : – إن المعموديّة الأولى لاستئصال الخطيئة كانت بالطوفان (٢٤) ، والثانية كانت بالبحر والغمام (٢٥) . فإنّ الغمام رمزٌ للروح والبحر رمز للماء . والثالثة كانت التشريع ، فان كل نجس كان يُحمُّ بالماء وتُغسل ثيابه وهكذا يدخل إلى المحلة . والرابعة معموديّة يوحنا التي كانت مدخلاً يؤدّي بالمعتمدين إلى التوبة كي يؤمنوا بالمسيح . وقد قال : «أنا أُعمّدكم بالماء للتوبة . وأمّا الذي يأتي بعدي فهو أقوى مني وأنا لا أستحقّ أن أحُلَّ حذاءه . وهو يعمّدكم بالروح القدس والنار» (٢٦) . إذاً فإنّ يوحنا يسبق فيطهّر بالماء استعداداً للروح . والخامسة معمودية الربّ . وقد اعتمد بها هو نفسه . وهو قد اعتمد لا على أنه هو نفسه في حاجة إلى تطهير ، بل لكي – وقد جعل من تطهيري خاصّته – يسحقَ بالماء رؤوس التنانين ، لكي يغرّق الخطيئة ويدفنَ في الماء آدم القديم كله ، لكي يقدّس المعمودية ، لكي يُتمّ الشريعة ، لكي يعلن سرّ الثالوث ، لكي يكون رمزاً ومثالاً للمعموديّة . ونحن أيضاً نعتمد بمعموديّة الربّ الكاملة التي هي بالماء والروح . وقد قيل إنّ المسيح يعمّد بالنار ، ذلك أنه قد أفاض نعمة الروح على رسله القدّيسين بصورة ألسنة نارية ، كما يقول الرب نفسه : «إنّ يوحنا إنما عمّد بالماء ، أما أنتم فستعمّدون بالروح القدس والنار بعد أيام غير كثيرة» (٢٧) أو ذلك بسبب معمودية النار الآتية للعقاب . والسادسة هي المعمودية بالتوبة والدموع ، وهي مؤلمة حقاً . والسابعة هي المعمودية بالدم والشهادة ، وهي جليلة ومغبوطة جداً لأنها لا تكون عرضة لأوساخ ثانية . الثامنة وهي المعمودية الأخيرة التي ليست للخلاص . إنما هي لإبادة الشرّ . فلا مجال بعدها للشرّ والخطيئة . وهي عقاب لا ينتهي .

الروح القدس بشكل حمامة ونار : – لقد حلّ الروح القدس على الرب بصورة جسميّة ، شبه حمامة ، دالاً بذلك على باكورة معموديتنا ، ومكرّماً الجسد ، لأنّ هذا أيضاً – أي الجسد – إلهٌ بالتألّه . وقد كان قبلاً قد تمثّل بحمامة ليبشّر بنهاية الطوفان . وقد نزل على التلاميذ القديسين بصورة نار ، لأنه إله و «لأنّ الله نار آكلة» (٢٨) .

---

(٢٤) تكوين ٧ : ١٧ (٢٥) ١ كور ١٠ : ٢ (٢٦) متى ٣ : ١١ (٢٧) أعمال ١ : ٥

(٢٨) تثنية ٤ : ٢٤

مسحة الزيت : – ويُستعمل الزيت في المعمودية إشارة إلى مسحتنا ، ولأنه يجعلنا مسحاء ويبشّرنا برحمة الله علينا بالروح القدس ، لأنّ الحمامة هي أيضاً قد حملت غصن زيتون إلى الذين خلصوا من الطوفان.

يوحنّا واعتماده : – لقد اعتمد يوحنّا بوضعه يده على هامة السيّد الإلهيّة ، ثم بدمه الخاصّ.

يجب ألاّ يصير تأجيلٌ في المعمودية عندما يكون إيمان المُقبلين إليه يَشهدُ لهم بأعمالهم ، لأنّ من يتقدّم إلى المعمودية بغشٍّ يُحكَم عليه بدلاً من أن يستفيد.

في الإيمان

فضيلة الإيمان. – الذي لا يعتقدُ بتقليد الكنيسة أو يعيش عيشةً رديئةً هو غيرُ مؤمن

والإيمان على نوعين: – الإيمان من السماع [٢٩]. فنحن بإصغائنا إلى الكتب الإلهيّة، نؤمن بتعليم الروح القدس. وهذا يتمّ متى آمنّا فعلاً بجميع الشرائع التي وضعها المسيح وكانت التقوى رائدنا، ثم عملنا بوصايا من أعاد تجديدنا. والذي لا يؤمن بمقتضى تقليد الكنيسة الجامعة أو يشترك مع إبليس في أعماله الشرّيرة، هو غير مؤمن.

والإيمان عطيّة الروح: – و«الإيمان هو قيام المرجوّات فينا وبرهانُ الغير المنظورات» [٣٠]. وهو رجاءٌ بلا ريبٍ ولا جدلٍ في ما أُعلنه الله لنا وفي استجابة طلباتنا، أولها من وحي ضميرنا والثاني من مواهب الروح.

الختانُ الروحيّ: – واعلمْ أننا بالمعموديّة نختن كل حاجزٍ قام منذ تكويننا أعني به الخطيئة ونصبحُ إسرائيليين روحيين وشعبَ الله.

---

(٢٩) رومة ١٠: ١٧ (٣٠) عبرا ١١: ١

في الصليب ثم في الإيمان أيضاً

لا يمكن فهم خلق الكائنات بالتفكير البشريّ. - الإيمان ضرورةٌ عامة. - ما هو الإيمان: - «إنّ كلمة الصليب عند الهالكين جهالةٌ. وأما عندنا نحن المخلَّصين فهي قوة الله» (٣١)، «فإنّ الروحي يحكمُ في كل شيء» (٣٢). «أما الإنسان الحيواني فلا يُدرك ما لروح الله» (٣٣). فإنها لَجهالةٌ عند الذين لا يقتبلون ذلك بإيمانٍ ويشكّكون في صلاح الله واقتداره العامّ، بل يدقّقون في بحثِ الإلهيّات بأفكار بشريّة وطبيعيّة، لأنّ كلّ ما يتعلّق بالله هو فوق الطبيعة والنطق والتفكير. فإذا تساءل أحدهم كيف وبماذا ولماذا أخرج الله كلَّ شيء من العدم إلى الوجود، وأراد أن يعبّر عن ذلك بأفكار طبيعيّة، فهو لا يستوعبُه وتكونُ معرفته نفسها طبيعيّة وشيطانيّة. أما إذا هو انقاد على هدي الإيمان وفكّر بأنّ الإله صالح وقدير وصادق وحكيم وعادل، فهو يرى كل شيء سهلاً وممهّداً، والسبيل إليه رحباً. فإنه لا يمكن الخلاص بدون الإيمان. وبالإيمان يقوم كل شيء، بشريًّا كان أم روحيًّا. لأنّ الفلاّح بدون إيمان لا يشقّ أرضاً إلى أَتلام ولا التاجرُ بدون إيمان يزجُّ بنفسه على خشبة صغيرة في لجّة البحر الهائج، ولا الزواجات تقوم، ولا أي شيءٍ آخر مما في الحياة. فبالإيمان نفهم خروج كل شيء من العدم إلى الوجود بقوّة الله، وبالإيمان نقدِّر كل الإلهيّات والبشريّات قدْرها. فإنّ الإيمان اقتناع لا يتخلّله أبحاث فارغة!

ليس من شيء أعجب من صليب المسيح. فوائده: - إذاً فإنّ كل أعمال المسيح ومعجزاته عظيمة جداً وإلهيّة وعجيبة. بيد أنَّ أعجبَها كلها صليبُه الكريم. فلولاه لما بَطُلَ الموت أبداً ولا انحلّت خطيئة أبينا الأول ولا سُلب الجحيم ولا مُنحت القيامة ولا أُعطيت لنا قوّة لاحتقار الأشياء الحاضرة والموت نفسه ولا تمهَّدَ السبيل للعودة إلى السعادة القديمة ولا فُتحتْ أبواب الفردوس وجلسَتْ طبيعتُنا إلى ميامن الله، ولا صرنا أبناءَ الله وورثته، لولا كان بصليب ربّنا يسوع المسيح، لأنّ كل شيء قد اصطلح بالصليب. ولذا فإنّ الرسول يقول: «إنّ كل من اصطبغ منّا في يسوع المسيح اصطبغ في موته» (٣٤)، و«نحن جملة من اعتمدنا في المسيح قد لبسنا المسيح» (٣٥)، و«المسيح قوّة الله وحكمة الله» (٣٦). فهوذا موت

---

(٣١) ١ كور ١: ١٨
(٣٢) ١ كور ٢: ١٥
(٣٣) ١ كور ١: ١٤
(٣٤) رومة ٦: ٣
(٣٥) غلاطية ٣: ٢٧
(٣٦) ١ كور ١: ٢٤

المسيح – أي صليبه – قد أَلبسنا حكمة الله وقوّته الأقنوميّة. والكلمة، كلمة الصليب، هو قوة الله، ذلك لأنه اقتدار الله، ولأنه انتصر على الموت وبه قد ظهر لنا، ولأنه – على نحو ما أنَّ أطرافَ الصليب الأربعة ترتبط وتشتدُّ في نقطتها الوسطى –، كذلك، بقوّة الله، يجتمع العلوُّ والعمقُ والطولُ والعرضُ أي الخليقة كلها، ما يُرى وما لا يُرى.

إشارة الصليب تميز بين المؤمنين وغير المؤمنين: – والصليبُ قد أُعطي لنا سمةً على جبهتنا، على نحو ما دُفعتِ الختانة لإسرائيل. والمؤمنون يتميّزون بواسطتها من غير المؤمنين فنعرفهم. وهو ترسٌ وسلاحٌ وفوزٌ ضدَّ إبليس، وهو ختمٌ كي لا يمسَّه مبيدُ الكلّ، كما يقول الكتاب. وهو نهوض الساقطين وسندُ الواقفين وعكّاز الضعفاء وعصا الرعاة وإرشاد المرتدّين وكمال الفائزين. وهو خلاصٌ للنفس والجسد، وتنقيةٌ من كل الشرور ومجلبةٌ لكلّ الخيرات، وإزالةُ الخطيئة ونبت القيامة وعودُ الحياة الأبدية.

السجود لعود الصليب ولسائر ما قدّسه المسيح بلمسه إيّاه: – إذاً فيجب السجود للعود الكريم حقاً والمستحقّ الإكرام الذي قرَّب عليه المسيحُ ذاته مذبوحاً لأجلنا، وقد تقدّس بلمسه الجسدَ والدمَ الأقدسين. ويجب السجود أيضاً للمسامير والحربة وثيابه، ولمساكنه التي هي المذودُ والمغارةُ والجلجلةُ وقبرُه الخلاصيّ المحييّ ولصهيون أُمّ الكنائس ولأمثالها، على ما يقولُ داود أبو المسيح إلهنا: «لندخل إلى مساكن الربّ ولنسجد لموطئ قدميه»[٣٧]. والبرهان على أنه يعني بذلك الصليب، يُؤْخذ مما يأتي: «قمْ أيها الرب إلى راحتك»[٣٨]، لأنّ القيامة تتبع الصليب. فإذا كان الحبيبُ يحبُّ من محبوبه بيته وسريره ولباسَه، فكم بالأحرى كثيراً يجب أن نُحبَّ – من إلهنا ومخلِّصنا – ما بواسطته صرنا مخلَّصين!

يجب السجود لرسم الصليب، على أنه شارة المسيح، ولا ينبغي السجود لمادّة الصليب: – ونحن نسجد أيضاً لرسم الصليب الكريم المحيي ولو كان من مادة أخرى، لأننا لا نكرّم المادّة، حاشا! بل الرسمَ، على أنه رمزُ المسيح. وقد قال هو بوصيّته لتلاميذه: «وحينئذٍ تظهر علامةُ ابن البشر في السماء»[٣٩] – دالاً بذلك على الصليب –. لذلك قال أيضاً ملاك القيامة للنسوة: «إنكنَّ تطلبنَ يسوع الناصريّ المصلوب»[٤٠]، لأنَّ كثيرين هم الذين يتكنَّون بالمسيح وبيسوع، ولكنَّ المصلوب واحد. وهو لم يقل: **المطعون بحربةٍ**، بل **المصلوبَ**. وعليه يجب السجود لعلامة المسيح، لأنه حيثما تكون العلامة يكون هو نفسه

---

(٣٧) مز ١٣١: ٧ (٣٨) مز ١٣١: ٨ (٣٩) متّى ٢٤: ٣٠ (٤٠) مرقس ١٦: ٦

أيضاً. أمّا المادة المعمول منها رسمُ الصليب، ذهباً كانت أو حجارة كريمة، فاذا حدث أن زالَ الرسم، لا ينبغي لها السجود. وعليه فإننا نسجد لكل ما يُنسب لله، مركّزين عبادتَنا عليه.

ان عود الحياة رمز للصليب: – إن عود الحياة – ذاك الذي قد غرسه الله في الفردوس – كان قد سبق ورمز إلى الصليب الكريم. فلمّا دخل الموت إلينا بالعود، وجبَ أن تُعطى لنا بالعود الحياة والقيامة. ويعقوبُ الأول لمّا سجد لرأس عصا يوسف قد صوَّر الصليب، ولما بارك ولدَيْه بيديه المتعارضتين، رسمَ علامة الصليب رسماً جليًّا جداً. وإنّ عصا موسى – بضرب البحر بها في شكل صليب – أنقذت إسرائيل وغرَّقت فرعون. وإنّ يديه المبسوطتين على شكل صليب قهرتا عماليق. – والماء المرّ قد صار حلواً بالعود وانفلقت الصخرة وجرت منها المياه. – وإن عصاً أيضاً قد احتفظت لهارون برئاسة الكهنوت. والحيّة لما رُفعت على عود وقد بدت مائتة، خلَّص العود أولئك المؤمنين الناظرين إلى عدوّهم مائتاً. ذلك على مثال المسيح الذي لم يعرفْ خطيئة وقد سُمِّر بجسد الخطيئة. لذلك صرخ موسى العظيم قائلاً: «انظروا إلى حياتكم على عودٍ معلّقة تجاه أعينكم»[٤١]. وقال أشعيا: «بسَطتُ يديَّ النهار كلّه نحو شعبٍ عاصٍ يسلكون طريقاً غير صالحٍ وراءَ أفكارهم»[٤٢]. أما نحن الساجدين له عسانا نحظى بالنصيب مع المسيح المصلوب!

---

(٤١) تثنية ٢٨: ٦٦ (٤٢) أشعيا ٦٥: ٢

في الاتجاه نحو الشرق في السجود

لماذا تتّجه الكنيسة نحو الشرق في سجودها. - تقليد غير مكتوب: - ليس هو من الأمور البسيطة ولا هو على سبيل الصدفة أننا نتّجه في سجودنا نحو الشرق. بل لمّا كنّا مركَّبينَ من طبيعة منظورة وغير منظورة، عقليّة وحسيّة، فإننا نقدّم للصانع سجوداً مزدوجاً أيضاً، على نحو ما نترنّم بالعقل ونترنَّم بشفاهنا الجسديّة، ونعتمدُ بالماء وبالروح، ونتّحد بالرب اتحاداً مزدوجاً، باشتراكنا في الأسرار وفي نعمة الروح.

وعليه، بما أن الله نورٌ عقلي وأن **المسيح** يُسمّى في الكتب المقدّسة **شمس العدل والمشرق**، وجب تخصيص الشرق للسجود له فإنه ينبغي أن كلَّ حسنٍ يقرّب لله، على أنه مصدر كل صلاح. ويقول أيضاً داود الإلهيّ: «يا ممالك الأرض رنِّموا لله، أَشيدوا للسيّد الراكب على سماء السماوات في المشرق» [٤٣]. ويقول الكتاب أيضاً: «وغرس الربّ الإله جنّةً في عدن في المشارق وجعل هناك الإنسان الذي جبله» [٤٤]. ولمّا أخطأَ هذا «أخرجه الرب» [٤٥] وأسكنه مقابل فردوس النعيم، أي في المغارب. إذاً نحن نلتمس وطننا القديم فنتّجه إليه ونسجد للربّ. وكان المحضرُ الموسويّ أيضاً له خباؤه ومغتفره في المشارق. وإنّ قبيلة يهوذا - بما أنها كانت الأكثر كرامة في القبائل - كان استيطانُها يرتكز ناحية المشارق. وقد كان مكانُ باب الربّ، في هيكل سليمان الشهير في المشارق. لكنّ الربّ - وهو على الصليب - كان نظره متجهاً إلى المغارب. ومن ثمّ فإننا نتّجه نحوه ونسجد له. والرب في عودته إلى السماء قد ارتفع نحو المشارق. وعلى هذا المشهد سجدَ له الرسل. و «سيأتي هكذا كما عاينوه منطلقاً إلى السماء» [٤٦]، على نحو ما قال لهم الربّ نفسه: «مثلما أن البرق يخرج من المشارق ويظهر إلى المغارب، كذلك يكون مجيء ابن البشر» [٤٧]. إذاً بانتظار مجيء الرب هذا، نحن نسجد نحو المشارق. إنّ هذا التقليد نفسه لم يكتبه لنا الرسل. ولكنّ الكثير مما قد وصل إلينا غير مكتوب.

---

(٤٣) مز ٦٧: ٣٣ وما يليها (٤٤) تكوين ٢: ٨ (٤٥) تكوين ٣: ٢٤
(٤٦) أعمال ١: ١١ (٤٧) متى ٢٤: ٢٧

في أسرار الربّ المقدّسة الطاهرة

تدبيرُ خلاص البشر : - لمّا كان الله صالحاً وكامل الصلاح وفوق الصلاح وكان كلّه من الصلاح ، وكان - لسبب فيض غنى صلاحه - لم يحتمل أن يكون الصلاح له وحده - أي لطبيعته - دون أن يُشارك به أحداً ، فقد جعل هبة من صلاحه للقوّات السماويّة العقليّة أولاً ، ثم للعالم المنظور والمحسوس ، ثم للإنسان المركّب من معقول ومحسوس . إذاً فإنّ جميع من أوجدهم قد أَشركهم بصلاحه من حيث وجودُهم - لأنه هو نفسه الوجود لجميعهم و «لأنّ كل شيء هو به» - لا لأنه هو نفسه قد أخرج الكلّ من العدم إلى الوجود فحسب ، بل أيضاً لأنّ فعله تعالى يحفظ كلَّ ما كوَّنه ويُبقيه في الوجود ، وخاصّة الكائنات الحيّة . فإنها بحسب وجودها وبحسب بقاء حياتها في الوجود تشترك بصلاحه . وبالأحرى كثيراً الكائنات الناطقة - إنْ بحسب ما سبق قوله وإنْ بحسب ذاك الناطق (الإنسان) - . فما أقربه إليه تعالى رغم أنّ الله هو الأسمى سموًّا لا قياس له ! ! !

وعليه فإنّ الإنسان - لكونه ناطقاً وحرًّا - قد نال سلطاناً للاستمرار - لو أراد - متّحداً بالله ، شريطة أن يبقى في الصلاح أي في الخضوع للخالق . لكنه لما انحدر إلى مخالفة وصيّة جابله وسقط تحت عقاب الموت والفساد ، ما كان من جابل جنس البشر وصانعه إلاّ أن يتشبَّه بنا ، مدفوعاً لذلك بأحشاء رحمته وصائراً إنساناً في كل شيء ما عدا الخطيئة ، ويتّحد بطبيعتنا . ولمّا كان قد أعطانا صورته الخاصة وروحه الخاصّ ولم نحافظ عليهما ، فقد شاركَنا هو نفسه في طبيعتنا الحقيرة والضعيفة ، لكي ينقّينا وينزع عنّا الفساد ويجعلنا من جديد شركاءه في لاهوته .

مفعول التجسّد في متروكات المسيح للبشر : - وكان ينبغي ألاَّ ينحصر الإنعام بالحياة الفضلى في الباكورة فحسب ، بل أن يتجاوزها إلى كل إنسانٍ يريده ، ذلك بأن يولدَ الإنسان ولادةً ثانية ، وأن يغتذي بغذاءٍ ملائم لهذه الولادة فيصل إلى مقدار الكمال . فالمسيح إذاً بميلاده - أي بتجسّده ومعموديّته وآلامه وقيامته - ، قد أعتق طبيعةَ خطيئةِ أبينا الأول من الموت والفساد ، وصار باكورة قيامتنا ، وجعل من ذاته طريقاً لنا ورمزاً ومثالاً ، حتى إننا نحن أيضاً ، إذا ما اتّبعنا آثاره ، نصير بالوضع ما هو عليه بالطبيعة ، أبناءً وورثة الله وشركاء في الميراث . فهو إذاً قد أعطانا - كما قلت - أن نولد ثانية حتى إننا ، كما ولدنا من آدم فماثلناه

وورثنا عنه اللعنة والفساد ، كذلك أيضاً بولادتنا منه نماثله فنرث عنه عدم الفساد والبركة والمجد .

الولادة في المسيح والطعام المزدوج : تأسيس الإفخارستيّا . – أكل المسيح الفصح القديم : – ولمّا كان آدم هذا روحيًّا ، وجب أن تكون الولادة روحية أيضاً ، والطعام أيضاً كذلك . ولكن لمّا كنّا مزدوجين ومركّبين ، وجب أن تكون الولادة أيضاً مزدوجة والطعام كذلك مركّباً . فإنّ الولادة إذاً تُعطى لنا بالماء والروح – وأعني بذلك المعمودية المقدّسة – أما الطعام فهو خبزُ الحياة نفسه ، ربنا يسوع المسيح ، النازل من السماء . ولمّا كان مزمعاً باختياره أن يستسلم للموت لأجلنا ، في الليلة التي قرّب فيها ذاته ، وضع عهداً جديداً لتلاميذه الرسل القديسين – وبواسطتهم لجميع المؤمنين به – . في عليّة صهيون المقدّسة المجيدة ، فيمَا كان يأكل الفصح القديم مع تلاميذه ويكمّل العهد القديم ، غسل أقدام تلاميذه ، رامزاً بذلك إلى المعموديّة المقدّسة ، ثم كسر خبزاً فقدّمه لهم قائلاً : «خذوا فكلوا ، هذا هو جسدي المكسور لأجلكم لمغفرة الخطايا» [٤٨] . وكذلك أخذ أيضاً الكأس من خمر وماء وقدّمه لهم قائلاً : «اشربوا من هذا كلكم ، هذا هو دمي ، دمُ العهد الجديد ، المهراق عنكم ، لمغفرة الخطايا . اصنعوا هذا لذكري . فكلّ مرة تأكلون هذا الخبز وتشربون هذه الكأس ، تُبشّرون بموت ابن الإنسان وتعترفون بقيامته ، إلى أن يأتي» [٤٩] .

إعلانُ حقيقة الإفخارستيّا . – مفعول كلمات الربّ في الإفخارستيّا . – مفعول قوّة الروح القدس الذي يجعل من خبز جسد الرب : – ولمّا كان «كلام الله حيًّا ونافذاً» [٥٠] و «كلّ ما شاء الرب صنعه» [٥١] . ولمّا كان قد قال : «ليكن النور فكان . ليكن الجَلَد فكان» [٥٢] وأنه «بكلمة الربّ صُنعت السماوات وبروح فيه جنودها» [٥٣] . وإذا كان كلمة الله نفسه قد شاء فصار إنساناً وشخَّصَ لذاته جسداً بلا زرع من الدماء النقيّة والبريئة من العيب ، دماء القدّيسة العذراء الدائمة البتوليّة ، أفلا يستطيع هو نفسه أن يجعل من الخبز جسده ومن الخمر والماء دمَه؟! ثم في البدء قال الربّ : «لتُنبت الأرض نباتاً عشباً . . .» ، وحتى الآن هي ، لدى هطل المطر ، تُخرج نباتها الخاص مدفوعة ومسيّرة لذلك بالأمر الإلهي ! وقد قال الله : «هذا هو جسدي وهذا هو دمي واصنعوا هذا لذكري وأنّ هذا يكون بأمره القدير إلى أن يأتي» . أجل ، فقد صرّح هكذا : **إلى أن يأتي** . ثم ينزل المطر

---

(٤٨) متى ٢٦:٢٦ (٤٩) متى ٢٦:٢٧ ؛ مرقس ١٤:٢١ ؛ لوقا ٢١:١٧ ؛ ١ كور ١١:٢٤ – ٢٦
(٥٠) عبرا ٤:١٢ (٥١) مز ١٣٤:٦ (٥٢) تكوين ١:٣ و ٦ (٥٣) مز ٣٢:٦

على هذا الحقل الجديد، بواسطة الاستدعاء أي بقوّة الروح القدس المظلّلة. وعلى هذا النحو، إنّ كل ما صنعه الله إنما صنعه بفعل الروح القدس، وهو الآن يعمل كذلك بفعل الروح القدس ما هو فوق الطبيعة وما لا يمكن أن يقبله إلاّ الإيمان وحده. وتقول العذراء القدّيسة: «وكيف يكون لي هذا، وأنا لا أعرف رجلاً؟»، ويجيبها جبرائيل رئيس الملائكة: «الروح القدس يحلّ عليك وقوّة العليّ تظلّلك». وتتساءل أنت الآن: - كيف يصير الخبز جسد المسيح ويصير الخمر والماء دم المسيح؟ - وأنا أقول لك: يحلُّ الروح القدس ويصنعُ ما يفوق النطق والعقل.

لماذا يُستعملُ الخبزُ والخمرُ في الإفخارستيّا: - ونحن نستعمل الخبز والخمر، ذلك لأنّ الله - وقد كان يعرف ضعفنا البشريّ بإنّ الأكثرية فينا تنفر مستصعبةً ما هو ليس على مألوف عادتها - قد استعمل إذاً معنا تنازلَه المعتاد ليُجريَ فينا ما يفوق الطبيعة بما هو من عادة الطبيعة. وقد فعل على هذا النحو في المعمودية حيث العادة لدى البشر أن يستحمّوا بالماء ويدّهنوا بالزيت. وقد أضاف إلى الزيت والماء نعمة الروح القدس وجعل من هذا نفسه حميم إعادة الولادة. وكذلك، لمّا كانت عادة الناس أن يأكلوا الخبز ويشربوا الماء والخمر، فقد أضاف إلى ذلك لاهوتَه وجعل منهما جسده ودمه، لكي نبلغَ - بما هو من عوائدنا وعلى موجب طبيعتنا - إلى ما هو فوق الطبيعة.

في الإفخارستيّا لا يصيرُ تنزيلُ المسيح من السماء بل تحويلُ العناصر: - والقربان إنما هو جسدٌ بالحقيقة متّحد باللاهوت، وهو الجسد المأخوذ من العذراء القديسة، ليس على أنه الجسد الذي كان قد ارتفع إلى السماء ينحدر منها، بل إنَّ الخبز نفسه والخمر نفسه يتحوّلان إلى جسد الله ودمه. وإذا تساءلتَ عن الطريقة كيف حدث ذلك، فيكفيك أن تسمع بأنّ ذلك يتمّ بالروح القدس. وكما أنّ الربَّ قد شخَّص لذاته وبذاته جسداً بواسطة الروح القدس من والدة الله القدّيسة، ولسنا نعرف أكثر من ذلك سوى أنّ كلام الله صادقٌ ونافذٌ وقديرٌ ولا يمكن تفسير كيفيّته، غير أنه ليس مستهجناً أيضاً هذا القول بأنه، كما يتحوّل تحويلاً طبيعيًّا الخبز بالأكل والخمر والماء بالشرب إلى جسد ودم الآكل والشارب، ولا يتحوّلان إلى جسمٍ آخر غير جسمه الأول، كذلك قل عن خبز التقدمة والخمر والماء باستدعاء الروح القدس وحلوله. فإنهما يتحوّلان تحويلاً يفوق الطبيعة إلى جسد المسيح ودمه. ولا يكونان اثنين، بل هما واحد وهو هو نفسه.

وعليه يكون لمن يتناولونه بإيمان وعن استحقاق لمغفرة الخطايا وللحياة الأبدية ولصيانة

النفس والجسد. أمّا للذين يتناولونه عن غير استحقاق وبدون إيمان، فيكون لعقابهم وتعذيبهم، شأنه شأن موت الربّ. فهو للمؤمنين حياة وعدم الفساد ويؤدّيان إلى التمتّع بالسعادة الأبدية. وهو لجاحدي الرب وقاتليه يكون لعقابٍ وعذاب أبديّين.

جسد الربّ حقيقة وليس رمزاً: – ليس الخبز والخمر رمزين لجسد المسيح ودمه – حاشا – بل هو جسد الربّ نفسه متألِّهاً، جسد الربّ الذي يقول هو نفسه: «هذا ليس رمز جسدي، بل جسدي، ولا رمز دمي، بل دمي». وكان قبلاً قد قال لليهود: «إن لم تأكلوا جسد ابن البشر وتشربوا دمه، فلا حياة في أنفسكم... لأنّ جسدي مأكل حقيقي ودمي مشرب حقيقي» (٥٤). وأيضاً: «من يأكلْني يَحْيَ».

رتبة منح الإفخارستيّا بالأيدي: – لذلك لنتقدّم بكل تهيّبٍ وبضمير نقيّ وبإيمان لا يتزعزع، – ويكون لنا تماماً كما نؤمن إذا لم نتردّد – ولنكرّمنّ إياه بكل نقاوةٍ نفسيّةٍ وجسديّةٍ، لأنه مزدوج. لنتقدّمنّ إليه بشوق ملتهب، ممثّلين براحتينا شكلَ صليب ونتقبّل جسد المصلوب. ولدى تناولنا الجمرة الإلهيّة، نضعُها على عيوننا وشفاهنا وجباهنا، لكي – إذا ما نارُ الشوق التي فينا استمدّت الحرارة من الجمرة – تُحرق خطايانا وتُنير قلوبنا ونلتهبَ ونتألَّهَ بمساهمة النار الإلهيّة. فقد أبصرَ أشعيا **جمرة** (٥٥). والجمرة ليست مجرّد عود، بل هي عودٌ متّحد بالنار. كذلك أيضاً خبز الشركة. فهو ليس مجرّد خبز، بل هو خبزٌ متّحدٌ باللاهوت. والجسد المتّحد باللاهوت ليس طبيعة واحدة، بل هو طبيعة الجسد وطبيعة اللاهوت المتّحد هو به، حتى إنّ كليهما ليسا طبيعةً واحدة، بل هما اثنتان.

رموز الإفخارستيّا: – لدى عودة إبرهيم من كسر أعدائه، استقبله ملكيصادق، كاهن الله العليّ بخبز وخمر. وكانت تلك المائدة قد سبقتْ وصوّرتْ المائدة السريّة هذه، كما أنّ ذاك الكاهن كان رمزاً وصورةً للمسيح الكاهن الأعظم الحقيقيّ، لأن النبيّ يقول: «أنت كاهن إلى الأبد على رتبة ملكيصادق» (٥٦). وخبزات التقدمة تلك كانت صورة لهذا الخبز. هذه هي إذاً الذبيحة الطاهرة أي غير الدمويّة التي تكلّم عنها الربّ بلسان النبيّ: «إنها تقرَّبُ له من مشارق الشمس إلى مغاربها» (٥٧).

ثمار الإفخارستيّا: – إنّ جسد المسيح ودمه يؤُولان إلى قيام نفسنا وجسدنا. وحاشا أن يكون ذلك إلى أن يتبدّدا ويفسُدا ويصيرا إلى الخارج! بل هو إلى تكويننا وحفظِنا ووقايتنا

---

(٥٤) يوحنا ٦: ٥٣، ٥٥، ٥٧ (٥٥) أشعيا ٦: ٦ (٥٦) مز ١٠٩: ٤ (٥٧) ملاخي ١: ١١

من كل الأضرار وتطهيرنا من كلّ الأدناس. فإذا وجدا فينا ذهباً مغشوشاً ينقّيانه بالنار المطهّرة، لئلاّ يحكم علينا في المستقبل مع العالم. لأنهما ينقّياننا من كلّ الأمراض ومن كلّ عارض يَدهمُنا، كما يقول الرسول الإلهيّ: «لو كنّا نَدينُ أنفسنا لما كنّا نُدان. وفي دينونتنا هذه إنما يؤدبنا الرب لئلا يُحكم علينا مع العالم»[٥٨]. وهذا هو قوله: «لأنّ من يأكل ويشرب جسد الرب ودمه وهو على خلاف الاستحقاق، إنما يأكل ويشرب دينونة لنفسه»[٥٩]. أمّا اذا تطهّرنا به فنتّحد بجسد الرب وبروحه ونصيرُ جسد المسيح.

خبز المستقبل أو الخبز الجوهريّ. - جسد الربّ بمعناه الروحيّ: - وهذا الخبز إنما هو مقدّمةٌ للخبز المستقبل وهو **الجوهريّ** ἐπίούσιος . **والجوهريّ** يعني إمّا **الآتي** أي **الدهر الآتي** أو **المأخوذ لحفظ جوهرنا**. فإن كان هو على هذا النحو أو ذاك، فهو يسمَّى عن جدارة جسد الربّ، لأنَّ جسد الربّ روحٌ محيي، إذ إنه قد حُبل به من الروح المحيي. والمولودُ من الروح روح. وإنما أقول هذا، لا لأنفيَ طبيعة الجسد، بل لأني أريد أن أُوضحَ ما فيه من قوّة محيّية وإلهيّة.

ما معنى تسمية باسيليوس الإفخارستيّا تمثيلَ جسد الربّ ودمه: - وإذا كان بعضهم يسمّي أيضاً الخبز والخمر **تمثيلاً** أو **بديلاً** ἀντίτυπον لجسد الربّ ودمه - كما يفعل ذلك باسيليوس اللابس الله -، فلا يكون ذلك بعد التقديس، بل هم يسمّون التقدمة نفسها هكذا، قبل تقديسها.

أسماء الإفخارستيّا الأخرى: - وتسمّى الإفخارستيّا **تناولاً**، لأننا نتناول بها لاهوتَ يسوع. وتُسمّى **شركة** - وهي بالحقيقة كذلك - لأننا بها نُشرك ذواتنا بالمسيح فنتقبّل جسده ولاهوته. وبها يشترك ويتّحدُ بعضنا مع بعضٍ. ولمّا كنّا نتناول خبزاً واحداً، فإننا نُصبح كلنا جسد المسيح الواحد ودمه الواحد وبعضنا أعضاء بعضٍ، لأننا جسم المسيح الواحد.

لا شركة مع الهراطقة: - وعليه فلنحذرْ بكلّ قوّتنا من أن نقبل تناول الهراطقة أو نمنحهم إيّاه، لأنّ الرب يقول: «لا تُعطوا القدس للكلاب ولا تُلقوا جواهركم قدّام الخنازير»[٦٠]، لئلاّ نصير شركاء في ضلالهم وفي الحكم عليهم. ولما كان اتحادنا حتماً اتحاداً بالمسيح، واتحاد بعضنا ببعض، فنحن نتّحد حتماً بجميع المتناولين معنا على حسب

---

(٥٨) ١ كور ١١: ٣١ - ٣٢ (٥٩) ١ كور ١١: ٢٩ (٦٠) متى ٧: ٦

اختيارنا . فبدءاً من اختيارنا يصير هذا الاتحاد وليس بدون عزمنا . والرسول الإلهيّ يقول : «إنّا نحن الكثيرين جسدٌ واحدٌ ، لأنَّا نشترك جميعاً في الخبز الواحد»[٦١] .

ملاحظة : – وإذا دُعيتْ القرابين **أمثال المستقبلات** ، فليس يعني هذا أنها ليست جسد المسيح ودمه ، بل ذلك أننا الآن نشترك فيها بلاهوت المسيح . أما حينئذٍ فبالمشاهدة العقليّة وحدها .

---

(٦١) ١ كور ١٠ : ١٧

في نسبة الربّ ووالدة الله القدّيسة

لما كنا في ما تقدّم قد شرحنا شرحاً محدّداً عن القديسة الفائقة التسبيح مريم والدة الله الدائمة البتولية وأثبتنا عنها ما هو جزيل الأهميّة ، فإننا نحن الآن نكمّل النواقص عن كونها حقاً وحقيقةً والدةُ الله وعن أنها تُسمى هكذا . فهي - نظراً إلى القصد الإلهي الأزلي السابقة معرفته - قد تحدّدت معالمُها وتمثّلتْ بصوَرٍ مختلفة في أقوال وسابق إعلان الأنبياء بإلهام من الروح القدس ، فنبتَتْ من أصل داود في الوقت المحدّد لها سابقاً ، ذلك تنفيذاً للعهد المقطوع في التصريح التالي : «أقسم الرب لداود حقاً ولا يُخلف : لأُجلسنَّ من ثمرة بطنك على عرشك» [٦٢] ، وفي هذا أيضاً : «مرةً حلفتُ بقداستي ولا أكذب على داود . ليدومنَّ نسلُه إلى الأبد . وعرشُه كالشمس أمامي . مثل القمر يكون راسخاً إلى الأبد وشاهداً في الغيوم أميناً» [٦٣] . وقال أشعيا : «ويخرج قضيبٌ من جذر يسَّى ويَنمي فرعٌ من أصوله» [٦٤] .

اختلاف ظاهر بين الإنجيليّين في سرد نسبة يوسف : - أن يكون إذاً يوسف منحدراً من سبط داود فهذا ما أُظهره واضحاً الإنجيليّان متّى ولوقا . بيدَ أنّ متّى يجعل انحدار يوسف من داود بسليمان ، ولوقا ، بناتان . غير أنّ كليهما يَصمتُ عن ميلاد العذراء القدّيسة .

واعلمْ بأنها ليست عادة للعبرانيين ولا للكتاب الإلهيّ إحصاء نسبة النساء وأنَّ الشريعة كانت ألاَّ يتزوج سبطٌ من سبطٍ آخر [٦٥] . ولمّا كان يوسف منحدراً من سبط داود ، وكان صدّيقاً - هذا ما يشهد له به الإنجيل الإلهيّ - فهو لم يكن ليُقْدِمَ على الزواج من العذراء القدّيسة خلافاً للشريعة ، لو لم تكن هي أيضاً خارجةً من فرعه . وعليه كان يكفي إظهار نسبة يوسف .

واعلمْ هذا أنّ الشريعة كانت تقضي بأنه إذا مات رجل بدون نسل ، يأتي أخو المتوفّى بامرأته للتزوّج بها فيقيمُ نسلاً لأخيه [٦٦] . ويكون المولود إذاً - على حسب الطبيعة - للثاني أي للوالد . أمّا على حسب الشريعة فللمتوفّى .

---

(٦٢) مز ١٣١ : ١١ (٦٣) مز ٨٨ : ٣٦ - ٣٨ (٦٤) أشعيا ١١ : ١ (٦٥) العدد ٣٦ : ٦ - ٩

(٦٦) تثنية ٢٥ : ٥ وما يليه

شرحُ نسبة المسيح : – وعليه فمن فرع ناتان بن داود قد وُلد لاوي. وهذا ولد ملكي وبنتير. وبنتير ولد بربنتير (هكذا يسمّى). وبربنتير هذا ولَد يواكيم. ويواكيم ولد والدة الإله القدّيسة. أمّا من فرع سليمان بن داود فكان لمتّان امرأة ولدتْ له يعقوب. ولمّا توفي متّان، تزوج ملكي – الذي هو من عشيرة ناتان، ابن لاوي وأخو بنتير – امرأة متّان وأمّ يعقوب وولد منها عالي. فكان إذاً يعقوب وعالي أخوين من أمٍّ واحدة، لكنّ يعقوب كان من عشيرة سليمان وكان عالي من عشيرة ناتان. وتوفي عالي الذي من عشيرة ناتان بلا ولد وأخذ يعقوب أخوه – الذي من عشيرة سليمان – امرأته وأقام نسلاً لأخيه وولد يوسف. فكان إذاً يوسف ابنَ يعقوب بالطبيعة ومن سلالة سليمان، وكان ابنَ عالي من سلالة ناتان بحسب الشريعة.

ولادة العذراء : – وعليه فإنّ يواكيم قد أتى بحنّة الشريفة الجديرة بالمديح للتزوُّج بها. لكن، على نحو ما كانت حنّة القديمة عاقراً وولدتْ صموئيل بالصلاة والوعد كذلك كانت حنّة هذه. فهي بالابتهال وبوعد الله لها قد وَلدت والدةَ الإله. وذلك، كيلا تَنقص بشيء عن صواحبها. فإنّ النعمة إذاً – وهذا معنى حنّة – قد ولدتْ السيّدة – وهذا معنى مريم. لأنّ هذه قد صارت حقاً **سيّدة** جميع المخلوقات لمّا أصبحت أُمّ الخالق. وقد وُلدتْ في بيت يواكيم قرب البركة **الغنميّة** وقُدِّمتْ للهيكل. ثم شبَّت بعدئذٍ في هيكل الله وتغذّت بالروح، فصارت كالزيتونة المثمرة محطًّا لكلّ فضيلة، نابذةً من ذهنها كل عاطفة بشريّة وجسديّة وحافظةً بذلك نفسها مع جسدها بتولَين، كما يليقُ بمن ستَقتبلُ في حضنها الإله، لأنه قدّوس ويستريح في الأقداس. وعليه فقد استصحبت هكذا القداسة معها وبدت هيكلاً مقدّساً وعجيباً أهلاً للإله العليّ.

زواج العذراء بيوسف : – ولمّا كان عدوُّ خلاصنا يترصّد العذارى لسبب نبوءة أشعيا القائل: «ها إنّ العذراء تحبل وتلدُ ابناً وتدعو اسمه عمّانوئيل الذي تفسيره الله معنا»(٦٧ و٦٨). ولكنّ «الذي يصطادُ الحكماءَ بخدعتهم» (٦٩) – فلكي يخدع المتباهي دوماً بحكمته – دفع الكهنة بالصبيّة للزواج بيوسف، وكان ذلك «كتابٌ جديدٌ مختومٌ لمن يعرف الكتابة» (٧٠)، فأصبح الزواج حصناً للعذراء وخدعةً لمترصّد العذارى. وحينئذٍ أتى ملء الزمن فأُرسل ملاكُ الربّ إليها يُبشّرها بالحبل بالربّ. وهكذا حملتْ هي ابنَ الله، قوة الآب

---

(٦٧) أشعيا ٧: ١٤ (٦٨) متى ١: ٢٣ (٦٩) أيوب ٥: ١٣ (٧٠) أشعيا ٢٩: ١١



ميلاد السيّد المسيح

(إيقونة روسيّة من القرن ١٦)

الأقنوميّة، لا من مشيئة لحم ولا من مشيئة رجل – أي جماعٍ وزرع – بل من مسرّة الآب ومؤازرة الروح القدس، فأتاحت للخالق أن يخلق وللجابل أنْ يجبل ولله ابن الله أن يتجسّد ويتأنّس من لحمانها ودمائها النقيّة والبريئة من الدنس، فوفَتْ بذلك دينَ الأُمِّ الأولى. وكما أنَّ تلك قد جُبِلت من آدم بدون جماع، كذلك هي قد جبلت بآدم الجديد، مولوداً بحسب الشريعة، ولمّا كان هو بلا أبٍ، كان ذلك بما يفوق طبيعة الولادة. وبما أنه قد أتمَّ الزمن المعتاد – كان قد أكمل الأشهر التسعة ووُلد في بدء العاشر – فقد كان الحبلُ به بموجب الشريعة. وبما أنّ ذلك كان بلا وجع، فقد كان فوق عادة الطبيعة. فلأنه لم يسبق الولادة لذّة، لذلك لم يتبعها وجع، على حسب قول النبيّ: «قبل أن تتمخّض ولدتْ وأيضاً قبل أن يأخذها الطلقُ وضعتْ ذكراً»[٧١].

ولادة المسيح: – وعليه فقد وُلد منها ابن الله متجسّداً. وهو ليس إنساناً لابساً الله بل هو إلهٌ متجسّدٌ. وهو ليس مثلَ نبيٍّ ممسوحٍ بالفعل، بل هو ممسوحٌ بتواجد الماسح كلِّه فيصير الماسح إنساناً والممسوح إلهاً، ليس بتحوُّلٍ في الطبيعة، بل باتحاد في أقنوم، حتى كان الماسحُ والممسوحُ هو هو نفسُه، لأنه، وهو بصفته إلهاً، يمسحُ ذاته بصفته إنساناً. كيف إذاً تلك التي ولدت الإله متجسداً منها لا تكون والدة الإله؟ فإنّ التي هي حقاً وحقيقةً والدة الإله والسيّدة والمتولّية على الخلائق كلها هي أيضاً أَمَةُ الخالق وأُمُّه. وكما أنّ المسيح – في الحبل به – قد حفظ من حَملتْه بتولاً، كذلك هو أيضاً – في الولادة – قد حفظ بتوليّتها بلا تحويل، مجتازاً بها وحده وحافظاً إيّاها مغلقةً. إنّ الحبل كان بواسطة السمع. أمّا الولادة فبطريقة الولادة الاعتيادية، ولو كان بعضهم يتخيّلون بأنّ أُمَّ الله قد ولدتْ ابنها من جنبها. فإنه لم يكن يعسر عليه أن يخرج منها دون أن يفضّ ختماً.

دوام بتوليّة العذراء: – وعليه فإنّ الدائمة البتوليّة قد بقيت عذراء حتى بعد الولادة، لأنها حتى وفاتها لم تعرفْ خبرة رجل. وإذا كان قد كُتب: «ولم يعرفْها حتى ولدت ابنها البكر»[٧٢]، فاعلمْ أنّ البكر هو المولود الأول، حتى إذا كان وحيداً، لأنّ كلمة **بكر** تدلّ على المولود الأول ولا تتضمّن ولادة آخرين. أمّا كلمة **حتّى** فتشير إلى نهاية وقت محدّد ولا تنفي ما هو بعد ذلك. وقد قال الربّ: «وها أنا معكم كل الأيام حتى منتهى الدهر»[٧٣]. وهذا لا يعني أنه سيغادرهم بعد انتهاء الدهر. ويقول الرسول الإلهيّ: «وهكذا نكون مع الربّ دائماً»[٧٤]. وهذا الكلام يهدفُ إلى ما هو بعد القيامة.

---

(٧١) أشعيا ٦٦: ٧ (٧٢) متّى ١: ٢٥ (٧٣) متّى ٢٨: ٣٠ (٧٤) ١ تسا ٤: ١٦

فكيف العذراء، بعد أن ولدت الله وعرفت المعجزة من اختبار مفاعيلها تُقدِمُ هي على مجامعة رجل؟ فبُعداً لهذا التفكير! فمَن كان ذا رأيٍ سليمٍ لا يفكّر هذا التفكير ولا يعمل به!

ما فات العذراء من أوجاع الولادة لاقته حين صُلب ابنها : – لكنّ تلك المغبوطة نفسها التي استحقّتِ المواهب الفائقة الطبيعة فإنّ الأوجاع التي نجتْ منها وهي تلد، قد احتملتها هي نفسها وقت الآلام. لأنّ انعطاف أمومتها كان يُشْعرها بتمزيق أحشائها. والذي كانت تعرفه إلهاً بالولادة، فوجئتْ برؤيته هو نفسه مرفوعاً كفاعل شرّ. ففعلت فيها هذه الأفكار فعل السيف. ولذا يقول الكتاب: «وأنتِ سيجوزُ سيف في نفسك»[٧٥]. ولكنّ فرح القيامة قد بدّدَ الحزن بإشهاره أنَّ الذي مات بالجسد هو إله.

(٧٥) لوقا ٢ : ٣٥

في القدّيسين وفي وجوب تكريمهم وتكريم رُفاتهم

يجب تكريم القديسين لأنهم أحبّاء المسيح وأبناء الله وورثته، كما يقول يوحنا اللاهوتي والإنجيلي: «كل الذين قبِلوه أعطاهم أن يكونوا أبناء الله» [٧٦]، «حتى إنهم ليسوا بعدُ عبيداً بل هم أبناء. واذا كانوا أبناءً فهم وارثون بالله» [٧٧] ووارثون مع المسيح. وقد قال الرب لرسله في أناجيله المقدّسة: «أنتم أحبّائي... لا أُسمِّيكم عبيداً بعد، لأنّ العبد لا يعلم ما يصنع سيّده» [٧٨]. ولمّا كان يُقال لصانع الجميع وسيّدهم «ملك الملوك وربُّ الأرباب» [٧٩] وإلهُ الآلهة [٨٠]، فإنه يُقال حتماً للقدّيسين أيضاً آلهةً وأرباباً وملوكاً، لأنّ الله هو - ويُقال له - إلهُهم وربُّهم وملكُهم. وهو القائل لموسى: «أنا إلهُ أبيك، إلهُ إبراهيم وإلهُ إسحق وإلهُ يعقوب» [٨١]. وقد «جعلَ الله موسى إلهاً لفرعون» [٨٢]. وقولي فيهم بأنهم آلهة وملوك وأرباب ليس بالطبيعة، بل ذلك لأنهم ملَكوا أهواءَهم وضبطوها وحفظوا بلا انثلام مثالَ الصورة الإلهيّة التي وُلدوا فيها. فإنه يُقال أيضاً لصورة الملك ملكاً. ثم لأنهم اتحدوا بالله باختيارهم وقبلوا إسكانه فيهم، وبامتزاجهم به بالنعمة صاروا ما هو عليه بالطبيعة. فكيف إذاً لا ينبغي أن نكرِّم أولئك الذين أصبحوا خدّام الله وأحبّاءه وأبناءه؟ لأنّ الإكرام الواصل من الرفاق في العبوديّة إلى مَن حَسُنَ ولاؤُهم لسيّدهم لهو برهانٌ على صدق النيّة نحو السيّد العامّ!

إنّ هؤلاء القديسين قد أصبحوا خزائن الله ومنازله، لأنّ الله يقول: «إني سأسكن فيهم وأسير في ما بينهم وأكون لهم إلهاً» [٨٣]. ويقول الكتاب الإلهي أيضاً: «نفوسُ الصدّيقين بيد الله فلا يمسُّها عذابٌ» [٨٤]، فإنَّ موت الصدّيقين نومٌ أكثر منه موت. «لأنهم قد تعبوا إلى الدهر وسيعيشون في الانقضاء»، و «كريمٌ في عينَي الرب موت أصفيائه» [٨٥]. إذاً فماذا أكرمُ من أن يكون الإنسان بين يدَي الله؟ فإنَّ الله حياةٌ ونور. ومن هم بين يديه هم في الحياة والنور.

---

(٧٦) يوحنّا ١: ١٢ (٧٧) غلاطية ٤: ٧ (٧٨) يوحنّا ١٥: ١٤ - ١٥ (٧٩) رؤيا ١٩: ١٦
(٨٠) مز ٤٩: ١ (٨١) خروج ٣: ٦ (٨٢) خروج ٧: ١ (٨٣) ٢ كور ٦: ١٦
(٨٤) حكمة ٣: ١ (٨٥) مزمور ١١٥: ١٥

وإنّ الله يتّحد أيضاً اتحاداً عقلياً في أجسادهم، كما يقول الرسول: «أما تعلمون أنكم هيكل الله وأنّ روح الله مستقرّ فيكم»؟ و«أنّ الربّ روح»(٨٦)، و«أنَّ من يفسد هيكل الله يفسده الله»(٨٧). إذاً فكيف لا ينبغي أن نكرّم هياكل الله الحيّة، مساكنَ الله الحيّة أي أولئك العائشين منتصبين بحضرة الله؟

رفات القدّيسين: – لقد وهبنا السيّد المسيح رفات القديسين ينابيع خلاصية تنبع البركات بطرق شتّى، وتفيض الحيلَ الذكيّ الرائحة. ولا ينكرنَّ أحدٌ ذلك! فإنَّ الله لمّا شاء أنبع ماءً في الصحراء من صخرة صمّاء يابسة، وأنبع لشمشون في عطشه ماءً من فكّ حمار(٨٨)، أفيكون منكراً أن يفيض الحيلَ الذكيّ الرائحة من رفاتِ من نُغبّطهم؟ – إنه ليس منكراً البتّة لمن يعرفون قوة الله وكرامة القديسين لديه.

يجب أَلاَّ نُحصي القديسين مع الأموات. – هم شفعاء البشر جميعاً: – جاء في الشريعة: «من لمس ميتاً ما من الناس يكون نجساً»(٨٩). لكننا نقول إنّ هؤلاء القديسين ليسوا أمواتاً. فإننا – منذ أن أُحصيَ **الحياة بالذات** وعلّة الحياة بين الأموات – لا نحسب أمواتاً من رقدوا على رجاء القيامة والإيمان بالمسيح. وإلاَّ فكيف يجترح المعجزات جسمٌ ميتٌ وكيف يطردُ الشياطين؟ والأمراض تزول؟ والضعفاء يشفَون؟ والعميان يُعاد إليهم بصرُهم؟ والبرصُ يطهرون؟ والتجارب والأحزان تتبدّد؟ «وكل عطيّة صالحة تهبط بواسطتهم من لدن أبي الأنوار»(٩٠) على من يلتمسونها بإيمان راسخ؟ فما أكثر ما تُعاني أنت لتجد لكَ نصيراً يقف تجاه مَلك زائل ليدافع عنك! ونحن ألا ينبغي أن نكرّم شفعاء البشر أجمعين الذين يرفعون الابتهالات إلى الله من أجلنا؟ أجل، ينبغي أن نكرِّمهم، ونُشيد على اسمهم الهياكل إلى الله، ونأتيَهم بتقادمنا، ونُحيي ذكراهم، ونُسرُّ بها سروراً روحياً، فتكون الفرحة خاصة بكل من المدعوّين، ونخشى – بعكس ذلك – من أن نغضبَهم إذا ما تباطأنا في خدمتهم. فإنَّ إرضاء خدام الله عبادة له وإغضابهم باعثٌ لغضبه. إذاً أيها المؤمنون، فلنخدمنَّ القديسين، لا سيما في ما يعود إلى خدمة الله، وذلك بالمزامير والتسابيح والأناشيد الروحيّة وبالخشوع وبالرأفة بالمحتاجين. ولنقمْ لهم النُصُبَ وعليها الإيقونات ظاهرة للعيان، بل ولنصرْ نحن أنفسنا نصباً وإيقونات حيّة لذكر فضائلهم. ولنكرّمنَّ والدة الإله، على أنها حقاً

(٨٦) ٢ كور ٣: ١٧ (٨٧) ١ كور ٣: ١٧ (٨٨) قضاة ١٥: ١٩ (٨٩) العدد ١٩: ١١
(٩٠) يعقوب ١: ١٧

وحقيقةً أُمُّ الله ، ويوحنا النبيّ ، على أنه السابق والمعمِّدُ والرسول والشاهد ، الذي قال عنه الربّ : «لم يَقمْ في مواليد النساء أعظم من يوحنا» (٩١) ، وقد كان هو المنادي الأول بملكوته . ثم الرسل ، على أنهم إخوة الربّ ومعاينوه وخدّام آلامه ، «الذين سبق الله فعرفهم وسبق فحدّد أن يكونوا مشابهين لصورة ابنه» (٩٢) ، «أولاً رسلاً ، ثانياً أنبياء ، ثالثاً رعاة ومعلمين» (٩٣) . ثم شهداء الرب المنتخبين من كل طبقة ، على أنهم جنود المسيح الذين شربوا كأس آلامه واعتمدوا بمعمودية موته المحيي ، فأَضحوا شركاءه في آلامه ومجده ، منهم زعيمهم استفانوس ، أول شمامسة المسيح ورسوله وشهيده الأول . ثم آباءنا الأبرار اللابسي الله النسّاك ، الذين جاهدوا في الاستشهاد الطويل والتعب الجزيل «الذين ساحوا في جلود الغنم والمعز وهم معوَزون مضايقون مجهودون ، فكانوا تائهين في البراري والجبال ومغاور الأرض والكهوف ، ولم يكن العالم مستحقاً لهم» (٩٤) . ثم لنكرّمنّ أنبياء ما قبل النعمة ورؤساء الآباء والصدّيقين الذين سبقوا فبشّروا بمجيء الربّ . هؤلاء جميعاً ، إذا ما تأمّلنا في سيرتهم ، نتشبّه بإيمانهم ومحبتهم ورجائهم وغيرتهم ومعيشتهم وصبرهم على الآلام وثباتهم حتى الدم ، لكي نشاركهم في إكليل مجدهم .

---

(٩١) متى ١١ : ١١ (٩٢) رومة ٨ : ٢٩ (٩٣) ١ كور ١٢ : ٢٨ (٩٤) عبرا ١١ : ٣٧ – ٣٨

في السجود للإيقونات

أصلُ السجود للإنسان وجود صورة الله فيه : - لمّا كان البعض يلومنا لسجودنا لصورتَي المخلص وسيدتنا مريم العذراء وتكريمنا إياهما ، وكذلك صوَر سائر القديسين وخدّام المسيح ، ولكن فليفطنْ هؤلاء أن الله قد صنع الإنسان منذ البدء على صورته الخاصة ، وإلاّ ما هو السبب في سجود بعضنا لبعض سوى أننا مصنوعون على صورة الله؟ وعلى ما يقوله باسيليوس المتعمّق كثيراً في الإلهيّات : «إنّ إكرام الإيقونة يعود إلى من تمثّله في الأصل» ، والمثال هو ما ترسمه الصورة ، وهي مشتقّة عنه . فلمن يا ترى كان يسجد الشعب الموسوي حول الخباء الحاوي صورة السماوات ورمزها ، أو بالأحرى صورة الخليقة كلها؟ وهذا هو قول الله لموسى : «انظرْ واصنعْ على المثال الذي أنت مراه في الجبل»[٩٥] . والكاروبان المظلّلان المغتفر ، ألم يكونا صنع أيدي الناس؟ وماذا كان هيكل أورشليم الشهير؟ ألم يكن من صنع الأيدي وقد أتقن الناس زخرفته؟

الممنوع إنما هو عبادة الأصنام والذبائح المقدّمة للشياطين : - والكتاب المقدّس قد تكلّم بتشهير عن الساجدين للمنحوتات والذابحين للشياطين . وكان اليونانيون يذبحون واليهود أيضاً يذبحون . لكنّ ذبائح اليونانيين كانت للشياطين وذبائح اليهود ، لله . وكانت ذبيحة اليونانيين مرذولةً ومحكوماً عليها ، وذبيحة الصدّيقين مقبولةً لدى الله . فإنّ نوحاً قد أصعد محرقاتٍ لله ، «فتنسّم الرب رائحة الرضى»[٩٦] وتقبّل استعداده الطيّب الواصل إليه تعالى . فعلى هذا النحو كانت إذاً أصنام اليونانيين أي تماثيل الشياطين مرذولة وممنوعة .

لم يكن استعمال الايقونات دارجاً في العهد القديم لأن الله لا يُرى . - السبب في دخول هذه العادة في العهد الجديد . - السجود للإيقونات من التقليد الكنسيّ - ما عدا ذلك ، من يستطيع أن يصنع شبهاً لله الذي لا يُرى والذي لا جسد له ولا حدّ ولا شكل؟ ... فإن المحاولة لوضع شكل للإله قمّةٌ في الغباوة والكفر ! لذلك لم يكن دارجاً في العهد القديم استعمال الإيقونات . غير أنه لما صار الله ، بحشا رحمته ، إنساناً بالحقيقة لأجل خلاصنا ، ليس كما تراءى لإبرهيم بهيئة إنسان ، ولا كما للأنبياء ، بل ذلك أنه بالحقيقة صار إنساناً في

---

(٩٥) خروج ٢٥ : ٤٠ ؛ عبرا ٨ : ٥ (٩٦) تكوين ٨ : ٢١

الجوهر وعاش على الأرض وتردّد بين الناس واجترح المعجزات وتألّم وصُلب وقام وصعد وحدث كل هذا بالحقيقة ورآه الناس ودوّنوه لتذكيرنا به وتعليمنا نحن الذين لم نكن حاضرين آنذاك، حتى إذا آمنّا بما لم نره ولم نسمعْه، نحظى بتطويب الرب. ولكن لمّا كان لا يعرف الجميع الكتابة وليسوا بتمرّنين على القراءة، فقد رأى الآباء أن يرسموا هذه التذكارات في ايقونات تمثّل بعض المآتي الشريفة في موجزٍ تذكاريّ. وإننا كثيراً ما لا نكون في حالة التفكير في آلام المسيح ونرى ايقونة صلب المسيح فننتقل بالذاكرة إلى الآلام الخلاصية ونرتمي ساجدين، ليس للمادّة، بل للمرسوم فيها، كما نحن لا نسجد لمادة الإنجيل ولا لمادة الصليب، بل لما يوحيان به إلينا. فما الفرق بين صليبٍ لا يحمل مثال الرب وآخر يحمله؟ كذلك قل عن مثال أُمّ الله. فإن الإكرام المقدّم لها يرتفع إلى المتجسّد منها. كذلك أيضاً إنّ مآتي الرجال القديسين يرفعنا إلى الشجاعة والغيرة والتشبّه بفضائلهم وتمجيد الله. وكما قلنا، إن الإكرام الموجّه إلى العبيد المخلصين للسيّد لبرهانٌ على حسن النية نحو السيد العام. وإكرام الايقونة يعود إلى من تمثّل. وهناك تقليد غير مكتوب كالسجود باتجاه المشارق والسجود للصليب وكثير غيرهما تماثلها.

الملك الأبجر ورسم المسيح: — وقد نمى ألينا خبر مفاده أنّ الأبجر، في زمن تملّكه على مدينة الرها، قد أوفد إلى الربّ رسّاماً ليرسم له صورة تمثّله، ولما لم يستطع ذلك لإشعاع بهاء وجهه، وضع الرب نفسه رداءً على وجهه الإلهي والمحيي فارتسمتْ صورته على الرداء، فأرسلها هكذا إلى الأبجر تلبيةً لطلبه.

وقد ترك لنا الرسل الكثير مما لم يُكتب فكتب رسول الأمم يقول: «اثبتوا إذاً أيها الإخوة وتمسّكوا بالتقاليد التي تعلّمتموها إما بكلامنا وإمّا برسائلنا»(٩٧)، وكتب إلى أهل كورنتوس: «إني أمدحُكم أيها الإخوة لأنّكم تذكرونني في كل شيء وتحافظون على التقاليد كما سلّمتها إليكم»(٩٨).

---

(٩٧) ٢ تسا ٢: ١٤ (٩٨) ١ كور ١١: ٢

في الكتاب المقدّس

إنَّ الله الأحد قد أوحى بكتب العهدين القديم والجديد : - إنه الله الأحد المنادى به في العهدين ، القديم منهما والجديد ، والمسبَّح والممجَّد في ثالوثه هو المقصود في قول الربّ : «أنا لم آتِ لأحلَّ الناموس والأنبياء لكن لأُتمِّم» (٩٩) . فإنه هو نفسه الذي صنع خلاصنا الذي من أجله كان كل كتاب وكل سرّ . ويقول الرب أيضاً : «فتّشوا الكتب ، فإنها هي نفسها تشهد من أجلي» . ويقول الرسول : «إنّ الله الذي كلَّم الآباء قديماً في الأنبياء كلاماً متفرّق الأجزاء مختلف الأنواع ، كلّمنا في هذه الأيام في الابن» (١٠٠) . فبالروح القدس إذاً قد تكلّم الناموس والأنبياء والإنجيليون والرسل والرعاة والمعلمون .

إذاً فإنّ «الكتاب كلّه قد أُوحي به من الله . ومن ثم هو مفيد ...» (١٠١) . لذلك يحسن ويفيد جداً البحث في الكتب الإلهية ، فكما الشجرة المغروسة على مجاري المياه هي النفس أيضاً المرتوية من الكتاب الإلهيّ ، فتتغذّى وتأتي بثمر ناضج ، أعني الإيمان المستقيم ، وتزهو بأوراقها الدائمة الاخضرار أعني بها أعمالها المرضية لله . ونحن إذا سرنا على هدىً من الكتاب المقدّس نخطو في طريق السيرة الفاضلة والاستنارة الصافية ، فنجد فيها مدعاةً لكل فضيلة ونفوراً من كل رذيلة . وعليه إذا كنّا نحبّ معرفتها تكثر فينا هذه المعرفة . وبالإجتهاد والكدّ والنعمة التي يعطيناها الله يتمُّ إصلاح كل شيء ، «لأنّ كل من يسأل يُعطى ومن يطلب يجد ومن يقرع يُفتح له» (١٠٢) . فلنقرع إذاً باب الكتب المقدّسة ، الفردوس الأبهى الذكيّ الرائحة الفائق العذوبة الجزيل الجمال والمُطربَ آذاننا بمختلف أنغام طيوره العقليّة اللابسة الله ، النافذَ إلى قلبنا فيعزّيه في حزنه ويريحه في غضبه ويملأه فرحاً لا يزول . وهو الذي يركب ذهننا على متن الحمامة الإلهيّة المذهّب والبرّاق (١٠٣) بجناحيْها الساطعي الضياء سيراً إلى الإبن الوحيد وارثِ زارعِ الكرم (١٠٤) العقليّ ، وبالابن تبلغُ به إلى الآب ، أبي الأنوار . وهنا فلنقرعنَّ بلا تباطؤ وبلجاجة كبرى وثبات . ولا نكفّنَّ عن أن نقرع . وهكذا يُفتح لنا . وإذا قرأنا مرةً ومرتين ولم نفهم ما نقرأه فلا نملّ من أن نقرعَ ، بل فلنثبتْ ونتأمّلْ ونسألْ ، لأنه قال : «سل أباك ينبئكَ وأشياخَك يحدّثونك» (١٠٥) ، «فليس العلم في جميع

(٩٩) متّى ٥ : ١٧ (١٠٠) عبرا ١ : ١ - ٢ (١٠١) ٢ تيموثاوس ٣ : ١٦ (١٠٢) لوقا ١١ : ١٠
(١٠٣) مز ٧٦ : ١٤ (١٠٤) متّى ٢١ : ٣٨ (١٠٥) تثنية ٣٢ : ٧

الناس»[١٠٦]. لنغترفنَّ إذاً من ينبوع الفردوس مياهاً جاريةً صافية «تنبع إلى الحياة الأبدية»[١٠٧]. لنتنعّمنّ ولا نرتوِ من التنعّم، لأنّ النعمة في الكتب المقدسة مجانية. وإذا استطعنا أن نجنيَ فائدةً ما ممّا في خارج هذه الكتب فليس ذلك من المحاظير. ولكن في ذلك صيارفةً حاذقين نحتفظ لنا بالذهب المعروف والصافي ونرمي منه ما كان مغشوشاً. لنأخذنَّ من الكلام أجوده ونلقِ إلى الكلاب آلهتهم الهزيلة وخرافاتهم الغريبة. فإننا لنستطيع أن نقتني منها قوّة ضدّهم.

عدد كتب العهد القديم المقدسة: - واعلم أن كتب العهد القديم اثنان وعشرون، على عدد حروف الأبجدية العبرية. فإن هذه الحروف إثنان وعشرون يُزاد عليها خمسةٌ مضاعفةٌ، فتصبح سبعةً وعشرين. والمضاعفة هي القاف والميم والنون والفاء والصاد. لذلك فإنَّ الكتب المقدسة، والحالة هذه، إثنان وعشرون بالعدد وتصبح سبعة وعشرين، لأنّ خمسةً منها مضاعفة. ويُلحق العبرانيون راعوتَ بالقضاة ويعدّونهما كتاباً واحداً، ويضمّون سفرَيْ الملوك الأول والثاني إلى كتاب واحد، وسِفريْ الملوك الثالث والرابع إلى كتابٍ واحد، وسِفريْ أخبار الأيام الأول والثاني إلى كتاب واحد وسفرَيْ عزرا الأول والثاني إلى كتاب واحد. ومن ثمّ تُقسم الكتب إلى أربع مخمّسات ويزيد كتابان ومضمونها هو كما يأتي: خمسةٌ تشريعيّة هي التكوين والخروج والأحبار والعدد وتثنية الاشتراع. هذه هي المخمسة الأولى أو التشريع. بعد ذلك مخمّسةٌ أخرى تُدعى المكتوبة ويسمّيها بعضهم الكتابات المقدّسة وهي يشوع بن نون والقضاة مع راعوت والملوك الأول مع الثاني - سفر واحد - والملوك الثالث مع الرابع - سفر واحد - وأخبار الأيام الإثنان سفر واحد. وقد تمّت بذلك المخمّسة الثانية. والمخمّسة الثالثة هي الأسفار الشعرية: أيوب والمزامير وأمثال سليمان والجامعة - له أيضاً - ونشيد الأناشيد - له أيضاً. والمخمّسة الرابعة هي النبويّة: الإثنا عشر نبياً - سفرٌ واحد - وأشعيا وإرميا وحزقيال ودانيال. ثم عزرا - الإثنان يُعدّان سفراً واحداً - وأستير. أما كمال الفضيلة أي حكمة سليمان وحكمة يشوع - السفر الذي كان أبو سيراخ قد وضعه بالعبرية وترجمه يشوع حفيده وابن سيراخ إلى اليونانية - فهما سفران مملوءان حكمة وشريفان، لكنهما لا يُحسبان ولم يُوضعا في التابوت.

(١٠٦) ١ كور ٨: ٧ (١٠٧) يوحنّا ٤: ١٤

كتب العهد الجديد : – وأسفار العهد الجديد هي الأناجيل الأربعة لمتّى ومرقس ولوقا ويوحنا . وأعمال الرسل القديسين للوقا الإنجيلي . والرسائل الجامعة السبع : واحدة ليعقوب واثنتان لبطرس وثلاث ليوحنا وواحدة ليهوذا . ورسائل بولس الرسول الأربع عشرة ورؤيا يوحنا الإنجيلي . وقوانين الرسل القديسين بواسطة إقليميس .

المقولات في المسيح

المقولات في المسيح أربعة أنواع أصليّة : – تُقسم المقولات في المسيح إلى أربعة أقسام أصليّة ، ذلك نسبةً إلى ما قبلَ تأنّسه وفي حال تأنّسه وبعد تأنّسه وبعد قيامته.

١) فالمقولات فيه قبل تأنّسه تُقسم إلى ستّ حالات :

آ) منها ما يدلّ على صلة طبيعته ومساواتها مع الآب ، كقوله : «أنا والآب واحد» [١٠٨] ، و «مَن رآني فقد رأى الآب» [١٠٩] و «الذي اذ هو في صورة الله» [١١٠] ، وما ماثلها.

ب) وغيرها يدلّ على كمال أقنومه كقولك : «ابن الله» و «صورة جوهره» [١١١] ، و «رسول الرأي العظيم ، عجيباً مشيراً» [١١٢] ، وما إليها.

ج) وغيرها يدلّ على نفوذ الأقانيم بعضهم في بعض كقوله : «أنا في الآب والآب فيّ» [١١٣] ، وعلى ارتباط لا يُستأْصَل ، كالكلمة والقوة والحِكمة والبهاء. فإنّ الكلمة هي في العقل أعني أنها فيه صفة جوهريّة. وكذلك الحكمة. والقوة هي في القويّ. والبهاء هو في النور.

د) وغيرها يدل على أن الابن هو من الآب علّته كقوله : «إن الآب أعظم مني» [١١٤] ، فإنّ وجود الابن وكل ما له هو من الآب. لكنّ وجوده هو من الآب بالولادة لا بالإبداع كما في قوله : «أنا من الآب خرجتُ وأتيتُ» [١١٥] و «أنا أحيا بالآب» [١١٦] . وكل ما هو للابن ليس له بعطاءٍ ولا بتعليم بل من علّته ، كما يقول : «إنّ الابن لا يقدر أن يعمل من نفسه شيئاً إلاّ ما يرى الآب يعمله» [١١٧] . فلو لم يكن الآب لما وجد الابن. فإن الابن من الآب وفي الآب ومع الآب. ولكنّه ليس بعد الآب. وبالمثل إنّ ما يعمله إنما يعمله منه ومعه ، لأنّ الإرادة والفعل والقوة هي نفسُها – وليست مماثلة – بل هي هي نفسها للآب والابن والروح القدس.

---

(١٠٨) يوحنّا ١٠ : ٣٠ (١٠٩) يوحنّا ١٤ : ٩ (١١٠) فيلبي ٢ : ٦ (١١١) عبرا ١ : ٣
(١١٢) أشعيا ٩ : ٥ (١١٣) يوحنّا ١٤ : ١٠ (١١٤) يوحنّا ١٤ : ٢٨ (١١٥) يوحنّا ١٦ : ٢٧
(١١٦) يوحنّا ٦ : ٥٧ (١١٧) يوحنّا ٥ : ١٩

هـ) وغيرها يدل على كيفية إتمام المسرّة الأبوية بفعل الابن ، ذلك ليس على أنه عضوٌ أو عبد ، بل على أنه كلمته وحكمته وقوته الجوهرية والأقنومية ، لسبب أن الحركة تُرى واحدة في الآب والابن. مثلاً : «كلٌّ به كان»[١١٨] و «أرسل كلمته فشفاهم»[١١٩] ، وأيضاً «لكي يؤمنوا أنك أنت أرسلتني»[١٢٠].

و) وغيرها نبويّة. وهذه بعضها مستقبليّة ظاهرة. مثلاً : «إلهنا يأتي»[١٢١] . وقول زخريا : «هوذا ملكُكِ يأتيكِ...»[١٢٢] ، وما يقوله ميخا : «هوذا الرب يخرج من مكانه وينزل ويطأ مشارف الأرض»[١٢٣] . وبعضها مستقبلةٌ أيضاً ولكنها بصيغة الماضي ، مثلاً : «هوذا إلهنا. تراءى على الأرض وتردّد بين البشر»[١٢٤] . وأيضاً : «الربُّ حازني في أول طريقه قبل ما عمله منذ البدء»[١٢٥] . وأيضاً : «لذلك مسحك الله إلهك بدهن البهجة أفضل من شركائك»[١٢٦] ، وما ماثل ذلك.

وعليه إنّ ما يُقال في المسيح قبل الاتحاد يُقال فيه بعد الاتحاد أيضاً. أمّا ما يُقال فيه بعد الاتحاد فلا يُقال أبداً فيه قبل الاتحاد ، اللّهم إذا ما كان ذلك عن طريق النبوّة ، كما سبق القول.

٢) والمقولات عن المسيح في الاتحاد تُقسم إلى ثلاث حالات : — ففي حال نجعل الكلام في المسيح انطلاقاً من جزئه الأسمى ، نتحدّث عن تأليه جسده و «تأكلمه»[١٢٧] وتفوّقه السامي وما شاكل ذلك ، موضّحين ما حصل للجسد من غنىً من جرّاء اتحاده والتحامه بالكلمة الإله العليّ. وحين نجعل الكلام في المسيح صعوداً من جزئه الأدنى ، نتحدّث عن تجسّد الله الكلمة وتأنّسه وإفراغه من ذاته وافتقاره وتواضعه ، فإنّ هذه وأمثالها تحكي عن بشريّة المزاج التي لله الكلمة. أمّا في حال نجعل الكلام في المسيح انطلاقاً من كلا الجزئين معاً ، فنخبر عن الاتحاد والشركة والمسحة وتلاحم الطبيعتين وتلاحم الشكلين وما شاكل. إنه إذاً لسبب هذه الحال الثالثة يجري الكلام عن الحالين السابقتين. فبالاتحاد إذاً يظهر ما كان لكلٍّ منهما من تواجد الانسجام والنفوذ. وبسبب اتحاد الجسد في أقنوم يُقال بأنه قد تألّه وإنه قد صار إلهاً وإنه قد صار إلهاً واحداً مع الكلمة ، ثم يُقال بأن الله الكلمة قد تجسّد وصار إنساناً وصار خليقة و «دعي أخيراً»[١٢٨] ، وذلك ليس أنه قد صار تحويل من

---

(١١٨) يوحنّا ١:٣ (١١٩) مز ١٠٦:٢٠ (١٢٠) يوحنّا ١١:٤٢ (١٢١) مز ٤٩:٢

(١٢٢) زخريّا ٩:٩ (١٢٣) ميخا ١:٣ (١٢٤) باروك ٣:٣١ – ٣٤ (١٢٥) أمثال ٨:٢٢

(١٢٦) مز ٤٤:٨ (١٢٧) تأكلم جسدُ المسيح = اتّحد **بالكلمة** (١٢٨) راجع أشعيا ٥٣:٣

طبيعتين إلى طبيعة واحدة مركّبة – فلا يمكن لمتضادّين طبيعيّين أن يصيرا معاً إلى طبيعة واحدة –، بل ذلك من طبيعتين متّحدتين في أقنوم وحاصلتين على نفوذ إحداهما في الأخرى بدون اختلاط ولا تشويش. وإنّ النفوذ قد كان لا من قبل الجسد، بل من قبل اللاهوت، لأنْ لا طاقة للجسد أن ينفذ في اللاهوت، بل هي الطبيعة الإلهيّة وحدها قد نفذتْ في الجسد وأعطت للجسد نفوذَه المعجزَ البيان. وهذا ما نسمّيه **الاتحاد**.

مبادلةُ الصفات: – واعلمْ أنه في الحالين الأولى والثانية في الاتحاد يبدو مشهدٌ عكسيٌّ: فعندما نجعل كلامنا عن الجسد، نقول بالتألُّه والتأكلم والتسامي والمَسْحة، ذلك أن النظر إلى الجسد بخصوص هذه المواضيع منطلقٌ من اللاهوت. وعندما ينتقلُ الكلام إلى الكلمة، نقول بافراغه وتجسّده وتأنّسه واتضاعه وما شاكل ذلك. وإنّ هذا الذي قد قلناه في الكلام انطلاقاً من الجسد وانعكاساً على الله الكلمة إنما كان لأنه هو نفسه ارتضى أن يحتمل ذلك.

٣) المقولات في المسيح بعد الاتحاد ثلاثة أنواع: – المقولات في المسيح في ما بعد الاتحاد ثلاثة أنواع: – **الأول** يوضح طبيعته الإلهيّة، مثلاً: «أنا في الآب والآب فيّ» [١٢٩]، و«أنا والآب واحد» [١٣٠]، وكل ما يُقال فيه قبل تأنّسه يقال أيضاً بعد تأنّسه، ما عدا أنه لم يكن قد اتخذ الجسد ولا أعراضه الطبيعية.

الثاني يوضح طبيعته البشرية، مثلاً: «لماذا تطلبون قتلي وأنا إنسان قد كلَّمكم بالحق» [١٣١] و«هكذا ينبغي أن يُرفَع ابن البشر» [١٣٢]، وما شاكلها.

– والمقولات هذه المكتوبة عن المسيح المخلّص والدالّة بالقول أو بالفعل على أنه إنسانٌ هي ستة أنواع: – فمنها ما قد جرى أو قيل طبيعياً وتدبيراً لخلاصنا. مثلاً: – ولادته من العذراء ونموّه وتقدّمه في العمر وجزعه وعطشه وتعبه وبكاؤه ونومه. وأنه جُرح بالمسامير ومات الخ.. إنها كلُّها آلام طبيعية وبريئة من الخطإ وهي كلها مزيجٌ من الإلهي والبشري رغم أنها – من المسلَّم به – تختصُّ حقيقةً بالجسد، وأنّ الإلهي فيها لم يتألّم البتّة، لكنه قد أجرى خلاصنا بواسطة هذه الآلام.

– ومن المقولات ما قيل للتظاهر بالشيء. مثلاً: سؤاله: «أينَ وضعتم لعازر؟» [١٣٣].

(١٢ٹ) يوحنّا ١٤ : ١٠ (١٣٠) يوحنّا ١٠ : ٣٠ (١٣١) يوحنّا ٨ : ٤٠ (١٣٢) يوحنّا ٣ : ١٤
(١٣٣) يوحنّا ١١ : ٣٤

ودنوّه من شجرة التين وارتداده عنها راجعاً [١٣٤] . وصلاته. وأنه «تظاهر بأنه منطلقٌ إلى مكان أبعد» [١٣٥] . إن هذه التصرفات وأمثالها لم يكن المسيح بحاجة إليها، لا بصفته إلهاً ولا بصفته إنساناً. لكنه تذرَّعَ بها - كما يفعلُ البشر - ليبلغ إلى ما هو ضروري ومفيد. مثلاً: لقد صلّى ليُظهر بسؤاله أنه ليس معادياً لله، وأنه يُكرم الآب على أنه علّته. وقد سأل - ليس لأنه يجهل - بل ليُظهر أنه بالحقيقة إنسانٌ رغم كونه إلهاً. وقد تراجع عن التينة ليعلّمنا ألاَّ نتجاسر ونستسلم لذواتنا.

- ومن المقولات ما هي التماسٌ للعون والنجدة. مثلاً: «إلهي ألهي، لماذا تركتني؟» [١٣٦] و«إن الذي لم يعرف الخطيئة جعله خطيئة لأجلنا» [١٣٧] و«صار لعنة لأجلنا» [١٣٨] و«يُخضعُ الابن نفسه للذي أخضع له كل شيء» [١٣٩] . والحال إنّ الآب لم يترك ابنه قط لا من حيث هو إله، ولا من حيث هو إنسان. ولم يكن الابن قط خطيئة ولا لعنة، ولم يكن بحاجة إلى أن يخضع للآب. فمن حيث هو إلهٌ، هو مساوٍ للآب وهو ليس معادياً له ولا خاضعاً له. ومن حيث هو إنسان، فلم يكن قط مقاوماً لأبيه كي يضطرَّ إلى تقديم الخضوع له. إنما قال هذا لأنه قد اختصَّ بشخصنا وجعل ذاته بمستوانا، لأننا كنَّا خاضعين للخطيئة واللعنة. ولذلك كنّا متروكين.

- ومن المقولات ما هو آتٍ من تمييز في الفكر. فإن كنتَ تميّز في فكرك ما هو - أي الجسد - غير منفصل في الواقع عن الكلمة، أمكنك الكلام عن عبدٍ وجاهلٍ - لأن الجسد هو من طبيعته عبدٌ وجاهلٌ -. لو لم يتّحدْ بالله الكلمة، لكان يمكنه أن يكون عبداً وجاهلاً. أمّا وقد اتحد أقنومياً بالله الكلمة، فهو لم يكن قط عبداً ولا جاهلاً. ولذلك سمَّى الآب إلهه.

- ومن المقولات ما كان لإظهاره ذاته لنا توطيداً لإيماننا به. مثلاً: «الآن مجِّدني أنت يا أبتِ عندك بالمجد الذي كان لي من قبل كون العالم» [١٤٠] ، فإنه قد كان هو نفسه ممجَّداً ولا يزال. لكنّ مجده لم يكن ظاهراً لدينا فيضطرنا إلى تصديقه. وهذا مثلٌ آخر من قول الرسول: «يسوع المسيح ربنا الذي حدَّد أن يكون ابن الله بحسب روح القداسة بالقيامة من بين الأموات» [١٤١] . فقد ظهر بمعجزاته وقيامته وحلول روحه القدّوس واضطرّ العالم إلى

---

(١٣٤) متى ٢١: ١٩ (١٣٥) لوقا ٢٤: ٢٨ (١٣٦) متى ٢٧: ٤٦ (١٣٧) ٢ كور ٥: ٢١
(١٣٨) غلا ٣: ١٣ (١٣٩) ١ كور ١٥: ٢٨ (١٤٠) يوحنّا ١٧: ٥ (١٤١) رومة ١: ٤

الإيمان بأنه ابن الله. وأخيراً قول الإنجيلي: «وكان ينمو في الحكمة والنعمة»[١٤٢].

– ومن المقولات ما يختصّ بشخصه بصفته يهودياً. فقد كان يُحصي ذاته مع اليهود، كقوله للسامريّة: «أنتم تسجدون لما لا تعلمون ونحن نسجدُ لما نعلم لأنّ الخلاص هو من اليهود»[١٤٣].

الثالث هو الذي يُظهر وحدة الأقنوم ويُثبّت اتحاد الطبيعتين. مثلاً: «أنا أحيا بالآب، فالذي يأكلني يحيا هو أيضاً بي»[١٤٤]، و«إني منطلق إلى الآب ولا تروني بعد»[١٤٥]. و«لو عرفوا لما صلبوا ربّ المجد»[١٤٦]. و«لم يصعد أحد إلى السماء إلاّ الذي نزل من السماء، ابن البشر الذي هو في السماء»[١٤٧]. وما شاكل ذلك.

٤) المقولات في المسيح بعد قيامته: – منها ما هو لائق بلاهوته. مثلاً: «معمدين إيّاهم باسم الآب والابن والروح القدس»[١٤٨]، ودالٌّ على أنَّ الابن هو الله. مثلاً: «ها أنا معكم كل الأيام إلى منتهى الدهر»[١٤٩]. وما شاكلها. فإنه هو معنا بصفته إلهاً. ومن هذه المقولات ما يليق بصفته إنساناً. مثلاً: «أمسكْنَ قدميه»[١٥٠]. و«هناك يرونني»[١٥١]. وما شاكل ذلك.

والمقولات في المسيح بعد قيامته اللائقة بناسوته مختلفة الأنواع. فإنّ بعضها قد حصل في الحقيقة، ولكن ليس بمقتضى طبيعة (الأجسام الممجّدة)، بل بمقتضى تدبير خلاصنا لتثبيت الإيمان بأنّ الجسد الذي قد تألّم هو نفسه قد قام، مثل ذلك آثار الجروح وأكل المسيح وشربُهُ بعد قيامته. وبعضها حصل في الحقيقة وبمقتضى الطبيعة الممجّدة، كانتقاله من أمكنة إلى أخرى بدون إجهاد، ودخوله والأبواب مغلقة؛ وبعضُها كان تظاهراً بعملٍ ما، كما جاء في الآية: «تظاهرَ بأنّه منطلقٌ إلى مكان أبعد»[١٥٢]. وبعضها كان بمقتضى طبيعتَيْه، مثلاً: «إني صاعدٌ إلى أبي وأبيكم وإلهي وإلهكم»[١٥٣]، و«ليدخلْ ملكُ المجد»[١٥٤]، و«جلس عن يمين الجلال في الأعالي»[١٥٥]. وبعضُها – وكأنه انضمَّ إلى صفّنا – كان متميّزاً عنّا على مستوى التفكير العالي، كما في: «إلهي إلهي!».

---

(١٤٢) لوقا ٢:٥٢ (١٤٣) يوحنّا ٤:٢٢ (١٤٤) يوحنّا ٦:٥٧ (١٤٥) يوحنّا ١٦:١٠
(١٤٦) ١ كور ٢:٨ (١٤٧) يوحنّا ٣:١٣ (١٤٨) متّى ٢٨:١٩ (١٤٩) متّى ٢٨:٢٠
(١٥٠) متّى ٢٨:٩ (١٥١) متّى ٢٨:١٠ (١٥٢) لوقا ٢٤:٢٨ (١٥٣) يوحنّا ٢٠:١٧
(١٥٤) مز ٢٣:٧ (١٥٥) عبرا ١:٣

فينبغي إذاً أن ننسب أفعال المسيح السامية إلى طبيعته الإلهية المنزّهة عن الآلام والجسد، وأن ننسبَ أفعاله الوضيعة إلى طبيعته البشرية. أما أفعاله المشتركة فإلى المركّب، أي إلى المسيح الواحد الذي هو إلهٌ وإنسان، علماً بأنّ كليهما يُنسَبُ إلى ربنا يسوع المسيح الواحد نفسه. فإذا عرفنا ما يختصّ بكل طبيعة منهما ورأينا أنّ كلا الفعلين من واحد، يكون إيماننا مستقيماً ولا نضلُّ. فمن هذا كله، نعرف حقيقة الفرق بين الطبيعتين المتّحدتين، لئلاّ، كما يقول كيرلّس المتفوّق في علم اللاهوت، نجعل اللاهوت والناسوت شيئاً واحداً على مستوى الصفات الطبيعية. أجل إنّ الابن والمسيح والرب واحد، وبما أنه من واحد، فإنّ شخصه واحد أيضاً ووحدته الأقنومية لا تنقسم في أيّ حالٍ من الأحوال بسبب معرفة فارقها الطبيعي.

في أنّ الله ليس هو علّة الشرور

في الكتاب المقدّس كلمة «فعل» الله تعني «سماحه» : - اعلمْ أنّ العادة في الكتاب الإلهي أن يُسمّى سماحُ الله فعلَه، كما يقول الرسول في رسالته إلى الرومانيين : «أليس للخزّاف سلطانٌ على الطين فيصنع من كتلة واحدة إناءً للكرامة وآخر للهوان» (١٥٦) ؟ فإنه هو نفسه يصنع هذا وذاك، لأنّ صانع الكلّ واحدٌ وهو هو نفسه. ولكن ليس هو الذي يُهيّىءُ ما هو للكرامة وما هو لغير الكرامة. إنما هذا يختصّ باختيار كل أحد. وهذا واضحٌ مما يقوله الرسول في رسالته الثانية إلى تيموثاوس : «لا تكون في بيت كبير آنية من فضّة وذهب فقط بل من خشب وخزف أيضاً بعضها للكرامة وبعضها للهوان. فإنْ طهّر أحد نفسه من هذه فإنه يكون إناءً للكرامة مقدّساً أهلاً لاستعمال السيّد معدًّا لكل عمل صالح» (١٥٧) . فواضح أن التطهير متروكٌ لاختيارنا، إذ يقول : **إن طهّر أحد ذاته**، والنتيجة العكسية تتبعُ وهي : **إذا أحدنا لم يتطهّر يكون إناءً للهوان**، لا يصلح إلاّ للكسر. ومن ثمّ يصحُّ ما تقدّم وما يأتي من كلام : «لأنّ الله أغلق على الجميع في الكفر ليرحم الجميع» (١٥٨) . وأيضاً : «أعطى الله هذا الشعب روحَ ظلامٍ لئلا يبصر بعينيه ويسمع بأُذنيه» (١٥٩) . فيجب من ثمّ أن نعتبر هذا كله - لا أنه فعل الله - بل أنه بسماح من الله، لأنّ الخير حرّ لا يُغصب.

إنْ هو إذاً إلاّ بسماح الله ما اعتاد الكتاب الإلهي تسميتَه بفعل الله وصنعه، بل يقول أيضاً الكتاب : «أنا الرب خالق الشرّ» (١٦٠) ، و«أيكون شرٌّ في المدينة ولم يفعله الرب» (١٦١) ؟ - إلاّ أنّ هذا ليس بدليل على أن الله هو علّة الشرور. لكن بما أنّ الشرّ ذو وجهين، فإنّ له معنَيين : فهو حيناً يدلّ على الشرّ في الطبيعة. وهذا مضادٌّ للفضيلة ولإرادة الله. وحيناً آخر هو شرٌّ ووجعٌ يتنافى مع شعورنا. أعني بذلك الأحزان والمصائب. وهذه إنما تبدو شروراً لأنها مؤلمة والحقيقة أنها صالحةٌ لأنها تكون بواعث إلى الارتداد والخلاص لمن يفهمون. وهذه هي التي يقول فيها الكتاب إن الله صانعُها.

---

(١٥٦) رومة ٩ : ٢١ (١٥٧) ٢ تيموثاوس ٢ : ٢٠ - ٢١ (١٥٨) رومة ١١ : ٣٢ (١٥٩) أشعيا ٦ : ١٠
(١٦٠) أشعيا ٤٥ : ٧ (١٦١) عاموص ٣ : ٦

واعلم أنَّنا نحن أيضاً نكونُ علَّةَ هذه الشرور. فإنَّ من الشرور التي نرضى بها تصدر شرورٌ لا نرضى بها.

واعلمْ هذا أنّ من عادة الكتاب المقدّس أن يقول بوجوب أمور، على أنها العلّة، وهي إنما يقال بوجوبها عرضاً. مثلاً: «إليك وحدك خطئت وأمام عينيك صنعت الشرّ لكي تغلب في كلامك وتظهر في قضائك»[١٦٢]. فإنّ الخاطىء لم يخطأ لكي يغلب الله وإنّ الله ليس بحاجة إلى خطيئتنا لكي يظهر منتصراً عليها، لأنّ انتصاراته لا ينالُها على الخطأة فحسب، بل على الجميع، لأنه هو الخالق الذي لا يُدرَك ولم يُخلَقْ. وله المجدُ مكتسباً من طبيعته. لكننا إذا نحن أخطأنا فلا يكون الله غيرَ عادل إذا ما أنزل سُخطَه علينا. وإذا عُدْنا إليه تائبين، يبدو منتصراً على شرورنا. والحال نحن لسنا نخطأ لهذه الغاية. إنما الأمر يحدث كما لو أنَّ أحدَنا أنهى شغله وجلس ثم أتاه صديقٌ فيقول: إنني لا أشتغل اليوم لأنّ صديقي قد أقبل إليّ. فإنّ الصديق لم يأتِ لكي يتوقّف هذا عن الشغل. إنما جرى الأمر هكذا. فإنه قد توقّف عن الشغل دون أن يحسب أي حساب لقدوم صديقه. ويقال لهذه الأمور عارضة، لأنها قد جرت هكذا. وإن الله لا يريد أن يكون هو وحده عادلاً، بل أن يتشبّه الجميع به على حسب طاقتهم.

---

(١٦٢) مز ٥٠: ٦

في المبدأين : الخير والشرّ

ردّ على المانيّين بأننا لسنا نقول بمبدأين : – وعليه نعرف أن ليس ثمّة مبدأان ، الواحد صالح والآخر شرّير . لأن احدهما يُضادّ الآخر وأحدهما يُفسد الآخر . ولا يتواجد أحدُهما في الآخر أو أحدهما مع الآخر . ومن ثمّ يكون كلٌّ منهما في جزءٍ من الكلّ . ويكون كلٌّ منهما – قبل كل شيء – محدوداً ، لا بالكلّ ، بل بجزءٍ من الكلّ .

ثم من هو يا ترى الذي يحدّدُ لكلٍّ منهما قطاعه ؟ فإنّ أحدهما لا يدعو الآخر للاجتماع والتعاضد ، لأنّ الشرّ ليس شرًّا إذا دعا للسلام وتعاضد في سبيل الصلاح . وليس الصلاح صلاحاً إذا هو ساومَ في سبيل الشرّ . واذا آخرُ كان المحدِّد لكل منهما ما يختصّ به ، فذلك يكون هو الإله .

وتقضي الضرورة أن يكون واحدٌ من أمرين : إمّا أن يقوى أحدهما على الآخر ويفسده ، وإمّا أن يكون هناك وسطٌ ما ، لا يكون فيه لا خيرٌ ولا شرٌّ ، قل إنه حاجز ما يفصل هذا عن ذاك . وحينئذٍ يكون ثلاثة مبادئ ، لا اثنان .

وتقضي الضرورة أن يكون مبدأٌ آخر غير هذين : إمّا المسالمة – وهذا لا يستطيعه الشرّ ، إذ لا يلائم الشرَّ أن يكون سلام – . وإمّا المحاربة – وهذا لا يستطيعه الصلاح ، إذ التحارب ليس من كمال الصلاح – . وإمّا أنّ الشرّ يحارب والصلاح لا يدافع ، بل يكون عرضةً للشرّ ، فيتألّم وتسوءُ حاله – وهذا ليس مفهومنا عن الصلاح – . وعليه فإن المبدأ واحد وهو منزَّهٌ عن الشرّ .

إن الشرّ فقدان الخير وهو لا جوهرَ له : – ولكنهم يقولون : – إذا كان الأمر هكذا ، فمن أين الشرّ ؟ لأنه يستحيل أن يكون أصل الشرّ من الخير . فنقول إذاً إنَّ الشرّ إنْ هو إلاّ فقدان الخير وبعادٌ عمّا هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضدّ الطبيعة . فليس من شرٍّ هو بمقتضى الطبيعة ، لأن كل ما صنعه الله – ما زال في حال صنعه – حسنٌ جداً . وعليه ، طالما استمرّ على حال خَلْقِهِ يظل حسناً جداً . وكل من ينفصل برضاه عمّا هو بمقتضى الطبيعة ويدخل في ما هو ضدّ الطبيعة ، يصير في الشرّ . إذاً كل عبيد الخالق الخاضعين له هم على مقتضى الطبيعة . وعندما يقطع أحد المخلوقات عنانه ويرفض الطاعة للخالق ، يصير في الشرّ ويستمرّ فيه . فليس الشرّ جوهراً ما ، ولا إحدى خواصّ الجوهر . إنْ هو إلاّ عرضٌ

أي تحويل طوعيّ مما هو بمقتضى الطبيعة إلى ما هو ضدّ الطبيعة. وهذا ما نسمّيه الخطيئة.

الشيطان بإرادته هو أبو الشرّ، لا الطبيعة: - فمن أين الخطيئة إذاً؟ - إنّ الشيطان قد أوجدها بإرادته الحرّة. - وهل الشيطان إذاً شرّير؟ - هو، كما خلقه الله، لم يكن شريراً بل صالحاً، لأن الخالق قد صنعه ملاكاً منيراً بهيًّا وحرًّا، لأنه ناطقٌ. وقد ابتعد هوَ برضاه عن الفضيلة التي هي بمقتضى الطبيعة، وصار في ظلمة الشرّ، مبتعداً عن الله الصالح وحده والمحيي والمطلع النور. فإنّ منه يستمدّ كلُّ صالحٍ صلاحه. وعلى قدر ما يبتعد هذا عنه بالعزم لا بالمكان، يصير في الشرّ.

ما السبب في خلق الله من يعرفهم سيخطأون ولا يتوبون

لقد خلق الله الذين سبق وعرفهم أشراراً لكي لا يبدو الشرُّ منتصراً على الصلاح : – إنّ الله ، لصلاحه ، يُخرج البرايا من العدم إلى الوجود وهو عارفٌ بمصيرها . إذاً لو لم تكن البرايا مزمعةً أن توجد لما كانت مزمعةً أن توجد شرّيرة . فإنّ لا شيء يُعرف قبل وجوده . وتختصّ العلوم بالحاضرات ويختصّ سابق المعرفة بالمستقبلات . وعلى الشيء أن يوجد أولاً حتى يُعرف إن كان وجوده صالحاً أو شرّيراً . فإذا كان الذين سيوجدون بسبب صلاحه تعالى يمنعهم عن الوجود أنهم سيصيرون أشراراً برضاهم ، فيكون الشرّ قد غلب صلاح الله . نستنتج من ذلك أنّ كل ما يصنعه الله إنما يصنعه صالحاً . وأنّ كل أحد يكون صالحاً أو شريراً برضاه الخاص . إذاً فكما يقول الرب : «قد كان خيراً لذلك الرجل لو لم يولد» (١٦٣) . وقد قال هذا ليس انتقاداً منه لصنعه الخاص ، بل للشرّ الواصل لصنعه من جرّاء الاختيار الخاصّ والتهامل . فإنّ إبطاء العزم الخاص قد جعل حسن صنيع الخالق غير مفيد . فإنّ حاله هي حال ذاك الذي استمدّ من ملكه ثروة وسلطة ، ثم استقلّ بسلطته تجاه المحسن إليه . فمتى قبض سيّده عليه سوف يعاقبه عقاباً يستحقُّه إذا ما استمرّ ثابتاً حتى النهاية على عصيانه وغيّه .

---

(١٦٣) مرقس ١٤ : ٢١

في شريعة الله وشريعة الخطيئة

كلُّ شيء يريده الله خيرٌ: - إنّ الإله صالح بالطبع وفائق الصلاح وإنّ إرادته لكذلك. وكلّ ما يريده الله صالح. أمّا الوصية التي تعلّمنا هذا فهي الناموس، حتى إننا إذا ما ثبتنا فيه نكون في النور. وما الخطيئة إلاّ تجاوز هذه الوصية. وتقوم بدافعٍ من الشيطان وارتخائنا ورضانا بقبولها. ويقال لها هي أيضاً ناموساً.

ناموس الله وناموس عقلنا. - ناموس الخطيئة وناموس أعضائنا اللحميّة: - لمّا يبلغ ناموس الله إلى عقلنا يجذب إليه ضميرنا ويوقظه، فيُدعى ضميرُنا أيضاً ناموس عقلنا. ولمّا يبلغ دافع الشرّير - وهو ناموس الخطيئة - هو أيضاً إلى أعضاء لحمنا، يدخل بها إلينا. فيكفي أن نقاومَ مرة فقط ناموس الله برضانا ونقبل بدخول الشرّير، فنُفسح المجال للخطيئة، بائعين ذواتنا إليها. ومن ثمّ يُقاد جسدنا إليها بسرعة. إذاً فإنّ ما يكمن في جسدنا من قابليّة تنشّق الخطيئة والتحسّس لها أي الرغبة فيها والتلذّذ بها يُسمى ناموس أعضائنا اللحميّة.

شرح أقوال الكتاب المقدّس بصدد الحرب القائمة بين الناموسين: - إنّ ناموس عقلي إذاً - أي الضمير - يلتذُّ بناموس الله، أي الوصية، ويرغب فيه. أما ناموس الخطيئة - أي المدفوع بالناموس الذي في أعضائي، وهو شهوة الجسد والميل والحركة والقسمُ غير الناطق من نفسي - فيحارب ناموس عقلي، أي ضميري، ويأسرني رغم رغبتي في ناموس الله ومحبتي إيّاه ونفوري من الخطيئة، ذلك بنعومة اللذّة وشهوة الجسد والقسم غير الناطق من نفسي - كما قلت - فيضلّلني ويقنعني بأن أُستعبَد للخطيئة. لكن «ما لم يستطعه الناموس وضعُف عنه بسبب الجسد، قد أنجزه الله إذ أرسل ابنه في شبه جسد خطيئة - فقد اتخذ الجسد، أما الخطيئة فلا - وقضى على الخطيئة في الجسد من أجل الخطيئة، ليتمّ برُّ الناموس فينا نحن الذين لا نسلك بحسب الجسد بل بحسب الروح»[١٦٤]، «فإنّ الروح يعضد ضعفَنا» ويمنح القوة لناموس عقلنا ضدّ الناموس الذي في أعضائنا. «فإننا لا نعلم ماذا نصلّي كما ينبغي ولكن الروح نفسه يشفع فينا بأنّات لا توصَف»[١٦٥] أي يعلّمنا ماذا نصلّي، حتى إنه لا يمكن تتميم وصايا الرب إلاّ بالصبر والصلاة.

---

(١٦٤) رومة ٨: ٣ - ٤ (١٦٥) رومة ٨: ٢٦

ردّ على اليهود بشأن السبت

ديانة يوم السبت: - يُسمّى اليوم السابع سبتاً. ويدلّ على الاستراحة. وفيه «استراح الله من جميع عملهِ» (١٦٦)، كما ذكر الكتاب الإلهي. ولهذا السبب يتتابع عدد الأيام حتى السبعة ثم يدور مُبتدئاً من الأول. إنّ هذا العدد لشريفٌ لدى اليهود، لأنّ الله قد رسم بتشريفه، وليس ذلك بدون إلزام، فإنه تعالى قد فرض أثقل العقوبات على من يخالفونه. وإنه تعالى لم يأمر به جزافاً، بل كان ذلك لأسباب يعرفها معرفة سرية الروحيون ذوو الألباب.

تعليق الدمشقي على الوصيّة لليهود بالاستراحة يوم السبت: - إذاً فعلى قدْرِ معرفتي بأمور لم أتعلّمْها، ولكي أبدأ بأدناها وأغلظها أقول: - لمّا كان الله يعلم بغلاظة الشعب الاسرائيلي وبأمياله اللحميّة وجنوحه إلى المادّة مع عدم تمييزه، قد أوصاه أولاً - على ما كُتب - «بأن يستريح عبده وحماره» (١٦٧)، لأنّ «الرجل الصدّيق يرحم نفس بهيمته» (١٦٨). وفي الوقت نفسه، لكي يتسنّى له أن يخلدَ هو نفسه إلى الراحة هرباً من اهتماماته الماديّة، فيتّجه إليه تعالى بالمزامير والتسابيح والأناشيد الروحيّة، صارفاً اليوم السابع كلّه في تأمّل الكتب الإلهيّة، ومستريحاً في الله. ذلك كان عندما لم يكن ناموسٌ ولا كتابٌ ملهَمٌ ولا سبتٌ مكرَّسٌ لله. ولمّا أُعطي بموسى الكتاب المُلهم، تكرّس السبت لله، لكي يتفرّغ فيه لدرس الكتب والتأمّل أولئك الذين لم يكرّسوا حياتهم كلها لله وهم لا يخدمونه بلهفة، خدمتَهم لسيّدهم وأبيهم، بل شأنهم شأن عبيد أغبياء يقتطعون من حياتهم جزءاً صغيراً أو ضئيلاً لله، وذلك خوفاً من الحساب والعقاب في حال المخالفة «لأنّ الناموس لم يشرع للبارّ بل للأثمة» (١٦٩). والبرهان أن موسى كان أول من قضى أربعين يوماً وأربعين ليلة صائماً بحضرة الله. وهو حتماً قد تحمّل الصيام في السبوت أيضاً، مع أن الناموس يقضي بألاّ يتحمّلَ أحدٌ الصيام في يوم السبت. وإذا قيل بأنّ هذا كان قبل الناموس، فماذا يقولون في إيليّا التشبي، وقد سار أربعين يوماً في الطريق بعد أكلة واحدة؟ (١٧٠) فإن هذا قد نقض

---

(١٦٦) تكوين ٢:٢ (١٦٧) تثنية ٥:١٤ (١٦٨) أمثال ١٢:١٠ (١٦٩) خروج ٢٤:١٨
(١٧٠) ٣ ملوك ١٩:٨

السبت ، إذ أضنى ذاته ليس بالصيام فحسب بل بالسفر أيضاً حتى في السبوت وذلك من مدّة الأربعين يوماً . وإنّ الله الذي وضع الناموس لم يغضب عليه ، بل كافأ فضيلته بظهوره له على حوريب . وماذا يقولون في دانيال ؟ ألَمْ يقضِ ثلاثة أسابيع صائماً؟ (١٧١) وماذا يفعل اليوم إسرائيل كلُّه؟ ألا يختنُ فتاه في السبت إذا اتفق أن يكون اليوم الثامن لمولده؟ (١٧٢) . وهم ألا يصومون الصيام الكبير أيضاً ، المحدّد شرعاً ، حتى إذا وقع في السبت (١٧٣) ؟ أوَليس أيضاً أنّ الكهنة واللاويّين كانوا – بأعمالهم في خباءِ الشهادة – ينقضون السبت ولا حرجَ عليهم ؟ بل وإذا سقط حمارٌ في حفرة في السبت وانتشله أحدهم يبرَّر أو أعرض عنه يُدان؟ وماذا فعل إسرائيل بأجمعه ، أما حملوا تابوت الله وطافوا به حول أسوار أريحا مدة سبعة أيام بما فيها حتماً يوم السبت أيضاً؟

تبديل يوم السبت إلى ما هو أحسن : – إذاً ، كما قلنا ، فقد بدأ التفكير بحفظ السبت للتفرّغ لما هو لله كي يستريحَ العبد والحيوان قسطاً مفروضاً . وقد أُنشىء لهم ذلك وهم بعد صبيان ، مستعبَدون لأركان العالم ، لحميّون ، لا حول لهم على التفكير بما هو فوق الجسد والحرف . لكن «لمّا بلغ ملء الزمان أرسل الله ابنه الوحيد إنساناً مولوداً من امرأة مولوداً تحت الناموس ليفتديَ الذين تحت الناموس لننال التبنّي» (١٧٤) ، فإن «كلّ الذين قبلوه أعطى لهم سلطاناً أن يكونوا أبناءَ الله ، للذين يؤمنون باسمه» (١٧٥) ، «لأنّنا لسنا بعدُ عبيداً ، بل نحن أبناء» (١٧٦) ، ولسنا تحت الناموس بل تحت النعمة ، ولسنا بعد نخدم الربّ خدمةً جزئيّةً وعن خوف ، بل نحن نلتزم بأن نقرّب إليه كل أيام حياتنا ، فنوقف العبد دائماً عن الخطيئة – أعني به الغضب والشهوة – ونتحوّل به إلى الاستراحة في الله . أما الشهوة فتكون كلها قرباناً لله دائماً ، والغضب سلاحاً ضدَّ أعداءِ الله ، والبهيمةُ – أي الجسد – فنوقف فيه عبوديّة الخطيئة ونتحوّل به إلى خدمة الوصايا الإلهيّة .

إنّ هذا ما أوصانا به ناموس المسيح الروحيّ . وإذا ما حفظناه نكون قد تفوّقنا على حفظ ناموس موسى . فلمّا أتى الكامل زال الناقص ، ولمّا انشقّ بصلب المخلّص حجابُ الناموس – أي حجاب الهيكل – وأضاء الروح بألسنةٍ ناريّة ، أُبطل الحرف وهدأت الجسديّات وانتهى ناموس العبودية وأُعطي لنا ناموس الحرية . ونحن اليوم نحتفل بعيد راحة البشريّة

---

(١٧١) دانيال ١٠ :٢ وما يليه (١٧٢) أحبار ١٢ :٣ (١٧٣) أحبار ٢٣ :٢٧ (١٧٤) غلاطية ٤ :٣ – ٥
(١٧٥) يوحنّا ١ :١٢ (١٧٦) غلاطية ٤ :٧

الكاملة، أي يوم القيامة الذي فيه الرب يسوع، زعيم المسيرة إلى الحياة والمخلّص يقود إلى الميراث الموعود به الذين يعبدون الله عبادة روحية، وهو نفسه قد سبقنا ودخل إليه، إذ قام من بين الأموات وانفتحتْ له الأبواب السماويّة، فجلس بالجسد عن يمين الآب حيث سيدخل أيضاً حافظو الناموس الروحي.

الختان والسبت بالمعنى السرّيّ شيء واحد: – وعليه فنحن السائرين على هدى الروح، لا الحرف، علينا هجرُ الجسديّات إلى العبادة الروحية والارتباط بالله. فإنّ ختاننا إنما هو الانقطاع عن اللذّة الجسديّة وعمّا فَضُلَ عنا ولا طائل فيه. والغلفةُ ما هي سوى جلدةٍ زائدة في عضو اللذّة. وكل لذّة لا تكون من الله وفي الله هي غلفة اللذّة ورمزها القُلفة. وما السبت إلاّ التوقّف عن الخطيئة. وكلاهما شيءٌ واحدٌ يمارسه الروحيون وليس فيه ما ينقض الناموس.

تعليق على العدد سبعة: – واعلمْ أنّ العدد سبعة يدلُّ على الزمان الحاضر كلّه، كما يقول سليمان الحكيم: «إجعل القسمة إلى سبعة، بل إلى ثمانية» [١٧٧]. وإنّ داود المتكلّم بالله قد ترنّم في ثامن مزاميره في الانقضاء الآتي بعد القيامة من بين الأموات. إذاً فإنّ الناموس برسمه اليوم السابع للراحة من الأعمال الجسدية والانقطاع إلى الأعمال الروحيّة، إنما كان يعني سريًّا إلى إسرائيل الحقيقي الحاصل بعقله على رؤية الله أن يرتقي بذاته إلى الله ويكون مترفّعاً عن الجسديّات.

---

(١٧٧) الجامعة ١١: ٢

في البتوليّة

تبريرُ البتوليّة. – إنها لازمَت الإنسان في الفردوس : – اللحميّون يقبّحون البتولية وأصحاب الملذّات يوردون للشهادة ما يأتي : «ملعونٌ كل من لم يُقِمْ نسلاً في إسرائيل» (١٧٨) . أمّا نحن فنقول : استناداً إلى الله الكلمة المتجسّد من بتول ، إنّ البتوليّة من العلاء ، وقد نبتتْ أصيلة في طبيعة البشر. فقد جُبل الإنسان من أرض بتولٍ وخُلقت حواء من آدم وحده. وكانت البتوليّة تُمارَس في الفردوس. ويقول الكتاب الإلهيّ إنّ آدم وحواء كانا عريانين وهما لا يخجلان (١٧٩) . ولمّا تجاوزا الوصيّة علما أنهما عريانان (١٨٠) . ولخجلهما خاطا لهما مآزرَ. وبعد المعصية ، لمّا سمع آدم : «أنت ترابٌ وإلى التراب تعود» (١٨١) ، ودخل الموت إلى العالم بالمعصية ، حينذاك عرف آدم حواء امرأته فحملت وولدت (١٨٢) . وكيلا ينقرض جنس البشر بالموت ، فقد حصل الزواج ليستمرّ جنس البشر في الوجود بولادة الأولاد.

بدء الزواج مرافقٌ للخطيئة : – لكن ربما يقولون : لماذا إذاً أرادهما الله ذكراً وأنثى (١٨٣) ؟ وقال لهما : «إنميا واكثرا» (١٨٤) . فنجيب على هذا : – ان عبارة «**إنميا واكثرا**» لا تدلّ حتماً على التكثير بواسطة العلاقة الزوجيّة ، فإنّ الله كان قادراً على تكثير الجنس بطريقة أخرى لو أنهما قد حفظا وصيّته بلا انثلام حتى النهاية. لكن بما أنّ الله يعلم بسابق معرفته – وهو العالِم بكل الأمور قبل أن تكون – أنهما سوف يسقطان في المعصية وأنه سوف يقضي عليهما بالموت ، سبق فخلقهما ذكراً وأُنثى وأمرهما بأن ينميا ويكثرا. فلنرجع إذاً في طريقنا إلى الوراء ونرَ امتيازات البتوليّة قائلين الشيء ذاته في العفّة.

العفّة ترتقي إلى الطوفان : – لمّا أوعز الله إلى نوح بأن يدخل السفينة وقلّده العمل على حفظ نسل العالم ، كان الأمر إليه على النحو التالي : «أُدخل أنت وبنوك وامرأتك ونسوة بنيك» (١٨٥) . إن الله هنا قد فصلهم من نسائهم كي يتحاشوا ، مع العفّة ، الغور والغريق العالميّ العام. ثم هو بعد أن هدأت الكارثة قال : «أخرج من التابوت أنت وامرأتك وبنوك

---

(١٧٨) تثنية ٢٥ : ٩ (١٧٩) تكوين ٢ : ٢٥ (١٨٠) تكوين ٣ : ٧ (١٨١) تكوين ٣ : ١٩
(١٨٢) تكوين ٤ : ١ (١٨٣) تكوين ١ : ٢٧ (١٨٤) تكوين ١ : ٢٨ (١٨٥) راجع تكوين ٧ : ٧

ونسوة بنيك معك» [١٨٦] . فهوذا الله يسمح مجدداً بالزواج لأجل التكثير . وإيليّا قائد المركبة النارية عبر السماء ، ألم يكن منقطعاً عن الزواج؟ ألم يشهد له بذلك ارتقاؤه إلى السماء الذي يفوق البشر؟ [١٨٧] من أغلق السماوات [١٨٨] من أقام الموتى [١٨٩] من فلق نهر الأردن [١٩٠] أليس إيليّا البتول؟ وأليشع تلميذه ، ألم يُظهر فضيلةً معادلة لفضيلته لمّا سأل فورثَ نعمة روحه ضعفين [١٩١] ؟ وما قولُك في الفتية الثلاثة؟ ألم يتروّضوا على البتوليّة فأضحوا متفوّقين على النار ، لأنّ أجسادهم صارت مع البتوليّة في معزل عن النار [١٩٢] ؟ ودانيال المتقوّي بالبتوليّة ألم تعفَّ عنه أنياب الوحوش لأنها لم تكن لتقوى عليه [١٩٣] ؟ والله الذي كان سيتراءى للإسرائيليين ألم يُوعز إليهم بأن يحفظوا الجسم نقيًّا [١٩٤] ؟ أَولم يكن الكهنة يتعفّفون قبل ولوجهم الأماكن المحرّمة وتقريبهم الذبائح [١٩٥] ؟ أَولم يقل الناموس بأن العفّة صلاة عظيمة؟

كيف نفهم نصّ الكتاب المقدّس : – فعلينا والحالة هذه أن نفهم الوصيّة الناموسيّة في أسمى ما يكون من معناها الروحي . لأنّ في باطننا النفسي بذاراً روحيًّا يُحبلُ به بمحبة الله وخوفه وبعد المخاض يولد روح الخلاص . فعلى هذه الصورة ينبغي أن نفهم الآية التالية : «طوبى لمن له نسلٌ في صهيون وأهلٌ في أورشليم» [١٩٦] . فماذا إذاً؟ أحتى لو إنّ هذا كان زانياً أو سكّيراً أو عابدَ أوثان يكون مغبوطاً ، إذا كان له نسلٌ في صهيون وأهل في أورشليم؟ إنه ليس ثمّةَ من يُحسن التفكير ويقول هذا القول !

البتوليّة – التي تضاهي سيرة الملائكة – أشرف من الزواج : – البتوليّة سيرة الملائكة وهي ميزة الطبيعة اللاجسميّة . ونقول هذا ليس احتقاراً منّا للزواج ، حاشا ! فنحن نعلم أن الربَّ في حضوره العرس قد بارك الزواج [١٩٧] ، ونعرف قوله : «الزواج مكرَّمٌ والمضجع طاهر» [١٩٨] . لكننا نعرف أيضاً أن البتوليّة أحسن مما هو حسن ، فإنّ في الفضائل كما هو في الرذائل درجات عليا ودنيا . ونعلم أنّ البشر جميعاً ثمرة الزواج عدا أبوينا الأولين . فإنهما جبلة البتوليّة لا الزواج . لكن ، كما قلنا ، إنّ عدم الزواج تمثّلَ بالملائكة . إذاً فإنّ البتوليّة هي أكرم من الزواج على قدر ما يسمو الملاك على الإنسان .

(١٨٦) تكوين ٨ : ١٦ (١٨٧) ٤ ملوك ٢ : ١١ (١٨٨) ٣ ملوك ١٧ : ١ (١٨٩) ٣ ملوك ١٧ : ٢٢
(١٩٠) ٤ ملوك ٢ : ٨ (١٩١) ٤ ملوك ٢ : ٩ (١٩٢) دانيال ٣ : ٢٤ (١٩٣) دانيال ٦ : ٢٣
(١٩٤) خروج ١٩ : ١٥ (١٩٥) العدد ٦ : ٢ (١٩٦) اشعيا ٣١ : ٩ (١٩٧) يوحنّا ٢ : ١ – ٢
(١٩٨) عبرا ١٣ : ٤

المسيح شرّف البتوليّة وقد ولد من أب وأُم بتولين. - إنها لا توجد شريعة صادرة عن المسيح تلزم بحفظ البتوليّة.

ماذا، أأقول الملاك؟ - بل إنه المسيح نفسه، فخر البتوليّة ليس مولوداً فحسب من الآب قبل الزمن، وذلك بلا سيلان ولا مقارنة، بل هو قد صار إنساناً مثلنا متجسّداً من البتول لأجلنا بلا مقارنة. فحقّق هو نفسه في ذاته البتوليّة الحقيقية الكاملة. ومن ثمّ لم يوصِنا بها وهو القائل: «ما كل أحد يحتمل هذا الكلام» (١٩٩). لكنه علّمنا إياها بعمله ومنحنا القوّة في سبيلها. ومن ذا لا يتّضح له اليوم أن البتولية سالكة بين البشر؟

مقابلة بين الزواج والبتوليّة: - إنه لحسنٌ إنجاب البنين إذا كان في حال الزواج. وحسنٌ الزواج لحسم الزنا، واستكلاب الشهوة، ذلك بمخالطةٍ شرعيّة لا تتجاوزها إلى الانزلاق في أفعال لاشرعيّة. وحسنٌ الزواج لمن فقدوا العفّة. وأحسن منه البتولية لتنميتها النفسَ خصباً وتقديم الصلاة لله، ثمرة ناضجة في حينها. و «ليكن الزواج مكرّماً في كل شيء والمضجعُ طاهراً. فان الزناة والفسّاق سيدينهم الربّ» (٢٠٠).

---

(١٩٩) متى ١٩:١١ (٢٠٠) عبرا ١٣:٤

في الختان

لقد فُرض الختان على إبرهيم قبل الناموس وبعد البركة والوعد، علامةً تميّزه هو ونسلَه وأهل داره من الأمم الذين كان يعيش بينهم [٢٠١]. وهذا واضح [٢٠٢]. فلمّا عاش إسرائيل وحده في البرّية مدّة أربعين سنة، لا يُخالط أمّة أخرى، كان جميع الذين وُلدوا في البريّة لم يختتنوا. ولمّا اجتاز بهم يشوع الأردن، فحينذاك اختتنوا وكانت شريعةٌ ثانية للختان. فإنّ شريعة الختان كانت قد أُعطيت في عهد إبرهيم ثم توقّفت في البريّة مدة أربعين سنة. ومن ثم أَعطى الله شريعةَ الختان ثانية ليشوع بعد اجتيازه نهر الأردن، على ما كُتب في سفر يشوع بن نون: «في ذلك الوقت قال الرب ليشوع اصنع لك سكاكين من صوّان واختن بني اسرائيل مرة أخرى» [٢٠٣]. وأضاف بعد قليل: «لأنّ بني إسرائيل ساروا أربعين سنة في البريّة إلى أن انقرضت كل جماعة رجال الحرب الخارجين من مصر الذين لم يطيعوا أمر الرب الذين أقسم الرب أن لا يريهم الأرض التي أُقسم أن يعطيناها أرضاً تدرُّ لبناً وعسلاً. وبنوهم الذين أقامهم مكانَهم هم الذين ختنهم يشوع لأنهم كانوا قُلْفاً إذ لم يختتنوا في الطريق» [٢٠٤]. فيتّضح من ثمّ أنّ الختان كان علامة تميّز إسرائيل من الأمم الذين كان يعيش بينهم.

الختان صورة المعموديّة: – وكان الختان صورة للمعمودية. وكما أنّ الختان لا يقطع عضواً من الجسم مفيداً بل شيئاً زائداً لا طائل فيه، كذلك نحن نحسمُ عنّا الخطيئة بالمعمودية. وواضحٌ أنّ الخطيئة – بما أنها زيادة في الشهوة – ليست شهوةً مفيدةً. لأنه لا يمكن أحداً ألاّ يشتهي البتّة أو أن يكون خالياً تماماً من الشهوة. لكنّ ما لا فائدة منه في اللذّة أو ما لا فائدة منه في الشهوة مع اللذّة هذا هو الخطيئة التي تحسمُها المعمودية المقدّسة، مانحة لنا على الجبين إشارة الصليب، لا لتفصلنا عن الأمم – فإن المعموديّة قد حصلت لكل الأمم وهم يختمون بإشارة الصليب – بل ذلك ليتميّز المؤمن في كل أمّةٍ من غير المؤمن. وعليه إذ قد اعتُلنت الحقيقة، فلا فائدة بعد للصورة والخيال، حتى إنّ الختان نفسه قد أضحى بلا

---

(٢٠١) تكوين ١٢: ٣ – ٥ (٢٠٢) تكوين ١٥: ١٠ – ١٨ (٢٠٣) يشوع ٥: ٢ (٢٠٤) يشوع ٥: ٦ – ٧

فائدة ، خلافاً للمعمودية المقدسة. «لأنّ من اختتنَ ملتزمٌ بأن يعمل بالناموس كله»[٢٠٥]. وقد اختُتن الرب لكي يتمَّ الناموس ، وقد حفظ الناموس كله والسبت لكي يُتمِّم الناموس ويثبّته[٢٠٦]. ومنذ أن اعتمد المسيح وظهر الروح القدس للبشر حالاً في صورة حمامة ، فمنذئذٍ بدأ ملكوت السماوات مع العبادة والسيرة الروحيّتين.

---

(٢٠٥) متى ٥ :١٧ (٢٠٦) متى ٥ :١٧

في المسيح الدجّال

مفاهيم مختلفة عن المسيح الدجّال. – اليهود سوف يقبلونه على أنه مسيحُهم: – ينبغي أن تعلم أنّ المسيح الدجال لا محالة آتٍ وأنه لمسيحٌ دجالٌ كل من لا يعترف أنّ ابن الله قد أتى بالجسد وأنه إلهٌ كاملٌ وأنه قد صار إنساناً كاملاً بعد أن كان إلهاً. ومع ذلك فبالمعنى الخاص والحصري فإنهم يدعون المسيح الدجال ذاك الذي سوف يأتي في منتهى الدهر. ومن ثمّ ينبغي أن يُكرز أولاً بالإنجيل في جميع الأمم (٢٠٧)، كما قال الربّ، ثم يأتي الدجال ليُحاجَّ اليهود مقاومي الله، فقد قال الرب لهؤلاء: «أنا أتيت باسم أبي فلم تقبلوني، ويأتيكم آخرُ باسم نفسه فذاك تقبلون» (٢٠٨). وقال الرسول أيضاً: «لذلك يُرسل الله إليهم عمل الضلال حتى يصدّقوا الكذب. ويُدان جميع الذين لم يؤمنوا بالحقّ بل ارتضوا بالإثم» (٢٠٩). فاليهود إذاً لم يقبلوا الربّ يسوع المسيح، على أنه ابن الله والله، ويقبلون الغاشَّ المدّعي بأنه الله. وقد سمَّى نفسه الله لأنّ الملاك الملقِّن دانيال يقول هكذا: «لا يعبأُ بآلهة آبائه» (٢١٠)، ويقول الرسول: «لا يخدعنَّكم أحدٌ بوجهٍ من الوجوه، لأنه لا بدّ أن يسبق الارتداد أولاً، ويظهر إنسان الخطيئة ابنُ الهلاك المعاند المترفِّع فوق كل من يُدعى إلهاً أو معبوداً حتى إنه يجلس في هيكل الله ويُري من نفسه أنه هو الله» (٢١١). هو يقول **في هيكل الله** – لا هيكلنا –، بل الهيكل القديم اليهودي، لأنه لا يأتي إلينا بل إلى اليهود. ليس لأجل المسيح، بل ضدّ الذين هم للمسيح. لذلك يُدعى المسيح الدجال.

سيكون المسيح الدجّال رجلاً حقيقيًّا: – وعليه ينبغي أن يكرز بالإنجيل في جميع الأمم، «وحينئذٍ يظهر الذي لا شريعة له ويكون مجيئه بعمل الشيطان بكل قوّة وبالعلامات والعجائب الكاذبة، وبكلّ خدعة ظلم في الهالكين، فيُهلكه الرب يسوع بنَفَس فمه ويُبطله بسنى مجيئه» (٢١٢). وعليه فإنَّ هذا ليس الشيطان يصير إنساناً على مثال تأنّس الرب، حاشا! بل هو إنسان يولد من زنى، ويتسلّم كل عمل الشيطان. وقد سبق الله وعلم شناعة اختياره فترك للشيطان أن يسكن فيه.

---

(٢٠٧) متّى ٢٤: ١٤ (٢٠٨) يوحنّا ٥: ٤٣ (٢٠٩) ٢ تسّا ٢: ١٠ – ١٢ (٢١٠) دانيال ١١: ٣٧
(٢١١) ٢ تسّا ٢: ٣ – ٤ (٢١٢) ٢ تسّا ٢: ٨ – ١٠

بداية المسيح الدجّال وامتداد نفوذه : – إذاً كما قلنا إنه سيُولد من زنى ويتربَّى في الخفية ويثور فجأة ويستولي و يملك. وفي أوائل تملّكه أو الأحرى تجبّره يتظاهر بالعدل. وعندما تكون قد اتّسعت سلطته يضطهد كنيسة الله ويُظهر كل شرّه. «ويكون مجيئه بالعلامات والعجائب الكاذبة»[٢١٣] المضلّة وغير الصادقة. ويخدع من كان أساس ذهنهم فاسداً وضعيفاً ويُبعدهم عن الله الحيّ و «يُضلّ المختارين لو أمكن»[٢١٤].

محاربة أخنوخ وإيليّا ضدَّ المسيح الدجّال : – وسيُرسل الله أخنوخ وإيليّا التشبي فيُعيدان قلوب الآباء إلى الأبناء، أي شيوخ المجمع إلى ربنا يسوع المسيح وإلى كرازة الرسل. ولكنه سيقتلها. ثم يأتي الرب من السماء كما كان شاهده الرسل القدّيسون صاعداً إلى السماء، إلهاً كاملاً وإنساناً كاملاً، بمجد وقوّة، فيهلك بنَفَس فمه الإنسان الزائغ عن الشريعة وابن الهلاك. فلا يتوقّعنّ أحدٌ إذاً مجيء الرب من الأرض بل من السماء، على ما أكّده لنا هو نفسه.

---

(٢١٣) ٢ تسا ٢ : ٩

(٢١٤) متى ٢٤ : ٢٤

في القيامة

قيامة الأجساد للنفوس الخالدة : – ونؤمن أيضاً بقيامة الموتى. فإنها ستكون بالحقيقة قيامة الموتى. أجل، إنها لستكون! وبقولنا قيامةً نعني قيامة الأجساد، لأنّ القيامة قيامٌ ثانٍ لما قد سقط. وإلاَّ كيف تقوم النفوس وهي خالدة؟... ولما كان تحديد الموت انفصال النفس عن الجسد، فإنّ القيامة تكون حتماً جمعَ النفس والجسد مجدّداً وقياماً ثانياً للحيّ المحلول والساقط. إذاً إنّ الجسد نفسه المنفسد والمحلول هو نفسه يقوم بلا فساد. والذي في البدء جبله من تراب الأرض لا يعجز الآن – بعد أن انحلَّ وعاد إلى الأرض التي أُخذَ منها – أن يعودَ صانعه هذا فيُقيمه مجدّداً.

برهانٌ عقليٌّ على القيامة، انطلاقاً من عناية الله وعدله : – فإذا لم تكن قيامةٌ، فلنأكلْ ونشربْ ونبادر إلى اللذّة والعيش الرغيد(٢١٥)! إذا كان ليس قيامة، فبماذا نتميّز عن البهائم؟ إذا كان ليس قيامة، فلنغبِّط وحوش البريّة التي تعيش بمعزل عن الهمّ. وإذا كان ليس قيامةٌ، فليس ثمّةَ إلهٌ وليس عنايةٌ! والكل ينقاد ويندفع من ذاته! فهوذا نحن معظم الصدّيقين كادحين مظلومين ولا مكافأة لنا البتّة في عيشنا الحاضر، بينما نرى خطأةً وظالمين يرغدون في الغنى وكل أنواع البذخ. فمن تراه من أصحاب الحكم السليم يعتقد أنّ عملاً مثل هذا يكون عن تمييز عادل وحكيم؟ – إذاً ستكون قيامة، أجل، إنها ستكون! لأنّ الله عادل وسيُعطي ذاته جزاءً للصابرين. إذاً فإنّ النفسَ لو أنها وحدَها قد قامت بأعمال الجهاد في سبيل الفضيلة، لكانت هي وحدها تتكلّل، ولو أنها وحدها قد تمرّغت بالملذات، لكانت هي وحدها تعاقَب عقاباً عادلاً. لكنّ النفس لم تبادرْ إلى الفضيلة ولا إلى الرذيلة بدون الجسد. فمن العدل إذاً أن ينال كلاهما معاً النصيب المعدَّ لهما، ثواباً أو عقاباً!

المراجع الكتابيّة : – يشهد الكتاب الإلهي أنْ ستكون قيامة الأجساد، فيقول الله لنوح بعد الطوفان: «كبقول العشب أُعطيكم الكلَّ. ولكن لحماً بدمه لا تأكلوا. أمّا دماؤكم فأطلبها من يد كلّ وحشٍ أطلبها ومن يد الإنسان. أي إنسان قتل أخاه أطلبُ نفس الإنسان. إن يكن سافكٌ دمِ الإنسان إنساناً فدمُه يُسفك لأنه بصورة الله صنع

(٢١٥) ١ كور ١٥: ٣٢؛ أشعيا ٢٢: ١٣

الإنسان»[٢١٦] . كيف إذاً يطلب الله يدَ الإنسان من كل وحش لولا أنّ أجساد البشر الموتى تقوم؟ فإنّ الوحوش لا تموت بدل الإنسان.

وقال الله لموسى أيضاً: «أنا إلهُ إبرهيم وإله إسحق وإله يعقوب»[٢١٧] . «والله ليس إله أموات»[٢١٨] أي إله الذين قد ماتوا ولا يكونون من بعد، لكنه «إلهُ أحياء»، «الذين نفوسهم تعيش في يد الله»[٢١٩] ، وأجسادهم تُبعث من جديد في القيامة. ويتّجه داود جدُّ الإله بالكلام إلى الله قائلاً: «تقبض أرواحهم فيموتون وإلى ترابهم يرجعون»[٢٢٠] ثم يتابع قوله في الأجساد فيقول: «تُرسلُ روحَك فيُخلقون وتجدد وجه الأرض»[٢٢١] .

ويقول أشعيا: «ستحيا موتاك وتقومُ أشلائي»[٢٢٢] . فواضح أنّ النفوس لا تكون أشلاء بل الأجساد.

ويقول حزقيالُ المغبوط: «وكان صوتٌ عند تنبُّؤي وإذا بزلزالٍ فتقاربتِ العظام كلّ عظم إلى عظمه ورأيت فإذا بالعصب واللحم قد نشأا عليها وبُسط الجلدُ عليها من فوق»[٢٢٣] . ثم يخبر النبيّ كيف كان استدعاء الأرواح فحضرتْ.

ويقول دانيال الإلهي: «وفي ذلك الزمان يقوم ميكائيل الرئيس العظيم القائم لبني شعبك ويكون وقت ضيق لم يكن منذ كانت أمّةٌ إلى ذلك الزمان. وفي ذلك الزمان ينجو شعبُك، كل من يوجد مكتوباً في الكتاب. وكثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون بعضهم للحياة الأبدية وبعضهم للعار والرذل الأبدي. ويُضيءُ العقلاء كضياء الجَلَد والذين جعلوا كثيرين أبراراً كالكواكب إلى الدهر والأبد»[٢٢٤] . فبقوله **كثيرون من الراقدين في تراب الأرض يستيقظون** يتّضح أنه يدل على **قيامة الأجساد**، لأنه لا يمكن القول كيف ترقد النفوس في تراب الأرض.

غير أنّ الرب في أناجيله المقدّسة قد سلَّمنا تسليماً ساطعَ الوضوح أنها ستكون قيامة الأجساد بقوله: «لا تتعجّبوا من هذا لأنها ستأتي ساعة يسمعُ فيها جميعُ من في القبور صوت ابن الله فيخرج الذين عملوا الصالحات إلى قيامة الحياة والذين عملوا السيّئات إلى قيامة الدينونة»[٢٢٥] ولا يقولنَّ أحدٌ ممن يحسنون التفكير بأنّ في القبور نفوساً!.

---

(٢١٦) تكوين ٩:٣ – ٦ (٢١٧) خروج ٣:٦ (٢١٨) متّى ٢٢:٣٢ (٢١٩) حكمة ٣:١
(٢٢٠) مز ١٠٣:٢٩ (٢٢١) مز ١٠٣:٣٠ (٢٢٢) أشعيا ٢٦:١٩ (٢٢٣) حزقيال ٣٧:٧ – ٨
(٢٢٤) دانيال ١٢:١ – ٣ (٢٢٥) يوحنّا ٥:٢٨ – ٢٩

ولقد أظهر لنا قيامة الأجساد ليس بالقول فحسب، بل بالعمل أيضاً. فهو أولاً قد أقام لعازر لأربعة أيام، وكان قد فسد وأنتن [٢٢٦]، ولم يقمْ نفسه بمعزل عن جسده، بل جسده مع نفسه. وهو لم يُقمْ أحداً آخر، بل قد أقامه هو هو نفسه، وكان قد فسد. وكيف يا ترى تُعرف قيامة المائت وتتحقّق إذا كانت لا تثبتها ميزاته الخاصة؟ غير أنّ المسيح أقام أيضاً لعازر بغية إعلان لاهوته للإيمان بقيامته وبقيامتنا، ثم يعيده إلى الموت في المستقبل. وبذلك صار الرب نفسه باكورة للقيامة الكاملة التي لا تخضع بعدُ للموت مطلقاً. فقد قال بولس الإلهي: «لأنه إن كان الأموات لا يقومون فالمسيح إذاً لم يقمْ. وإن كان المسيح لم يقمْ، فإيماننا باطل ونحن بعدُ في خطايانا» [٢٢٧]. و «لكنّ الحال أنّ المسيح قد قام من بين الأموات وهو باكورة الراقدين» [٢٢٨] و «هو المبدأُ البكر من بين الأموات» [٢٢٩]. وأيضاً: «فإنّا إن كنّا نؤمن أن يسوع قد مات ثم قام فكذلك سيُحضرُ الراقدين بيسوع معه» [٢٣٠] وكلمة **كذلك** هنا معناها: **كما قد قام المسيح**.

وواضح أن قيامة الربّ كانت اتحاد جسده الذي لا يفسد مع نفسه، لأنهما كانا منفصلين. وقد قال: «أنقضوا هذا الهيكل وأنا في ثلاثة أيام أُقيمه» [٢٣١] والإنجيل المقدّس يشهد في أماكن شتّى بأنه كان يعني جسده الخاص. وفيما كان تلاميذه الأخصّاء يظنّون بأنهم يرَون روحاً، قال لهم الربّ: «جسّوني وانظروا، فإنّ الروح لا لحمَ له ولا عظام كما ترَون لي» [٢٣٢]. ولمّا كان يقول لهم هذا، أراهم يديه وجنبه وقدّمها لتوما ليجسّها [٢٣٣]. أفلَم تكن هذه كلها كافية لحملنا على الإيمان بقيامة الأجساد؟

ويقول الرسول الإلهيّ مجدّداً: «لأنه لا بدَّ لهذا الفاسد أن يلبس عدم الفساد ولهذا المائت أن يلبس عدم الموت» [٢٣٤]. وأيضاً: «الزرع بفساد والقيامة بغير فساد. الزرع بهوانٍ والقيامة بمجد. الزرع بضعف والقيامة بقوّة. يُزرع جسد نفساني – أي كثيف ومائت – ويقوم جسدٌ روحاني» [٢٣٥]، على مثال جسد المسيح بعد القيامة، يدخل والأبواب مغلقة، لا يتعب ولا يحتاج إلى أكل ولا نوم ولا شرب، «لأنهم – يقول الرب – سيكونون كملائكة الله» [٢٣٦] حيث لا زواج ولا ولادة أولاد. ومن ثم يقول الرسول الإلهي: «أما

---

(٢٢٦) يوحنا ١١: ٣٨ (٢٢٧) ١ كور ١٥: ١٦ – ١٧ (٢٢٨) ١ كور ١٥: ٢٠ (٢٢٩) كولوسي ١: ١٨
(٢٣٠) ١ تسّا ٤: ١٤ (٢٣١) يوحنّا ٢: ١٩ (٢٣٢) لوقا ٢٤: ٣٧ (٢٣٣) يوحنّا ٢٠: ٢٧
(٢٣٤) ١ كور ١٥: ٥٣ (٢٣٥) ١ كور ١٥: ٤٢ – ٤٤ (٢٣٦) مرقس ١٢: ٢٥

نحن فسيرتُنا في السماوات التي منها ننتظر المخلص الرب يسوع المسيح الذي سيغيّر جسد تواضعنا ليكون على صورة جسد مجده»[٢٣٧] . فلا يقول بتغيير إلى صورة أخرى ، حاشا ! بل بالأحرى بتحويل من الفساد إلى عدم الفساد.

تكون القيامة على مثال تكوين جسمنا : – ويقول قائلٌ : «كيف يقوم الأموات»؟ – يا للكفر ، يا للجهل ، إنّ الذي بإرادته فقط يحوّل التراب إلى جسم ، ويأمر نطفةً صغيرة من الزرع بأن تنموَ في الرحم وتتحوّل إلى جسمٍ بكامل أعضائه الكثيرة الأنواع والأشكال ، ألا يُقيم من جديد ذاك الذي كان قد كوّنه وانحلّ ، وذلك بمجرّد أن يريد؟... «وبأي جسمٍ يقومون»؟ يا جاهل ، إذا كان تحجُّرك لا يسمح لك بأن تؤمن بأقوال الله ، فآمن أقلّه بأعماله : «فإنّ ما تزرعه أنتَ لا يحيا إلاّ إذا مات . وما تزرعه ليس هو ذلك الجسم الذي سوف يكون ، بل هو مجرّد حبّة من الحنطة مثلاً أو غيرها من البذور . إلاّ أنّ الله يجعل لها جسماً كيف شاء ولكل من الزروع جسمُه المختصّ به»[٢٣٨] . وعليه انظر إلى البذور مطمورة في الأتلام كما لو كانت في قبور ، فمَن الذي يضع لها أصولها وسوقها وأوراقها وسنبلَها وحسكها الدقيق ، أليس هو خالق الكلّ؟ والذي بأمره قد صُنع الكلّ؟.. فآمن إذاً بأن على هذه الصورة سوف تكون قيامتنا أيضاً وذلك بإرادته تعالى وبإشارة منه . فإنّ قوّته هي طوع إرادته.

وبعد القيامة الدينونة والمكافأة على الأعمال : – بناءً عليه ، إننا سنقوم عندما تتّحد نفوسنا بأجسادنا التي أضحت غير بالية بانتزاع الفساد عنها . وسنمثُلُ لدى منبر المسيح الرهيب . ويدفع بإبليس وشياطينه وبإنسانه المدعوّ المسيح الدجّال والكَفَرة والخطأة إلى النار الأبدية . أمّا الذين عملوا الصالحات فسيتلألأون كالشمس مع الملائكة في الحياة الأبدية مع ربنا يسوع المسيح ، ناظرين إليه دائماً وهو ناظر إليهم ، مجتنين من لدنه السعادة التي لا تنتهي ومسبّحينه مع الآب والابن والروح القدس إلى دهور الدهور التي لا تحدّ. آمين.

---

(٢٣٧) فيلبي ٣: ٢٠ – ٢١ (٢٣٨) ١ كور ١٥: ٣٥ – ٣٨

سلسلة
الفكر المسيحي بين الأمس واليوم

تضمّ هذه السلسلة مجموعة من المؤلفات القديمة والحديثة، التي تبحث في مختلف أبعاد الإيمان المسيحي، وتفسّر مختلف مواضيع العقيدة المسيحية تفسيراً يتلاءم ومقتضيات العصر ويجيب على الأسئلة التي طرحها الفكر الانساني على مدى العصور. وتجمع هذه السلسلة كتباً مؤلفة مباشرة باللغة العربية، وكتباً مترجمة من مؤلفات كبار المفكرين واللاهوتيين القدماء والمعاصرين.

٥ - القديس يوحنا الدمشقي : **المئة مقالة في الإيمان الأرثوذكسي**

تعريب الارشمندريت أدريانوس شكور، ق.ب.

«**المئة مقالة في الايمان الارثوذكسي**» هي الجزء الثالث من كتاب «**ينبوع المعرفة**» للقديس يوحنا الدمشقي، آخر آباء الكنيسة الشرقية (٦٧٥ - ٧٤٩). في الجزء الاول من تلك الموسوعة اللاهوتية يعالج القديس «علم الفلسفة والمنطق»، وفي الجزء الثاني يسرد تاريخ معظم الهرطقات. وهذان الجزءان هما بمثابة مقدمة للجزء الثالث الذي يعتبر الأهمّ من تلك الموسوعة، وفيه يعرض الدمشقيّ لمعظم عقائد الإيمان المسيحي: الله الواحد، الأقانيم الثلاثة، الخلق، الملائكة، العالم، الإنسان، سرّ الخلاص أو التجسّد الإلهي، الإيمان، قيامة الأموات، تكريم الإيقونات والقديسين.

لقد كانت «**المئة مقالة**» على مدى العصور، ولا سيّما في الشرق المسيحي، الكتاب الأكثر استعمالاً لدراسة اللاهوت. وقد اقتبس منها ومن منهجيّتها اللاهوت الغربيّ منذ القرون الوسطى. وتتميّز هذه المقالات بأنها توجز بوضوح الفكر اللاهوتيّ لآباء الكنيسة الشرقية منذ القرون الأولى حتى القرن السابع.

إن هذا الكتاب قد تُرجم مرارًا في القرون السابقة الى اللغة العربية. إلّا أنّ تلك الترجمات لا تزال كلها مخطوطة. إنها المرة الأولى التي يُنشر فيها هذا الكتاب مطبوعًا باللغة العربية.

في السلسلة عينها:

١ - الأب اغناطيوس ديك : **الله حياتنا**

٢ - الأب سليم بسترس : **اللاهوت المسيحي والإنسان المعاصر**

الجزء ١ : (الله الخالق - الشرّ والخطيئة الأصليّة - يسوع المسيح)

٣ - **الجزء ٢** : (الروح القدس - النعمة - الكنيسة) **(يظهر قريبًا)**

٤ - **الجزء ٣** : (الأسرار - الحياة الأبديّة) **(يظهر قريباً)**

منشورات المكتبة البولسية